ألبِرْتوُ أرْمَاني

جمهورية اشتراكية مسيحية

اليسوعيّون وهنود البَرَكواي
(١٦٠٩ - ١٧٦٨)

نقلَه عَن الإيطاليّة
د. كميل اسكندر حشيمه



دار المشرق
بيروت

دار المشرق ش.م.م. ص.ب. ٩٤٦، بيروت – لبنان

ISBN 2-7214-7001-9

التوزيع : **المكتبة الشرقية**
ص.ب. ١٩٨٦، بيروت – لبنان

صدر هذا الكتاب في أصله الايطاليّ
بالعنوان التالي :

Alberto Armani: *Città di Dio*
e Città del Sole. Lo "Stato"
gesuita dei Guarani (1609-1768)
Edizioni Studium – Roma

تصميم الغلاف : **جان قرطباوي**

ألبرتو أرماني

جمهورية اشتراكية مسيحية

اليسوعيون وهنود البرکواي
(١٦٠٩-١٧٦٨)

نقله عن الإيطالية
د. كميل إسكندر حشيمه

دار المشرق - بيروت

ممّا صدر للمعرّب :

* **لويس شيخو وكتابه «النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة»**، سلسلة «بحوث ودراسات»، بيروت، ١٩٦٧ (بالفرنسية).
* **الأب لويس شيخو : ما كتبه وما كُتب عنه**، سلسلة «بحوث ودراسات»، بيروت، ١٩٧٨.
* **اليسوعيّون والآداب العربيّة في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين**، حلب، ١٩٧٩.
* **الترجمة بالنصوص**،
  - بيروت، ١٩٨٠ (منشورات دار المشرق)، طبعة أولى.
  - حلب، ١٩٨١ (منشورات جامعة حلب)، طبعة أولى.
  - بيروت، ١٩٨٢ (منشورات دار المشرق)، طبعة ثانية،
* **لويس شيخو : علماء النصرانيّة في الإسلام**، حقّقه وزاد عليه وقدّم له الأب كميل حشيمه، سلسلة «التراث العربي المسيحي»، رقم ٥، جونيه – روما، ١٩٨٣.
* **لويس شيخو : وزراء النصرانيّة وكتّابها في الإسلام**، حقّقه وزاد عليه وقدّم له الأب كميل حشيمه، سلسلة «التراث العربي المسيحي»، رقم ١١، جونيه – روما، ١٩٨٧.

* * *

* **على درب الجلجلة** (تأمّلات)، بيروت، ١٩٧٢.
* **لا أومن بهذا الإله** (معرّب عن الفرنسيّة)، بيروت، ١٩٨١ (طبعة ثانية ١٩٨٧).

مدخل الكتاب

ما إنْ تمَّ «اكتشاف» أميركا، سنةَ ١٤٩٢، حتّى تدفّقت على «العالم الجديد» أفواج الإسبانيّين والبرتغاليّين، فراحوا يستعمرون البلاد مع ما في ذلك من إيجابيّات وسلبيّات. وإلى جانب المستوطنين سار المبشّرون يسعَون إلى نشر التعاليم المسيحيّة بين الهنود، وكثيرًا ما اضطُرّوا إلى مواجهة المستعمرين للحدّ من جشعهم واستغلالهم السكّان الأصليّين، ولم يكن سعيهم دومًا بالأمر اليسير.

وبعد مضيّ نحو مائة سنة، في مطلع القرن السابع عشر، قامت في وسط أميركا الجنوبيّة محاولةٌ مستحدَثة، فريدةٌ مِن نوعها في التاريخ. فإنّ الحكومة الاسبانيّة سمحت للرهبانيّة اليسوعيّة الفتيّة بإنشاء ما يشبه «دولة»، قوامها سلسلةٌ من القرى أو «الحواضر»، حيث جُمع الهنود الگواراني* ليُنقَلوا من حال البداوة إلى حياة الحضَر، ناعمين بالحماية والأمان والاحترام. وازدهرت قراهم على مختلف المستويات: الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، فضلاً عن الدينيّة والعسكريّة. وبقيت تلك «الحواضر» تؤدّي رسالتها حتّى سنة ١٧٦٨ حيث أُجبِر اليسوعيّون على مغادرة المنطقة بأمرٍ من

* عبّرنا عن الصوت الأجنبيّ Gu بالحرف گ، وعن الصوتين V و P بالحرفين ڤ وپ.

البابا بعد أن ضَغطت عليه الحكوماتُ الأوروبيَّة المناهضة للكنيسة عامّةً وللرهبانيّة اليسوعيَّة خاصَّة.

ولقد كثرت المؤلَّفات حول تلك التجربة الفريدة، بعضها مبسَّطٌ وبعضها متعمِّقٌ مسهَب، منها المطرئ ومنها المغرض المتهجِّم. أمّا الكتاب الذي نضع الآن ترجمته بين يَدَي القارئ العربيّ، فيتميّز بروحه العلميَّة الرصينة وسعة المعلومات المتوفِّرة فيه، تارةً يَسترسل حيث ينبغي الاستفاضة، وطورًا يوجِز حيث لا داعي للتطوال، مع إلمام المؤلِّف بسائر ما كُتب قبله حول الموضوع. وصاحِبُ الكتاب، أَلبرتُو أَرمانِي، المولود عام ١٩٢٧ في روما، واسع الثقافة، دَرَس الحقوق والعلوم السياسيَّة، وأدارَ عددًا من المنشآت الصناعيَّة في بلاده، وعمل سنين طويلةً في شؤون التعاون الدوليّ متنقّلاً بين إفريقيا وآسيا والأميركتَين والمغرب العربيّ وأوروبّا.

ومن ميِّزات كتاب أرماني أنَّه يعالج قضيَّةً هي بمكانٍ من الأهميَّة في كلِّ عصرٍ وفي أيَّامنا بنوعٍ خاصّ. ذلك بأنَّ مسألة حقوق الإنسان وحقوق الجماعات المستضعَفة هي شغل المسؤولين الشاغل في عالمنا المعاصر، وقد انبرى المنظِّرون والمنفِّذون يروِّجون النُظُم السياسيَّة والاقتصاديَّة لمعالجة المشاكل، فيأتون بالحلول الشيوعيَّة والرأسماليَّة والاشتراكيَّة والليبراليَّة وما إليها، فيُخفق بعضها إخفاقًا ذريعًا، ويتعثَّر

بعضها ، ويحقّق بعضها الآخر شيئًا من النجاح على قدر ما يراعي ، في معالجته ، حقوقَ الأفراد لا سيَّما كرامتَهم وحرّيّتهم . ولئن أُعطي لليسوعيِّين العاملين بين الگواراني أن تُفْلِح محاولتُهم وتستمرَّ طوال قرنٍ ونصف القرن ولا تتوقّف إلاّ بضغطِ قاهر ، فلأنّهم سعوا إلى خدمة الشعب الموكول إليهم دون مصالحٍ يرجونها لأنفسهم ، أو مآربَ خفيَّةٍ يبتغونها ، وجُلُّ همهم أن يساعدوا أُناسًا بدائيّين ، آخذين بِيدهم لِيُصعدوهم في معارج الحضارة والتقدُّم ، سالكين معهم سبيل الاشتراكيَّة المستنيرة ، أو قُل المشارَكةَ الواعية التي تقوم على الالتزام الحرِّ واحترام الجماعة والفرد معًا ، مع مراعاة التقاليد الموروثة والبيئة والظروف الراهنة . وإنَّ في تلك المحاولة الفريدة لَعِبرةً لكلِّ مَن يَنْشد ترقِّيَ الشعوب وبناءَ مجتمعٍ إنسانيّ أفضل** .

الناقل

** نقلنا الكتاب بدقّةٍ وأمانة ولم نتصرَّف بالمتن إلاّ مرَّتين أو ثلاثًا حيث لم يكن مِن التصرُّف مِن بدّ . أمّا بالنسبة إلى الحواشي الكثيرة في الأصل ، فقد أثبتنا أهمَّها ، ممّا لا مندوحة عنه لفهم تسلسل الأفكار ، وأعرضنا عن التي اقتصرت على إيراد المراجع ، فجميعها باللغات الأجنبيّة ويصعب إقحامها في النصِّ المنقول ؛ إلاّ أنّنا أتينا على ذكر تلك المراجع مجتمعةً في آخر المصنَّف ليتسنّى للباحثين الإفادة منها . وقد ألحقنا الكتاب بفهرسين للأعلام و «الحواضر» أعددناهما ولم يكونا في الأصل .

١ في قلب أميركا الجنوبيَّة، وفي منطقةٍ واسعة الأرجاء تتقاسمها اليومَ الأرجنتينُ والبرازيل والبرگواي، تمَّت، بين مطلع القرن السابعَ عشر ومنتصف الثامن عشر، تجربةٌ حضاريّة فريدة من نوعها. فقد أُوكلت الحكومةُ الإسبانيّة آنذاك إلى الرهبانيَّة اليسوعيَّة مهمَّةَ نَشْر التمدُّن بين سكّان البرگواي الشرقيّ، وهُم قبائل الهنود الگواراني .Guarani

٢ بقيت هٰذه التجربة نَسيجَ وحْدِها لا مثيل لها من حيث أبعادها ومدَّتها، وعُرفت – أو أُسيئت معرفتها – «بِدولة» اليسوعيِّين في البرگواي، أو بعبارةٍ أصحّ: دولتهم بين الگواراني. وقد شيَّدت الرهبانيَّة اليسوعيَّة هٰذه «الدولة» بإنشائها جهازًا معقَّدًا من القرى، أو «الحواضر»، حيث دُفع الهنود الگواراني الرُحَّل إلى اعتناق حياة الحَضَر، وحيث ازدهرت مدنيَّةٌ مميَّزة اقترن فيها التقدُّم الماديّ بمنجَزاتٍ فريدة في الميادين الاقتصاديَّة والاجتماعيّة والثقافيَّة والدينيَّة، وحتّى العسكريَّة. ودامت هٰذه «الدولة» اليسوعيَّة مائةً وخمسين عامًا ونيِّفًا، وانتهت بشكلٍ مفاجئٍ مأسوي مع طرد الرهبان اليسوعيِّين من المستعمَرات الإسبانيَّة بأمر المَلك كارلوس الثالث. إلاّ أنَّ الگواراني بَقُوا، وقد نَجَوا – كمجموعةٍ عرقيَّة – مِن الإبادة خلال سنوات الاستعمار العصيبة، وذٰلك بفضل عمل المرسَلين، وكان بقاؤهم هٰذا شهادةً لحسن ما أنجزه اليسوعيُّون. واليومَ يَضمّ العنصرُ الگواراني غالبيَّة سكّان البرگواي، ولغتُه تنافس اللسان الإسبانيّ في البلد المذكور.

* * *

٣ لقد تسبَّبت «دولةُ» اليسوعيِّين بين الگواراني، سواءٌ خلال وجودها العسير أو بعد زوالها من الوجود، بصدور مؤلَّفاتٍ لا تحصى من النوع الصحافيِّ والتعميميّ، توقَّفتْ، أكثرَ ما توقَّفت، عند الظواهر الفولكلوريَّة في حياة قبائل الگواراني. كما أنّها كانت موضوعَ اهتمام عددٍ كبير من أرباب السياسة والفكر مِمَّن سعَوا إلى تأويلِ ظاهرة «حواضر» البرگواي تأويلاً مناسبًا، متحرِّين بنوعٍ خاص ما يمتُّ إلى نظامها الاقتصاديِّ الاجتماعيّ المطبوع بطابع الجماعيَّة. وقد مرَّت عمليَّة التأويل هٰذه بعدَّة مراحل:

٤ **المرحلة الأُولى**، تعود إلى فترة «الفكر المستنير» في القرن الثامن عشر، ومِن أئمَّتها البارزين ڤُولْتير Voltaire ومُونْتِسْكيُو Montesquieu فبالرغم من عداء هٰذين المفكِّرَيْن وسواهما للمؤسَّسة الكنسيَّة، إلاّ أنَّ حُكمهم في بادرة اليسوعيِّين بين أهل البرگواي كان إيجابيًّا، وقد رأوا فيها محاولةً جديَّة لإرساء نظام **عادل** بين هؤلاء الناس البعيدين.

٥ وفي الفترة نفسها صنَّف أحد الكهنة الإيطاليِّين، المدعو لُودُوڤِيكُو أنْطُونيُو مُوراتُوري Muratori، كتابًا خاصًّا بهٰذه المسألة عنوانه: «المسيحيَّة السعيدة في إرساليّات آباء الرهبانيّة اليسوعيّة بالبراگواي»، نشرَه في البندقيّة عام ١٧٤٣. «فالدولة» اليسوعيّة هي، في نظر المؤلِّف، محاولة نابعة من جوّ التجدّد الروحيّ السائد على أثَر «الإصلاح المعاكس»، وهي تسعى إلى تحقيق مجتمع له طابع المسيحيّة الأُولى حيث البساطة في العادات، وحيث شهوة الغنى المادّيّ مجهولة أو منبوذة. وكان الكتاب كلّه تقريظًا لِما حقّقه المرسلَون، ومِن أهدافه إعطاء تفسير أَخلاقيّ غائيّ للجماعيّة القائمة في «الحواضر»: «إنّ المِلكيّة الخاصّة والرغبة في مضاعفة الأموال هما في أوروبّا من دواعي المشاكل والاضطرابات بين الناس. أمّا هؤلاء المسيحيّون الطيّبون – الگواراني – فهم بمنأى عن هٰذه الشجون». ولئن تحمّس مُوراتوري للكتابة عن الإرساليّات، لأنّ نظامها الاجتماعيّ الاقتصاديّ كان يذكِّرُه بالكنيسة المسيحيّة القديمة على ما جاء وصفُها في سِفر «أعمال الرسل»، إلاّ أنّه كان، إلى ذٰلك، يُضمر في دراسته تهجّمًا غير مباشر على بعض مواقف كنيسة القرن السابع عشر، التي تساهلت إلى حدّ بعيد في سماحها بمظاهر

للعبادة بالية، يشوبها الكثير من التقوى الزائفة والخرافات، ممّا يتنافى بلا شكّ والروح الانجيليّة.

٦ «المستنيرون» والكاهن الإيطاليّ انطلقوا إذًا مِن تأويلٍ مسبَق لظاهرة «الحواضر»، على الرَّغم مِن أنَّهم أَحسنوا في التركيز على ميّزات أساسيّة كالعدالة والمشاركة، وقد أَخطأوا في عدم تحليل واقع «الدولة» اليسوعيَّة ضمن إطارٍ أَوسَع يشمل كامل التاريخ والسياسة في الإمبراطوريَّة الإسبانيَّة بأميركا. يُضاف إلى ذٰلك أنّ موراتوري بالَغ في تركيزه على الناحيتين الأخلاقيّة والدينيّة في منجَزات اليسوعيِّين، فأطرأ هٰذه المآثر، وكأنّها المثال الأعلى، حاطًّا من قدر المؤسَّسة الكنسيّة المتعلمِنة في عصره. وكانت الحصيلة أشبه شيء بلوحة زيتيّة تقَويَّة استندَتْ إلى المصادر اليسوعيّة دون سواها، كرسائل الراهبَين الإيطاليَّين كتّانيو Cattaneo وجرْڤاسُوني Gervasoni وشهادة يسوعيٍّ ثالث هو المجريّ أُرُوس Orosz. ومن ثَمَّ فإنَّ مصنَّف موراتوري هو عمل بنَّاء ولكنّه أقرب ما يكون إلى المحاولة الصحافيّة، ولا يمكنه اليوم أن يشكّل حافزًا للتعمّق العلميّ الناقد في مدى تأثير اليسوعيّين بين الگواراني.

٧ **المرحلة الثانية**، كانت في القرن الثامن عشر، واتّصفت بالرومنطيقيّة، وتُنسب انطلاقتها إلى الأديب الفرنسيّ شاتُوبْريان. بيد أنّ مصدرها الحقيقيّ هو إكليريكيٌّ آخر، اليسوعيُّ الكَتَلُونيّ خُوسِيه مانُويِل پراماس Peramas المرسَل السابق في البرگواي ومدرِّس الخطابة الأسبق في معهد قُرطبة الجامعيّ، الذي نُفي إلى إيطاليا بعد طرد اليسوعيّين من إسبانيا ومستعمراتها. فقد أَدرج پراماس في كتابه هٰذا – وهو كناية عن مذكّراته حول التجربة بين الگواراني – بحثًا نظريًّا ابتغى من خلاله إقامة البرهان على أنّ نظريّات أفلاطون السياسيّة، تلك التي عبَّر عنها في كتاب «الجمهوريّة» وكتاب «الشرائع»، قد تحقّقت، أقلّه بصورة جزئيّة، بين الگواراني وبفضل ما قامت به الرهبانيّة اليسوعيّة. وممّا بيّنه پراماس أنّ التطابق بين الدولة التي ارتآها أفلاطون و«الحواضر» الهنديّة لم يَعْنِ أنّ اليسوعيّين تبنَّوا نظريّات الفيلسوف اليونانيّ، بقدر ما دلَّ على شيوع العقل السليم وإمكانيّة مساهَمةِ مختلف الخبرات الإنسانيّة في تطوّر نُظُم الحياة الاجتماعيّة وتقدّمها.

٨ وثمّة اتجاه مشابه سار فيه بعض المفكّرين الألمان ممّن رأى، في خبرة اليسوعيّين بالبرَكواي، محاولةً جادّةً تَسعى لتنقل إلى الواقع الملموس النظريّات الوهميّة التي روّجها الفلاسفة، أمثال أفلاطون في القديم، وتوماس مُور T. More وتُوماسُو كامْبانِلاّ T. Campanella في عصر النهضة، أو أقلّه لتُحقّق «ملكوت الله» في الأرض. فالمؤرّخ وعالِم الاقتصاد إبرْهَرْد كُوتاين E. Gothein (١٨٥٣ – ١٩٢٣) أراد بنوع خاص مقابلة «دولة اليسوعيّين «بمدينة الشمس» كما تخيَّلها كامپانلاّ. ولمّا كان كُوتاين هذا مِن خير العارفين بالشؤون الايطاليّة، فقد ارتأى أنّ مؤسِّسَي «حواضر» الكَوَايْرا Guayrá، المرسلَين الإيطاليَّين كَتَلْدِيني Cataldini ومَشِتّي Mascetti، هما، في أغلب الظنّ، صاحبا فكرة النظام الذي ساد في البرَكواي؛ وإذ كانا من المتحمِّسين لنظريّات كامْبانِلاّ، فقد راودهما حُلم إنشاء جماعة شيوعيّة مسيحيّة أو مسيحيّة اجتماعيّة تقُوم في البرَكواي البعيد، وعَرَضا هٰذه الفكرة على الملك فيلِيبُّس الثاني، عاهل إسبانيا، الذي وافق عليها وأيّد تحقيقها. بيد أنّ هٰذه الفرضيَّة أَبعد ما تكون عن الواقع، فليس ثمّة أيّة وثائق من تلك الحقبة نستطيع أن ندعمها بها، كالرسائل أو المذكّرات أو المحاضر أو قرارات السلطة المحليّة أو الملكيّة. وعلى العكس، فهناك اعتبارات موضوعيّة كثيرة تدفع إلى إدراج أطروحة كوتاين في عداد المحاولات الخياليّة. فالعلاقات بين اليسوعيّين والبلاط الإسبانيّ لم تَقم آنذاك إلاّ عن طريق مدبّرِي الرهبانيّة، وبالتالي ليس هنالك ما يشير إلى أنّ أيّة مسؤوليّة من النوع المذكور أُنيطت بالراهبَين الإيطاليَّين. ثمّ إنّ كتلديني ومشتّي كانا في شرخ الشباب لمّا ذهبا إلى أميركا، ولم يعودا قطّ بعد ذٰلك إلى أوروبّا، ومَن عَرَف صرامة الحياة الرهبانيّة وقوانينها في القرن السابع عشر لا يتردّد لحظة في أن يَستبعد كلَّ الاستبعاد أن يكون قد سُمِح لراهبين شابّين التقدّم من السلطات الإسبانيّة، ومن الملك بالذات، بمشاريع مستقبليّة، لا سيّما أنّ هٰذه المشروعات مستوحاة من مؤلِّف لم يكن يُشتمّ منه رائحة البدعة فقط، بل كان يُعتَبر عدوًّا لدودًا لسياسة إسبانيا، حتى إنّه أُودع السجن في نابولي وبقي فيه من ١٦٠٢ حتى ١٦٢٦. أضف إلى ذلك أنّ كلّ بادرة تَمُتُّ بِصلة إلى البلاد الأميركيّة كانت تُحال للمصادقة إلى

«مجلس الشؤون الهنديّة»، وهي هيئة إداريّة إسبانيّة كان من عادتِها التحفّظ الشديد لا في الأمور المستحدثة وحدَها، بل في المسائل الإداريّة العاديّة. فلا يُعقل أن يكون المجلس المذكور قد أَسرع في اتّخاذ قرارات على هٰذا الجانب من الأهمّيّة لإرضاء كاهنَيْن شابّين من ذوي الأفكار «التقدّميّة». ولو افترضنا أنّه فعَل، لَبَقِيتْ، دون شكّ، بعضُ آثار لذٰلك في محفوظات الدولة الإسبانيّة.

٩ وممّا لا ريب فيه أيضًا أنّ أحد أسباب عَزْو المحاولة الاشتراكيّة في البرَكواي إلى كَتَلديني ومشتّي هو كون هٰذين الراهبين إيطاليّين، أعني من البلد الذي كانت له في بعث النهضة اليد الطولى والنصيب الأوفر. بيد أنّه، وإن يَكُ لهٰذين الكاهنين فضلُ الريادة في إنشاء «حواضر» الگوايرا، فينبغي للباحث الموضوعيّ أن يَنتزع عن صورتيهما ملامحَ وهميّةً أَلصقها بهما كتّابٌ عاشوا في أزمنة لاحقة. ذٰلك بأنّ كلا الراهبين كان لا يتوق سوى إلى العمل بين غير المُؤمنين حيثما وُجدوا. فلمّا كَتَبا الى رئيس رهبانيّتهما العامّ، الأب كلاَودِيُو أكواڤِيڤا C. Acquaviva، وفاتحاه برغبتهما في الذهاب إلى الإرساليّات، لمْ يَعرضا عليه مخطّطات أو برامجٍ مبتكرة، ولمْ يطلبا التوجّه إلى البرَكواي للقيام فيها باختبارات قد يُسهّلها مستوى الأهلين الثقافيّ المتواضع، لا بل إنّهما لم يطلبا الذهاب إلى أميركا بشكل عامّ. فإنّ كَتلديني أعرب عن «رغبته الشديدة» في أن يُرسَل «خاصّة إلى تلك الأصقاع الهنديّة واليابان والصين»، كما أنّ مشتّي طلب «الإذن بالذهاب إلى الهند وبلاد المسكوڤ وتركيا، أو الى حيث ترى قداستُكم أنّ ثمّة تمجيدًا لله أعظم».

١٠ وفي سياق هذه التآويل الرومنطيقيّة لظاهرة «الحواضر»، تجدر الإشارة أيضًا إلى محاولة أدبيّة لا تخلو من الطرافة. فقد ألّف النمساويّ فرِتْس هُوخْڤالدِر F. Hochwaelder عامَ ١٩٤١ مأساةً من النوعِ الملتزِم أسماها «الاختبار المقدّس» *Der heilige Experiment*، وهي تَنطلق من حادثة طرد اليسوعيّين من البرَكواي ونهاية «دولة الله» بين الگواراني. وعَرفتْ هٰذه المأثرة قمّة نجاحها في الخمسينات لمّا مُثِّلت في باريس بعنوان «في الأرض كما

في السماء » *Sur la terre comme au ciel* ، ثمّ في إيطاليا بالعنوان الأوّل *Il sacro esperimento* . وعُرِضتْ أيضًا على شاشات التلفزيون.

١١ **المرحلة الثالثة** والأخيرة من مراحل تأويل ظاهرة « الحواضر » هي التي نَظر فيها المفسّرون بمنظار الفكر الاشتراكيّ. وأوّل مَن طرق هٰذا السبيلَ الإسكتلنديُّ رُوبرت كَنِنگهَم گراهام R.C. Graham أحد مؤسّسي حزب العمّال الإنكليزيّ. كما أنّ مِن أبرز السالكين فيه الكاهن السويسريّ كلُوڤيس لُوگون C. Lugon الذي رأى في مأثرة اليسوعيّين أُولى الإنجازات التاريخيّة ، في العصور الحديثة ، للشيوعيّة المسيحيّة. وإنّ ما كتبه هٰذا الاكليريكيّ « التقدّميّ » عام ١٩٤٩ ، وسط جوّ بَرَزتْ فيه محاولةُ الكهنة العمّال والحركات الشيوعيّة المسيحيّة التي تَلَت نهاية الحرب الكونيّة ، قد أذكى شعلة الاهتمام « بحواضر » البرگواي. أمّا المَقُولة التي طَرَحها ، فمفادُها أنّ اليسوعيّين حاولوا تنظيم إرساليّاتهم الأميركيّة بوحي مِن أشدّ النُظم الشيوعيّة تزمّتًا ، ولمْ يُحجموا عن مبادرتهم هٰذه إلاّ بضغط مِن البلاط الإسبانيّ. ومع أنّ كتابَ لُوگون شائق المطالعة يَشدّ القرّاء إليه كما تشدّهم أَجمَلُ الروايات ، إلاّ أنّه لم يكن من البحث العلمي في شيء ، وقد اكتفى صاحبُه بالمصادر والأحداث التي تناسب أطروحته ، وقِوامها اعتبار النظام الشيوعيّ ، الذي أنشِئ في الحواضر ، هدفًا لا وسيلة. وبالتالي فإنّه غاب عن المؤلِّف أنّ الرهبانيّة اليسوعيّة سعت في البرگواي ، « أوّلَ » ما سعت ، إلى القيام بعمل تبشيريّ « يُمجَّد اللهُ فيه أَعظم تمجيد » ، وكلّ ما خلا ذلك ، بما فيه التنظيم الاجتماعيّ والاقتصاديّ ، إنّما كان عَرَضًا ووسيلة لا غير.

* * *

١٢ كلّ النظريّات والتفاسير التي سلفت الإشارةُ إليها تبدو شائقةً مثيرة ، إلاّ أنّها لا تخلو من الانحياز ، وبالنتيجة من التشويه ، نظرًا لكونها أفكارًا مسبقة ، ممّا يدفع الى الشكّ في صحّتها على الصعيد التاريخيّ. أمّا الغاية من البحث الآتي ، فهي المحاولة لإعادة كتابة تاريخ « الدولة » الهنديّة الأصيلة ، بصرف النظر عن كلّ خرافة وكلّ تنميق وكلّ خلفيّة إيديولوجيّة ، وبوضع الأمور في إطار واقع القرنين السابع عشر والثامن عشر.

١ فَتْح أميركا
وأبعاده الدينيّة والسياسيّة والشرعيّة

١) الدين وتأثيره في سياسة الفتح الإسبانيّة

١٣ في ١٦ آب ١٧٦٨ عيَّنت السلطة الإسبانيّة المستَعْمِرة «دُوْن» إنْياثِيو سانْتشِث Sanchez مدبرًّا لحاضرة سان إنياثيو مِنِي، فشرع يسجِّل، على أدقّ ما يكون التسجيل، لائحةً بما صادَره في هٰذه المناسبة مِن أموال انتقلتْ يومذاك مِن عِهدة الرهبانيّة اليسوعيّة إلى إمرة السلطات المدنيّة. ومِمّا دَوّنه:

٣٣٤٠٠ ثلاثة وثلاثون ألف وأربعمائة بقَرة
١٤٠٩ ألف وأربعمائة وتسعة جياد
٣٥٧١ ثلاثة آلاف وخمسمائة وإحدى وسبعون فَرَسًا
٧٣٥٦ سبعة آلاف وثلثمائة وستّة وخمسون خروفًا الخ... الخ...

١٤ وفي اليوم نفسه تلقّى الراهبان الدومنكيّان دُومِنْكُو مارْثِيل Marciel وبُونِيفاثِيُو أُورْتِيث Ortiz آخِر التعليمات مِن خادم رعيّة سان إنياثيو مِنِي اليسوعيّ قَبْل نَفيهِ إلى إيطاليا. وهٰكذا، بعد مائة وتسعة وخمسين عامًا، ترَك اليسوعيّون، بأمر من مَلك إسبانيا كارلوس الثالث، «دولتهم» في البرگواي، حيث التزم العديد مِن خِيرة مرسَليهم. ووقَف الهنود الگوارانِي، سكّان «الحاضرة»، ينظرون مذهولين إلى هٰذا التبديل في الإدارة. ومع أنّهم كانوا قد سَمعوا منذ حين بإمكانية هٰذا الحدَث، إلاّ أنّهم كانوا لا يزالون غيرَ مصدِّقين أنَّ حُماتهم ومدبّريهم سيَرحلون دون إبداء أيّة مقاومة، وسيتركونهم بين أيدي مسؤولين زمنيّين وروحيّين غرباء عنهم، يجهلون حتّى لغتهم وعوائدهم.

١٥ واتّجهت قافلة اليسوعيّين الصغيرة ، بحراسة نفر من المسلّحين ، إلى بْوِينُس آيْرِس. وبعد بضعة أيّام ، فيما كانت جماعة مِن المرسَلين تَصعد إلى السفينة التي ستقلّهم إلى إيطاليا ، عَلّق الحاكمُ فرانثِيسكو دِي باولا بُوكارِلي Bucareli على الحدث ، قال ، «إنّها بالحقيقة هديّة جميلة تُرسَل إلى البابا». وبذلك انتهى فصل من فصول تاريخ أميركا الجنوبيّة ، وكان قد بُوشِر به ، مثقَلاً بالآمال ، منذ قرن ونصف ، وكانت جذوره تعود إلى السنوات الأُولى من فتح الإسبانيّين لأميركا.

* * *

١٦ في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر ، شرعت الدول البحريّة العظمى ، وفي طليعتها إسبانيا (أو بعبارة أصحّ : مملكة قَشْتالة) والبرتغال ، باحتلال واستعمار القارّة الأميركيّة الحديثة الاكتشاف.

١٧ كانت العمليّة شاقّة شائكة بفعل ضخامتها ، وزاد في تعقيدها عدمُ توفّر وسائل النقل والمواصلات الملائمة في تلك الأيّام ، فكان لا بدّ لها من مدّة زمنيّة طويلة ، ووفرة في الأموال العامّة والخاصّة ، وجهود انسانيّة جبّارة ، وتضحيات جسام. وقد تمّت هذه المسيرة دون أن يُرسَم لها برنامج مسبق مفصّل ، نظرًا لانعدام المعلومات الجغرافيّة الواضحة مِن جهة ، ولأنّها قامت على مبادرات شخصيّة ، من جهة أخرى ، بفعل إقدام «فاتِحِين» سَعَوا من تلقاء نفوسهم ، متجاوزين في كثير من الأوقات التوجيهات الحكوميّة. بيد أنّ ثمّة ميزة اتّصف بها المفهوم السياسيّ لِهذه الفتوحات ، وكذلك سائر الحملات العسكريّة التي رافقتها ، وشتّى مراحل هذا الاستعمار ، هي دوافعها الدينيّة القويّة.

١٨ لقد اعتبَرَت المملكتان القشتاليّة والبرتغاليّة فتحَ أميركا حدثًا سياسيًّا ، وفي الوقت نفسه دينيًّا ؛ وكانتا في ذلك على توافق تامّ مع تقاليدهما الوطنيّة حيث المقوّمات السياسيّة والدينيّة متداخلة ، وكثيرًا ما تكون مندمجة ؛ وذلك نتيجة لذهنيّة تكوّنت بعد قرون من النضال لتحرير الأرض من سيطرة المسلمين ، وضمن إطار تاريخيّ وثقافيّ معيّن ، هو إطار فكر العصر الوسيط

الذي كان يجعل من السلطة البابويّة ، المتحالفة مع المبادئ المسيحيّة ، الأداة المختارة لتحقيق ملكوت الله في الأرض. وخير معبر عن ذلك ، القرار الصادر عن الملك كارلوس الخامس بتاريخ ١٤ أيلول ١٥١٩ في شأن ضمّ المستعمرات الأميركيّة الجديدة إلى مملكة قشتالة. فقد أضحى المليك بهذا الفعل «سيّد الهند الغربيّة وجزر البحر المحيط وقارّاته ، المكتشَفةِ منها وما سوف يُكتَشف ، بِهِبة من السُدّة البابويّة ، لا نتيجةً لحقوق أخرى عادلة أو شرعيّة».

١٩ هذه النظرة بالمنظار الدينيّ إلى التوسّع الاستعماريّ الإسبانيّ والبرتغاليّ ، كانت تدعمها براءات بابويّة يُصدرها الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ نزولاً عند رغبة هذا الفريق أو ذاك ، بحسب الظروف ، مثبتًا بها اتّفاقات سابقة كانت تُبرَم بين ملوك قشتالة والبرتغال لتحديد مناطق توسّعهم ، أو مانحًا إيّاهم إقطاعات «في بلاد غير المؤمنين» مقابلَ التزام الملوك بتبشير شعوب الأصقاع المكتسَبة[1].

٢٠ ومن هذا المنطلق ، كان احتلالُ الإسبانيّين العسكريّ لأميركا ، ونشرُ المسيحيّة فيها ، يسيران جنبًا إلى جنب ؛ وكثيرًا ما أشار مؤرِّخو تلك الحقبة إلى مرافقة المرسَلين للجنود بشكل دائم من أجل تبشير الهنود بعد إخضاعهم للسلطة الجديدة. ويبيّن المؤرّخون أنفسُهم كيف كان المسؤولون المدنيّون في الأراضي المحتلّة يسعون جهدَهم ، أقلّه في البداية ، لتسهيل عمل المرسَلين ، نزولاً عند رغبة الملوك ، وكانوا يفعلون ذلك إمّا عن اقتناع شخصيّ ، أو لأنّ اهتداء السكّان المحليّين كان مدعاة لاستتباب الأمن والاستقرار في حياة المستوطنات. بيد أنّ هذه المسيرة المشتركة المتزامنة بين الحملة الاستعماريّة والنشاط الإرساليّ ، سرعان ما تحوّلَت إلى خلافات بين المُثُل الدينيّة

---

١. من هذه البراءات أربعٌ أصدرها البابا إسكندر السادس عام ١٤٩٣ ، بها ذكر مُلكَ المسيح على العالم أجمع ، وسلطانَ نائبه الحبر الأعظم في تفويض الولاية على الأراضي الجديدة «للمَلِكين الكاثوليكيَّين» – ملكَي قشتالة والبرتغال – لأنّهما سوف يهتمّان بهديِ أهليها إلى الدين المسيحيّ. ولم تلقَ هذه المواقف البابويّة كامل الرضى من الجميع ، وممّا يُروى في ذلك ما قاله ملك فرنسا فرنسيس الأوّل ساخرًا : «دعُوني أرَ وصيّة آدم والفقرة التي بها يحرمني حِصّتي من توزيع الدنيا هذا !».

والمتطلّبات العمليّة المرتبطة بإخضاع الأقاليم الجديدة وتنظيمها وإنمائها، ممّا أبرزَ، بصورة مأسويّة، المتناقضات الدائمة في السياسة الاستعماريّة الإسبانيّة. ذلك بأنّ هذه السياسة كانت تصبو إلى تحقيق هدف مزدوج، فتَبني عبر البحار وطنًا إسبانيًّا جديدًا يقوم على الأسس السياسيّة والاقتصاديّة الأوروبيّة، وتَكتسب في الوقت عينه نفوسًا جديدة للدين المسيحيّ. إلاّ أنّ الهدفين لم يُقيّض لهما التوافق بينهما، وكلّ مرّة توجّب الانتقال من حيّز المبادئ إلى ميدان التطبيق، تباينَتْ المواقف بين السلطة المدنيّة والسلطة الدينيّة.

٢١ ومن المشاكل العمليّة المزمنة مسألةُ العلاقات بين المستعمِرين الأوروبيّين والشعوب المحلّيّة. فالأوّلون، سواء عملوا في التجارة أو التعهّدات الخاصّة أو الحكوميّة، كانوا بحاجة ماسّة إلى يد عاملة رخيصة لاستصلاح الأراضي الجديدة واستيفاء تكاليف السفر والاحتلال بأسرع وقت ممكن. ولمّا كانوا يفتقرون إلى سواعد أوروبيّة، لم يعد لديهم مِن حيلة سوى إكراه السكّان الأصليّين على العمل لصالحهم، فعانى الهنود الأمَرَّين من مستعمريهم على مدى الأيّام[٢]. أمّا ردّة فعل المستعمَرين على هذه الصدمة المفاجئة، التي اضطرّتهم إلى معايشة جماعات تختلف عنهم كلّ الاختلاف عرقيًّا وثقافيًّا، فقد تباينت بتباين الأماكن والتقاليد الاجتماعيّة والسياسيّة الراهنة: بعضهم، لا سيّما الذين انتَمَوا إلى جماعات مبنيّة على النظام الطبقيّ أو الإداريّ، قبِلوا، وإن على مضض، استبدالَ أسيادهم السابقين بآخرين جدد. وبعضهم، ممّن كانوا ينعمون بحرّيّة أوفر، قاوموا ولم يرضخوا إلاّ بعد نضال مرير. وبعضهم الآخر لم يريدوا التبديل قطعًا، واختاروا سبيل الهجرة إلى مناطق أصعب مسلكًا، أو حتّى آثروا لأنفسهم الفناء على البقاء.

٢٢ ولم يكن بوسع المرسَلين التغاضي عن هذه الأوضاع، ولا هُم أرادوا ذلك. فقد أدركوا ما أفضت إليه حالة السكّان الأصليّين الجديدة،

---

٢. رَوى برنال دِياث دِل كَستيليو B. Diaz del Castillo وهو أحد «المستعمِرين» ومؤلّف كتاب عن تاريخ للفتوحات حُرّر سنة ١٥٥٢، أنّ والي جزيرة كوبا طلب من بعض المستعمِرين الجدد غزوَ الهنود لاستعباد نفر منهم يُسَخَّرون في تسيير مراكب الروّاد، فاحتجّ الجند قائلين: «إنّ هذا الطلب لا يرتضيه الله ولا المَلِك، ولا يجوز استعباد أناسٍ أحرار».

وناضلوا لكي يتمّ هٰذا التحوّل دون اختلال زائد في التوازن، وعلى الأخصّ دون اللجوء إلى العنف واقتراف المظالم، التي مِن شأنها أن تُوصِد باب اهتداء الهنود إلى المسيحيّة. وقد نهضت الرهبانيّات، لاسيّما رهبانيّة مار فرنسيس ورهبانيّة القدّيس دُومنيك (عبدالأحد)، تُناصر أبناء البلاد دون أيّ تردّد. ففي سنة ١٥١١ انبرى الراهب الدومنيكيّ أَنطُونيو دِه مُونتِسِينوس de Montesinos يَعظ في كاتدرائيّة جزيرة إسپانيُولا (وتدعى اليوم سان دُومِنْگو) مندّدًا بما فرضه الإسبانيّون من عبوديّة على سكّان ذٰلك المكان. غير أنّه لم يَبْدُ أن الكثير من المستعمِرين راقهم هٰذا النوع من المواعظ، أو رَقّوا لحال عبيدهم. فقام الرهبان بحَملة مماثلة في ما وراء البحار لدى البلاط الإسبانيّ، ساعين للتأثير في القوانين التي كان يسنّها الملوك لمستعمراتهم الأميركيّة، لاسيّمَا تلك التي تَمُتّ إلى معاملة أهل البلاد الأصليّين. وكان أوّل أبطال هٰذه الحملة دومنيكيّ آخر هو مَرْتِين دِه پاث de Paz، المدرّس في جامعة سَلَمَنْكا. فقد صاغ عام ١٥١٢ مبادئ عقائديّة واضحة حازمة ضدّ استعباد الهنود، ممّا اضطرّ الشرع الإسبانيّ إلى أخذها بعين الاعتبار، وإن بصورة جزئيّة.

٢٣ وإن كان الخلاف بين هٰذا المجتمع الاستعماريّ الناشئ والرهبانيّات يعود إلى أسباب هي عمليّة في جوهرها، إلاّ أنّه ولّد جدلاً له أبعاد قانونيّة ولاهوتيّة، ودام الأخذ والردّ بين الفرقاء طوال القرن السادس عشر ولَم يَخْلُ منها القرن التالي، ممّا كان له بالغ الأثر في تطوّر الفكر السياسيّ الأوروبّيّ. أمّا مواضيع المناقشات العقائديّة فكانت أوّلاً طبيعة الهنود الأميركيّين الإنسانيّة بالذات، ثمّ، في وقت لاحق، مدى استيعابهم الذهنيّ؛ وتبع ذٰلك، نتيجةً حتميّةً، الجدلُ حول القوانين التي تكون أنجع في التعامل معهم وأكثر ملاءمةً لشخصيّتهم. كما أنّه تزامن مع هٰذه الجدالات نزاع فكريّ حول أسس حقوق إسبانيا في افتتاح الأراضي الأميركيّة.

٢) الجدل العقائديّ في طبيعة السكّان الأصليّين

٢٤ إنّ الجدل حول طبيعة الأميركيّين الإنسانيّة يبدو اليوم سخيفًا غريبًا. ولا بدَّ لفهمه وتبريره تاريخيًّا، من الرجوع إلى الثقافة الراهنة في القرن الخامس عشر، ثقافة تسودها علوم لاهوتيّة مؤسَّسة على تأويل حرفيّ للكتاب المقدّس؛ كما أنّه لا مناص من العودة إلى الأزمة التي وقعت فيها هذه العلوم لدى اكتشاف «العالَم الجديد».

فقد بدأ علماء ذلك العصر يتساءلون: كيف إدخال ظاهرة «أميركا» في إطار الأسفار المقدّسة حيث لا ذكر صريحًا لهذه القارّة؟ هل الأميركيّون الأصليّون بشر حقًّا، من سلالة آدم، موصومون بالخطيئة الأصليّة وموعودون بالخلاص؟ أم هم وحوش بمظهر إنسانيّ؟

٢٥ واختلفت الآراء. فنهم من قال بأن الأميركيّين ليسوا بشرًا، بل جنس متوسّط بين الإنسان وسائر الحيوانات. ومن عجيب ما رواه بعض المؤرّخين أنّه راجت بأوروبّا في القرن السادس عشر نظريّات عجيبة عن الأميركيّين الأصليّين نَسَبَتْهم تارةً إلى ذوات الأربع وطورًا إلى ذوات الأجنحة[3]. إلاّ أنّ المناقشات حول هذه المسألة العقائديّة لم تطل، واتّفق علماء الطبيعة والحقوقيّون واللاهوتيّون في النهاية على أنّ سكّان أميركا هم من الجنس البشريّ.

٢٦ وبقي على بساط البحث إمكاناتهم الذهنيّة والأخلاقيّة. فاختلفت فيها الآراء وتشبّث المختصّون بمواقفهم، وكان بعضها في غاية التطرّف وعدم المنطق. فقال نَفر إنّ الأميركيّين بطبيعتهم طيّبون، دمثو الأخلاق، على قسط كبير من الذكاء والإرادة؛ في حين ارتأى سواهم، وبدون تبرير، أنّهم خبثاء، متخلّفون عقليًّا، لا يتحسَّسون القيم الروحيّة، وبالتالي غير أهل لقبول تعاليم الدين[4].

---

٣. مال كريستوفورو كولومبو بادئ الأمر إلى اعتبار الهنود بشرًا كسائر الناس، إلاّ أنّ حوادث دامية لاحقة، تسبّب بها الفاتحون، جعلته يبدّل رأيه. ومن الذين قالوا بأنّ السكّان الأصليّين هم من عنصر أدنى، الراهب الهيرونيمي رامون پانِس Panes الذي استند في نظريّته إلى شِرْك هؤلاء القوم.

٤. قال لاس كاسَس Las Casas: «هؤلاء الوضعاء خلقهم الله خالين من كلّ شرّ»؛ في حين

أمّا تمسّك المستعمرين بموقفهم المتشدّد وإنكارهم أن يكون للهنود إمكانات ذهنيّة وأخلاقيّة، فقلّما كان يصدر عن وخز للضمير مشرِّف، بل عن دوافع أقلّ شرفًا، مردّها إلى ضرورة وجود مبرّرات مبدئيّة لاستعباد الأميركيّين، أو أقلّه لجرّهم إلى مثل هٰذا الوضع.

٢٧ ساد في الكنيسة تقليد يعود إلى أيّام البابا غريغوريوس الكبير[٥] يُحرَّم بموجبه على المسيحيّين استعباد المسيحيّين الآخرين. ولمّا كان المرسَلون، في أوائل فتح أميركا، يَمنحون أهل البلاد الأصليّين هبة العماد بسهولة، وكان هؤلاء السكّان يصبحون إذ ذاك، بفضل القانون الإسبانيّ، أناسًا أحرارًا غير قابلين للاستعباد، اضطُرّ الأوروبيّون المستعمِرون إلى إيجاد مبرّرات قانونيّة وأخلاقيّة – وإن تكن ملتوية – تضمن لهم تشغيل الهنود القسريّ مع المحافظة على اعتبارهم أحرارًا من حيث المبدأ. وقد توفّرت هٰذه المبرّرات مع القول بسيّئات الأميركيّين، حقيقيّة كانت أو مزعومة.

٢٨ وكان من الصعب على مثل هٰذه الأحكام المسبقة أن تزول. فقد طلب بعضهم، كالراهب الدومنيكيّ خُولْيان گرْثِيس Garcés، أحد أساقفة المكسيك، إلى الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ أن يدلو بدلوه في المشكلة؛ وشفع طلبه بمذكّرة حرّرها دومنيكيّ آخر اسمه برنرديِنو ده مِنايا de Minaya. فأصدر البابا بولس الثالث عام ١٥٣٧ سلسلةً من البراءات أثبت بها أنّ السكّان الأصليّين في أميركا هم بشر بكلّ ما في الكلمة من معنى، وأنّ العماد الذي يُمنحوه هو صحيح، وأنّ ما يُلحِقه بهم المستعمِرون الأوروبيّون من سوء المعاملة غير جائز على الإطلاق[٦]. إلاّ أنّ هٰذه البراءات البابويّة لم تُنشَر رسميًّا في

ارتأى فرناندث دِه أوڤيادو Oviedo أنّ الهنود هم سيّئون بالفطرة، وعلى الأوروبيّين أن يتحاشوا. في القتال، ضربهم بالسيوف على رؤوسهم القاسية خشية أن تُفلَّ هٰذه السيوف! أمّا أ. ده مندوثا Mendoza، أوّل نائب للملك في المكسيك، فإنّه أظهر اعتدالاً ملحوظًا، ومن نصائحه لخليفته في الوظيفة أن يتحاشى تصديق الذين يجعلون في الهنود سائر الصفات، كما وتصديق الذين يرون فيهم كافّة السيّئات، وخيرُ التصرُّف، برأيه، هو في معاملة هؤلاء القوم كسائر الناس الآخرين.

٥. تبوّأ السُدّة الرومانيّة من ٥٩٠ إلى ٦٠٤ (المعرّب).

٦. سبق هٰذه البراءات قرار بتاريخ ٢٩ أيّار ١٥٣٧ يرشق بالحرم كلّ من استرقّ أحدًا من الهنود الأميركيّين.

أميركا لأنّ نصوصها لم تُعرض مسبقًا على «مجلس الشؤون الهنديّة» في إسبانيًا، وبالتالي لم تُفلِح في تغيير الآراء السلبيّة التي رسخت في العقول بالنسبة إلى الهنود[7] حتّى إنّ بعض الكهنة ظلّوا يعتقدون أنّ الأميركيّين، وإنْ أُعطُوا الطبيعة البشريّة، فإنّ قدراتهم الذهنيّة جِدّ محدودة بحيث تجعلهم لا يستحقّون أن يقتبلوا من الأسرار المقدّسة سوى ما خُصّ بالخطأة – أي العماد والتوبة – في حين لم يكن بالإمكان منحهم سرّ الإفخارستيّا دون اقتراف خطأ فادح والمساس بالقدسيّات.

٢٩ لذا اضطُرّت السلطات الروحيّة إلى الحكم على هٰذه الآراء، أو قُلْ هٰذه المواقف، فالتأم بهٰذا الصدد مجمع كنسيّ في لاپاث (عاصمة بوليڤيا الحاليّة) سنة ١٦٣٨. ولئن رأى مسؤولو الكنيسة لزامًا عليهم أن يتدارسوا هٰذه القضيّة الشائكة مائة سنة بعد صدور براءات بولس الثالث، فهٰذا دليل ساطع على أنّ الأمور لم تكن بعدُ واضحة لدى المستعمِرين حتّى أواسط القرن السابع عشر.

في هٰذا التضارب من الآراء والمواقف، وعلى الرغم من تأثير الرهبانيّات التي كانت تحثّ على التزام جانب الاعتدال، دأب الشرع الإسبانيّ في اعتبار الهنود بدائيّين وغير مؤهّلين لتنظيم ذواتهم حسب أسس التطوّر الأوروبّيّ، فكانوا إذًا، بموجب الشرع، قاصرين، «سُذّجًا»، بحاجة إلى حماية وعناية روحيّة مستمرّة وحافز إلى العمل المنظَّم. وانطلاقًا من هٰذه المقدّمة، أوكَلَت السلطات السياسيّة الإسبانيّة إلى المستعمِرين أن يؤمّنوا للهنود الأُطُر التنظيميّة اللازمة، ويسيروا بهم في طريق الحضارة الأوروبّيّة، ويعلّموهم أن يشتغلوا في الأراضي حسب الأُسس التقنيّة، ويلقّنوهم عقائد الديانة المسيحيّة. وسُمِح للمستعمِرين أن يعتاضوا من هٰذه الخدمات بربح «عادل» يتّخذونه من عمل

---

٧. لمّا حصل برنردينو ده منايا على الوثائق البابويّة، أغفل عرضها على «مجلس الشؤون الهنديّة» قبل إرسالها الى أميركا، فأوقف الملك كارلوس الخامس تنفيذها بموجب امتيازات كنسيّة كانت تخوّله البتّ في الأمور الأميركيّة عن طريق المجلس المذكور، علمًا أنّ الملك نفسه كان قد شجب، في وثيقة أصدرها بتاريخ ٢ آب ١٥٣٠، استعباد الهنود واستملاك أراضيهم بالقوّة. ومع أن البراءات البابويّة لم يظهر تأثيرها في أميركا إلاّ متأخرًا، فإنّها، في أوروبّا، وضعت حدًّا لكلّ جدل لاهوتيّ حول الموضوع.

السكّان الأصليّين الذين في عهدتهم. ذٰلك كان التبرير الأخلاقيّ(!) «للمَحْصُول» أو الخدمة الشخصيّة التي طُلبت من الهنود[٨]، وهو نظام قانونيّ تبنّاه الاشتراع الاستعماريّ الإسبانيّ، وحلّ فعلاً محلّ الرقّ في أميركا الإسبانيّة خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر.

٣) الاشتراع الإسبانيّ في أميركا ونظام «المَحْصُول»

٣٠ أوّل تنظيم للعلاقات بين القشتاليّين والهنود يعود إلى زمن رحلة كريستوفورو كولومبو الثانية (١٤٩٣ – ١٤٩٥) لمّا فرض «مكتشف أميركا» على السكّان الأصليّين في جزر الكاراييب دفع ضريبة من الذهب والقطن، مع إمكانيّة استبدال هٰذه الضريبة بعمل يؤدّيه الهنود في الحقول أو المناجم لصالح هٰذا «الفاتح» أو ذاك، حسبما يحدّده كريستوفورو نفسه. ولٰكنّ الرحّالة الكبير لم يكن لديه، أقلّه في السنين الأولى من الفتح، مفهوم واضح للحدود بين حقوق الأفراد وحقوق المملكة، ممّا تسبّب بإشكالات وطلبات للتحكيم في تحديد ما كان ينتظره المستعمِرون من الهنود، فسادتَ شريعة الأقوى كما هي الحال في مثل هٰذه الظروف، مع ما يواكبها من أعمال قهر واستغلال يوميّة مِن قِبل الأوروبيّين، وبالمقابل، مِن ردّات فعل انتقاميّة من جهة أبناء البلاد. ولم يتورّع كولومبو نفسه عن إرسال بعض الهنود إلى إسبانيا ليُباعوا فيها بسوق النخاسة، إلاّ أنّ الملك سارع وأعتقهم بقرار أصدره في ٢٠ حزيران سنة ١٥٠٠ وأعادهم إلى أميركا بصحبة بعض الرهبان الفرنسيسيّين. ولمّا وصل إلى المستعمرات، في السنة عينها، المفتّش – أو الزائر الملكيّ – فرنثيسكو بوباديليا Bobadilla، وضع نوعًا من الحدّ لما جرى في الإدارة المحلّيّة من فوضى، وأكّد، دون أن يُترك المجال للالتباس، مبدأ تفرّد عاهل

---

٨. عرّبنا بكلمة «محصول» اللفظة الإسبانيّة *Encomienda* وهي تعني الأرباح التي كان الحاكم يَسمح بها أو يمنحها لبعضهم من نبلاء وأصحاب إقطاع وسواهم. و «المحصول»، كما هو معلوم، هو ما يُجنى من ربح. وفي أميركا سُمح للمستعمِرين التعويض عن المحصول النقديّ بتشغيل الهنود، فيكون «المحصول» عمليًّا مرادفًا «للسُخرة» (المعرِّب).

قشتالة بحقّ فرض الضريبة على السكّان الأصليّين أو بالاستعاضة عنها بعملهم القسريّ في الحقول أو المناجم.

٣١ ولئن استندنا إلى الدراسة التحليليّة التي قام بها خُوان سُلُورثَنو پريرا Solórzano Pereira ، الاختصاصيّ الكبير في شؤون الاشتراع الإسبانيّ بأميركا وصاحب كتاب «السياسة الهنديّة» الصادر في مدريد عام ١٦٤٨ ، «فالمحصول» له ارتباط ، من جهة الشرع ، بنُظُم العصر الوسيط التي كان بموجبها لكلّ صاحب إقطاع حقوق على سكّان أراضيه. وبغضّ النظر عن هٰذه الدراسة المبدئيّة التي جاءت بعد مائة وخمسين سنة من اكتشاف القارّة الأميركيّة ، فمن الثابت أنّ الأنظمة الإداريّة في المستعمرات الأميركيّة كانت في تطوّر مستمرّ خلال سِنِي الفتح الأولى.

٣٢ ففي العقد الأوّل من القرن السادس عشر صدرت سلسلة من التوجيهات الملكيّة إلى حُكّام جُزر الكارايبب ، كانت في بعض الأحيان متضاربة نظرًا إلى سعيها المتعثّر في سبيل مراعاة واقعٍ متقلّب غير واضح. وقد نجحت هٰذه التوجيهات في إقرار مبادئَ شرعيّةٍ ، ومعاييرَ للتصرّف العمليّ ، وأسسًا للتنظيم : فمن المبادئ الشرعيّة التي ثُبِّتت ، ما ذُكر آنفًا من أنّ السيّد الوحيد ، الذي له يؤدّي السكّانُ الأصليّون ضريبة الخدمة الشخصيّة ، هو ملك قشتالة ؛ ومن معايير التصرّف العمليّ ما كان يُسمح بموجبه اللجوءُ إلى «المحصول» الخاصّ شريطة أن يُعتبَر عَقْدَ عملٍ حرًّا بين المستعمرين والهنود مع دفع الأجرة للعاملين ؛ أمّا بالنسبة إلى الأُسس التنظيميّة ، فكان منها ضرورة تجميع وتثبيت السكّان الهنود الرحّل أو شبه الرحّل في «حواضر» مخصّصة لهم يديرها موظّف إسبانيّ يعاونه كاهن مرشد روحيّ.

٣٣ وصدرت في ٢٧ كانون الأوّل عام ١٥١٢ قوانين عُرفت «بقوانين بُورْگُس» ، مستوحاة من مذهبِ قانونيِّ البلاط خُوان لُوپز دِه پَلاثيوس رُوبيوس Lopez de Palacios Rubios مع توضيحات لاهوتيّة للراهب مَرْتِين دِه پاث ، وقد حرّرها قلم اثنين آخرين من رجال القانون الإسبان : الراهب بِرْنَرْدِينُو ده مِيسا de Mesa والمحامي غريغوريو. انطلقت هذه القوانين من مقدّمتين اثنتين : تفوّق الإسبانيّين ذهنيًّا وأخلاقيًّا على الهنود ، وسذاجة هؤلاء

الفطريّة وكسلهم بحيث جُعلوا، بفضل الطبيعة والتاريخ، خدّامًا للأوروبيّين. فبموجب هٰذه القوانين، كان على الهنود أن يدفعوا الضريبة ويتدرّبوا على العمل، ويؤدّوا بالتالي كلّ سنة تسعة أشهر من الخدمة الشخصيّة للمملكة الإسبانيّة؛ أمّا بالنسبة إلى الأشهر الثلاثة المتبقّية، فكان يحقّ لهم العمل لحسابهم الخاص على أراضيهم، أو كأجراء أحرار لدى المستعمِرين. وقد تحسَّبت القوانين لإجراءات أكثر تساهلاً مع الذين يُظهرون تقدّمًا فعليًّا في السلوك «المدنيّ».

٣٤ في هٰذا الإطار استطاع «المحصول» الخاصّ نفسه أن يجد له مبرّرًا شرعيًّا. فلمّا كانت المملكة مدينةً لرعاياها الذين ساهموا في أعمال الفتح أو الذين أدَّوا لها بعض الخدمات، فإنّها أعادت لهم – بعد دفعهم ضريبة معيّنة – ما كان يترتّب على الهنود. وفي الواقع كان «المحصول» بأغلبيّته يعود لصالح المستعمِرين الأفراد، باستثناء ما كان منه مخصّصًا للأشغال العامّة. ولمّا كان «المحصول» والخدمة الشخصيّة واحدًا بالفعل، كما سنراه، فقد تشدّدت القوانين كلَّ التشدّد بالنسبة إلى واجبات «المحصِّل»: كان عليه أن يؤمّن للهنود الموكولين إليه التربية المدنيّة والدينيّة، ويقوم بإعالتهم، ويحدّد لهم أعمالاً تتناسب وقواهم مع مراعاة أوقات الاستراحة؛ كما كان يحظَّر عليه معاملتُهم بالسوء واستعمال السوط و«نعتهم بالكلاب». ومن البديهيّ أنّ الدخول في مثل هٰذه التفاصيل يشير إلى الأجواء السائدة في المستعمرات على الرغم من نوايا المشترعين الحسنة.

وبالإضافة إلى الأهلين المفروض عليهم «المحصول» – وكانوا بموجب الشرع أحرارًا، لخضوعهم السلميّ واعتناقهم الدين المسيحيّ –، غالبًا ما امتلك المستعمرون هنودًا مستعبَدين شرعًا لكونهم «كفّارًا» أُسِروا في أعمال حربيّة «عادلة» ثم بيعوا في سوق النخاسة.

٣٥ أمّا موضوع «الحرب العادلة» فقد عُولج في «الإيضاح» الذي صدر عام ١٥١٣ ملحَقًا «بقوانين بُورْغُس». وكانت هٰذه الوثيقة غريبةً حقًّا، مستوحاةً من فكر پلاثيوس روبيوس أو محرَّرةً بقلمه، وكانت الغاية منها تبرير فتح الأراضي الأميركيّة عن طريق الحرب واستعباد السكّان الأصليّين. أمّا

مضمون النصّ فقوامه إعلان سلطة ملك قشتالة السياسيّة والروحيّة على أميركا ، ودعوة الهنود إلى الخضوع السلميّ لهٰذا السلطان وقبولهم تعلّم مبادئ المسيحيّة. وكان المفروض أن تتلى الوثيقة ، مترجمةً إلى اللغات المحلّيّة ، على أهل المناطق التي كان «الفاتحون» يكتشفونها شيئًا فشيئًا ، فاذا امتثل السكّان دون مقاومة اعتبروا من أتباع المملكة وأُدخِلوا في النظام الاستعماريّ المذكور آنفًا ؛ وإن هُم قاوموا ، سَرت عليهم حالة «الحرب العادلة» فسُمح للإسبانيّين بشنّ القتال وقتل المقاومين واستعباد الذين بقوا على قيد الحياة. وكانت «السابقة» التي استند اليها «الإيضاح» فَتْح أرض الميعاد على يد شعب إسرائيل بقيادة يَشُوع بن نُون ، وقد تضمّن هٰذا الفتح بعض الأحيان – كما جرى لدى احتلال أريحا – إعدام السكّان ، وفي أحيان أخرى – كما حدث في جَبعُون – إخضاع الأهلين للعبوديّة.

٣٦ وكان من البديهيّ أن يستعين معظم «الفاتحين» «بالإيضاح» من حيث هو أكثر ملاءمةً لمآربهم ، فجعلوا أنفسهم في حالات الحروب العادلة ليتذرّعوا بحقّ سبي العبيد ، ممّا دفع الملك كارلوس الخامس إلى إصدار تعليمات جديدة في ١٧ تشرين الثاني ١٥٢٦ ، من شأنها الحثّ على استعمال الوثيقة بنوع أصحّ ، لاسيّما لضمان تلاوتها الفعليّة على الهنود مع ترجمتها وشرحها لهم قبل الشروع بمحاربتهم.

* * *

٣٧ فلنترك الآن جانبًا سائر المبرِّرات الشرعيّة أو الأخلاقيّة المزعومة ، ولنتساءل ما كان السبب الفعليّ «للمحصول» الخاص والخدمة الشخصيّة؟ الجواب سهل إلى حدّ ما. فإنّ «الفاتحين» ، بعد أن انتهوا من المغامرة العسكريّة ، درجوا على التخلّي عن خدمة الدولة لينصرفوا إلى النشاطات الاقتصاديّة ، ومعظمها زراعيّ. وانضمّ إلى الجنود السابقين المغتربون المدنيّون القادمون من إسبانيا ، فانصرفوا هم أيضًا في أغلب الأحيان إلى الزراعة. وكانت المملكة تراقب تيّار الهجرة هٰذا بعناية وتَشدُّد ، إلاّ أنّها كانت تشجّعه لعلمها أنّ ازدياد سكّان المستعمرات المتحدّرين من أرومة إسبانيّة سيكون لها

وسيلةً فعّالة لإحكام قبضتها على السكّان الأصليّين ، كما سيكون قوّةً اجتماعيّة منظّمة باستطاعتها أن تقاوم ، حتى عسكريًّا ، سائر طموحات التوسّع من جهة الدول الأوروبيّة الأخرى ؛ فضلاً عن كونه العمود الفقريّ للنظام الاقتصاديّ الناشئ في الأمبراطوريّة عبر البحار.

فوالحالة هٰذه ، كان للجنود المسرّحين والمدنيّين المهاجرين على السواء حلمٌ كبير وطُموح عظيم ، إن هما إلاّ رفع مستواهم الاجتماعيّ. وأيسر السبل للبلوغ إلى مثل هٰذا الهدف كان الحصول على الأراضي. ولم يكن ذٰلك بالأمر العسير ، أقلّه في السنين الأولى بعد الفتح ، إذ كان بوسع المستوطنين أن ينالوا أراضي زراعية سواء بهبة مجّانيّة من قبل المملكة ، أو بشرائها من الهنود بشروط جدّ مؤاتية ، أو بانتزاعها من أصحابها هؤلاء بالقوّة.

٣٨ وإن نحن قارنّا هٰذه الأوضاع بما حصل فيما بعد في أميركا الشماليّة ، لرأينا أنّ المستعمِرين الأنكلوسكسونيّين كانوا يطردون الهنود من أراضيهم بشكل منظّم ليستثمروها بأنفسهم ، في حين أنّ القادمين إلى المستعمرات الإسبانيّة كانوا يميلون إلى استبقاء السكّان على أراضيهم ليجبروهم على العمل لصالحهم. كان المهاجر الإسبانيّ يتهرّب ما استطاع من الأشغال اليدويّة إذ هي في نظره عقبة دون التحوّل الذي يَنشُده في وضعه الاجتماعيّ ، ممّا حدا سلطات المستعمرات في بعض الفترات على اتّخاذ إجراءات – غالبًا ما بقيت حبرًا على ورق – تَفرض على الذين مارسوا الصنائع اليدويّة في الوطن الأمّ أن يتابعوها في المستوطنات. وعليه كان اللجوء إلى اليد العاملة الهنديّة ضرورة لامناص منها ، سواء للأشغال العامّة أو لسائر الأشغال الخاصّة من زراعيّة أو حرفيّة ، ممّا يؤمّن البقاء الاقتصاديّ للجماعة المستعمِرة ، بالإضافة إلى الجماعة الهنديّة المستعبَدةِ نفسِها ، وقد أُقحِمَت بشكل مفاجئ في واقع سياسيّ واجتماعيّ جديد.

٣٩ وممّا يؤسَف له أنّ «المحصول» سرعان ما تحوّل ، بُعَيد إنشائه ، من خدمة عامّة للأفراد ، إلى استعباد شخصيّ بكلّ ما في الكلمة من معنى. وكانت الشروط التي وضعها الشرع الإسبانيّ لتنظيمه ، نادرًا ما تؤخذ بعين الاعتبار ، إذ كان «المحصِّلون» يعلمون أنّ هٰذه اليد العاملة جُعلت في تصرّفهم

لوقت محدود، فكانوا بالتالي يُخضعونها لأعمال منهكة لا تتناسب البتّة مع مقاومة الأفراد الجسديّة ولا مع ما كانوا يُعطونَه للقيام بأودهم. ولمّا كان الهنود غير معتادين على الأعمال التي تفرضها الأساليب الزراعيّة المستورَدة من إسبانيا، ومحرّدين من أبسط الضرورات النفسيّة والجسديّة، فقد ماتوا بأعداد كثيرة نتيجة للانهيارات العصبيّة والإرهاق وسوء التغذية والأمراض الخطيرة الواردة من أوروبّا، وسعى بعضهم إلى النجاة بالهرب خارج الأماكن المأهولة. ولم تمضِ سنون معدودة حتّى أتت الحروب والأمراض والرقّ والأشغال الشاقّة على شعوب بأسرها، كما حصل في جزر الكاراييب[٩].

٤٠ وكانت المملكة الإسبانيّة دائمة التذبذب في سعيها إلى التوفيق المستحيل بين التعاليم المسيحيّة ومتطلّبات المستعمِرين العمليّة، تلك المتطلّبات التي لم يكن بدّ من الاستجابة لها في سبيل مصلحة الدولة ومستعمراتها؛ فلجأت إلى علاجات مؤقّتةٍ محاولةً تحسين القوانين لحماية الهنود وأفضى بها الأمر إلى التخلّي عن مبدإ «المحصول» عينه، في حين قبِلت عمليًّا بتحوّله إلى نظام وراثيّ على أمل أن يحدو ذلك المستعمرين على اعتبار الهنود الموكولين إليهم مِلكًا ثابتًا شخصيًّا، ممّا يَستوجب حسنَ معاملتهم.

٤١ والمَلِك كارلوس الخامس نفسه حذا هذا الحذو، وقد تأثّر شديدَ التأثّر لدى اطّلاعه على وثائق قدّمها له بَرْتُلُميه لاس كاسَس سنة ١٥٤٢ ثمّ نشرها بالعنوان المثير التالي: «رواية موجزة عن خراب بلاد الهنود»، فأصدر

٩. أوردت «الموسوعة الإيطاليّة» (٢ : ٩٤٧) مثالاً على انخفاض عدد السكّان في أميركا بعد الاحتلال الإسبانيّ، فساقت الأرقام التالية منقولةً عن تقرير للراهب خيرولامو دسكوبار Descobar حول الأوضاع في مقاطعة بويايان سنة ١٥٨٢ :

ناحية أنطاكية	من ١٠٠,٠٠٠	هنديّ إلى	٨٠٠	في ٥٠ سنة
ناحية أنثرما	من ٤٠,٠٠٠	هنديّ إلى	٨٠٠	في ٥٠ سنة
ناحية تِيمَنا	من ٢٠,٠٠٠	هنديّ إلى	٧٠٠	في ٤٠ سنة
ناحية ألمَكير	من ١٥,٠٠٠	هنديّ إلى	٢,٠٠٠	في ٣٠ سنة

بيد أنّه يجب الانتباه إلى إمكانيّة المبالغة في رفع عدد الهنود أيّام الفتح، سواء من قِبل الفاتحين أو المرسَلين، لتزيين نجاح مهامّهم، في حين لا تُستبعَد إمكانيّة تخفيض هذه الأرقام في السنين التالية لأسباب ماليّة دَفعت «المُحَصِّلين» الى التقليل من عدد مَن يعمل عندهم لتخفيف الضرائب المفروضة عليهم.

في ٢٠ أيلول من السنة نفسها «القوانين الجديدة» التي كانت تنصّ على إبطال النظام المذكور؛ إلاّ أنّه سرعان ما تراجع عن هذا القرار فنسخ بين ١٥٤٥ و ١٥٤٦ الأقسام التي تمتّ إلى التخلّي عن «المحصول»، وذلك بعد أن نمى إليه ردودُ الفعل السلبيّة من قِبل الإسبانيّين في أميركا تجاه تلك العمليّة، فضلاً عن العواقب السياسيّة والاقتصاديّة المرتبطة بها. وكانت النتيجة الوحيدة لمبادرة كارلوس الخامس هذه قَصْرَ الحقّ «بالمحصول» على جيلين من المستفيدين فقط.

٤٢ أضف إلى ذلك أنّ السلطات الإسبانيّة في المستعمرات لم ترْقَ، بوجه الإجمال، إلى مستوى واجباتها بالنسبة إلى حماية السكّان الأصليّين. فبعض الموظّفين تواطأوا – أو اضطرَّتهم رغبتُهم في تحاشي المشاكل إلى التواطؤ – مع المستعمِرين؛ والبعض الآخر حاولوا مجتهدين مخلصين وضعَ حدّ للشواذات، إلاّ أنّ إجراءاتهم باتت عديمة الجدوى. وبالفعل، وعلى الرغم من التشريع الدقيق والتنظيم الإداريّ المتكامل في المستعمرات، فإنّ سكّان أميركا الإسبانيّين استطاعوا، في كثير من الأحيان، شلّ مفعول القوانين والتعليمات الصادرة من وراء البحار، فضلاً عن أنّه لم تمضِ بضعة عقود على الفتح حتّى بدأت الأواصر بين المستعمرات والوطن الأمّ تتراخَى باطّراد. كذلك فإنّ الاسبانيّين القائمين على رأس الجماعات المحلّيّة، الهنديّة منها أو الأوروبيّة أو المختلَطة، و «حُماة الهنود» الذين فرَضَهم القانون، وحتّى الإكليروس العلمانيّ المتولّي شؤون الرعايا (وكان هذا الإكليروس مرتبطًا اقتصاديًّا، عن طريق نظام العُشْر، بالجماعة الإسبانيّة القاطنة في المستعمَرات)، غالبًا ما كانوا جميعًا متواطئين على استغلال السكّان الأصليّين استغلالاً منظّمًا.

٤٣ أمّا المرسَلون الرهبان وصفوة الموظّفين المدنيّين فكانوا ينقلون إلى إسبانيا المعلومات عمّا يعانيه الهنود من فظيع المعاملة وقد أمسَوا ضحيّةً لانتهاكات القوانين السافرة أو لتأويلاتها التعسّفيّة. وبالتالي نشأت في البلاط، وفي أوساط المشترعين واللاهوتيّين، كما في المنتديات الثقافيّة كالجامعات، جدالات حامية الوطيس بين دعاة فتح المستعمرات فتحًا عسكريًّا لا تمييز

فيه – ممّا آل إلى الكثير من المخازي – والمعارضين لمثل هٰذه السياسة. وقد أفضت تلك المجادلات إلى التشكيك في حقّ إسبانيا أن تقوم بأيّ شكل من أشكال فتح أميركا واستعمارها[١٠].

٤) مناظرة ڤَلْيادُولِيد

٤٤ إنتابت كارلوس الخامس الوساوسُ وتأنيب الضمير، فقرّر بتاريخ ١٦ نيسان ١٥٥٠ إيقاف جميع الاستكشافات بصورة مؤقّتة، وأمر بأن تقام في مدينة ڤليادُوليد نَدوة يشترك فيها ممثّلون عن التيّارَين المذكورين وعشرة من قضاة المملكة، يوكَل إليهم الاستماع إلى مرافعات الجانبين ثمّ البتّ نهائيًّا في شرعيّة فتح أميركا العسكريّ وكيفيّة معاملة سكّانها. وكان من هٰذه المناظرة حول حقوق إسبانيا في الفتح والاستعمار أنّها باتت مرحلةً بالِغة الأهمّيّة في تطوّر الفكر السياسيّ الأوروبّيّ، إذ إنّها أتاحت الملاقاة، بما لا يقبل التسويف، بين مفاهيم العصر الوسيط الآخذة في الزوال، والمفاهيم المعاصرة في شؤون الشرع الدوليّ؛ بين النظريّات حول مفهوم المُلك الشامل، وفكرة الدولة الوطنيّة. وتجدر الإشارة الى أنّ النظريّات المتأثّرة بالعصور الوسطى وَجدت في إسبانيا أشدَّ المتحمّسين لها بين رجال القانون العلمانيّين، في حين دافع عن الطروحات التقدّميّة الحديثة المشترعون المنتمون إلى السلك الإكليريكيّ.

٤٥ كانت المواقف التي تبنّاها المفكّرون «الصُقُور» في النصف الأوّل من القرن السادس عشر تَستند إلى نظريّات تقول بسلطة البابا الروحيّة والزمنيّة على العالم أجمع، وهي نظريّات ابتدعها الكردينال إنْرِيكُو دِي سُوزا di Susa رئيس أساقفة أُوسْتِيا في إيطاليا وأحد أعلام القانون الكنسيّ في القرن الثالث عشر. وكان دي سُوزا قد ألّف كتابًا أسماه «الخلاصة الذهبيّة»، فيه يقول بأنّ يسوع المسيح، حتّى بصفته إنسانًا، اقتبل من أبيه الأزليّ كلّ سلطان

---

١٠. أعرب برتلميه لاس كاساس عن مثل هٰذا الشكّ في رسالة بعث بها يوم ١٥ تشرين الأوّل ١٥٣٥ إلى كارلوس الخامس و «مجلس الشؤون الهنديّة».

في الأرض سواء على الصعيد الروحيّ أو على الصعيد الزمنيّ. وقد سلّم المسيح بدوره هٰذا السلطان – الفريد وغير المنقسم – إلى البابا نائبه. لذا فمُلك البابا يشمل سائر أقطار العالم بغضّ النظر عن كونها مأهولةً بأتباع المسيح أو بغير المؤمنين. والبابا، بصفته المليك الوحيد الشرعيّ على العالم، هو بالتالي الشخص الوحيد المخوّل أن يفوِّض السلطان إلى مختلف الملوك والأمراء على وجه البسيطة.

٤٦ وعلى الرغم من أنّ نظريّة دي سُوزا لم تخلُ من المعارِضين لها، علمانيّين وإكليريكيّين[١١]، فقد اعتبرها پلاثيوس روبيوس صحيحةً وتبنّاها في مؤلّفه «كتاب الجُزُر» (١٥١٢) وطبّق مبادئها على البلاد الأميركيّة انطلاقًا من البرهان التاليّ: لقد فوّض البابا إلى عاهل قشتالة السلطان على أميركا ليقوم فيها بأعباء المُلك الزمنيّ ويهتمّ بتنصير سكّانها؛ ولمّا كان مَلِك قشتالة يحقّ له، لا بل يتوجّب عليه أن يتمتّع بالسلطة التي فوّضها إليه البابا لصالح المسيحيّة العام، فالفتح، حتّى عن طريق شنّ الحرب، هو عمل شرعي[١٢].

٤٧ وبعد بضع سنوات، أعاد المؤرّخ خُوان خِناس ده سِپُولْفِدا Juan Ginés de Sepúlveda صياغة نظريّة پلاثيوس روبيوس، واستعان بحجج استقاها من تأويله الخاصّ لتوما الأكوينيّ وأرسطو، فبرّر احتلال أميركا وتوصّل الى الموافقة على شنّ الحرب الوقائيّة على الهنود (يعني دون إثارةٍ سابقةٍ منهم) وإخضاعِهم للعبوديّة. وألّف كتابين، أوّلها عام ١٥٣٧ والثاني سنة ١٥٥٠، كانت فكرتها الأساسيّة كالآتي: فَتْح أميركا واجب من الناحية الأخلاقيّة لانتزاع الهنود من الشِرْك، وكفِّهم عن أكل اللحوم البشريّة واللِواط، وهَدْيِهم إلى الدين المسيحيّ؛ كما أنّ الفتح شرعيّ لأنّ طبيعة الهنود بدائيّة تستدعي استعبادهم للإسبانيّين الذين هم من عنصر أوفر ذكاءً وأكثر تقدّمًا.

١١. مِن الذين كانوا على خلاف رأي دي سوزا الكردينال توماس ده ڤيو Vio (١٤٦٩ – ١٥٣٤)، فإنّه قال في شرحه لخلاصة القدّيس توما الأكوينيّ اللاهوتيّة إنّ غير المؤمنين لهم حقوق مكتسبة. كما أنّ دجُون مايور J. Mayor المدرّس في جامعة باريس، كان يعلّم سنة ١٥١٠ أنّ ملكوت المسيح ليس من هٰذا العالم، وبالتالي فنائبه لا يملك السلطان إلاّ على الصعيد الروحيّ.

١٢. وقد استند پلاثيوس روبيوس في إثبات نظريّته إلى سابقة تاريخيّة قريبة العهد، هي رشق البابا يوليوس الثاني ملكَ نڤارّا بالحرم عام ١٥١٢ واستبداله على العرش بفرديناندو الكاثوليكيّ.

٤٨ أمّا النظريّات المعاكسة، ويمكن نعت أصحابها بـ «الحمامات»، فقد وَجَدت أهمّ مؤيّديها في أوساط جامعة سَلَمَنكا، الصرحِ العلميّ الطائر الصيت في إسبانيا خلال العصور الوسطى والقرنِ الخامس عشر، ويقوم في طليعة هؤلاء الراهب الدومنيكيّ فرنثيسكو ده ڤيتوريا de Vitoria الذي قال بالفصل بين السلطان الروحيّ والسلطة الزمنيّة. فالبابا، في رأيه، له، بما لا يدع مجالاً للشكّ، السلطان المطلق على عالم الروح، ويمكنه، لا بل يتوجّب عليه السعي الى التأثير على قرارات الملوك حيثما يكون للدين مصالح، ولكنّه لا يتمتّع بأيّ سلطان في الأمور الزمنيّة الصرفة. وكان ڤيتوريا يعتبر الذين يؤيّدون النظريّة المعاكسة ممالقين ذليلين للكرسيّ الرومانيّ، لا ينتج عنهم فعلاً إلاّ ما يعود على الكنيسة بالضرر الأكيد.

٤٩ وبالنسبة إلى غير المؤمنين، فلهم حقوق مكتسَبَة، مدنيّة وسياسيّة، حقوق يجب على الجميع، لا سيّما المسيحيّين، احترامها. لذا، بحسب ڤيتوريا، فالبراءات البابويّة التي يبني عليها علماء القانون العلمانيّون حقوق إسبانيا على أميركا، لا قيمة لها؛ وإن ارادت إسبانيا تأسيس حقّها في الفتح على مثل هٰذه الحجج، فهي على ضلال، إذ لا البابا ولا الملك يستطيعان إثبات أيّ حقّ لهما على غير المؤمنين، وليس ثمّة ما يجبر هؤلاء على قبول سلطة إسبانيا والاهتداء الى المسيحيّة؛ كذٰلك فإنّ مفهوم الحرب العادلة المرتبط بآراء «الصقور» السابقة، ليس له أيّ مبرّر أخلاقيّ أو أساس شرعيّ. إلاّ أنّ ڤيتوريا أضاف – بعد أن أبلغه كارلوس الخامس استياءه من نظريّاته – أنّ لإسبانيا حقوقًا على العالم الجديد، وهٰذه الحقوق لا تستند إلى أسس لاهوتيّة بل على حقّ الناس الطبيعيّ، وعلى وجه التخصيص، حقّ التواصل بين البشر. فبموجب الحقّ الطبيعيّ، على ما يراه ڤيتوريا، الأنهر والبحار والمرافئ هي ملك الجنس البشريّ بأسره، ويجوز بالتالي لكلّ واحد أن يُبحر بسفنه إلى حيث يشاء أو إلى حيث تدفعه الضرورة. ومن منطلق هٰذا الحقّ الطبيعيّ يمكن الإسبانيّين النزولُ في بلاد الهند الغربيّة والمكوث فيها، شريطةَ ألاّ يُلحِقوا أيّ ضرر بالسكّان؛ كما يحقّ لهم تبشير الهنود بالإنجيل والتنديد بممارساتهم المتنافية مع الحقّ الطبيعيّ، كأكل لحوم البشر والذبائح البشريّة، وما إلى ذٰلك.

٥٠ هنا تصل نظريّات ڤيتوريا إلى نتائج عمليّة هي ، بالفعل – أقلّه من بعض النواحي – مطابقة لنتائج خصومه . ففي حال مقاومة الزعماء المحليّين للتبشير بالدين المسيحي ، أو إن هُم أكرهوا المهتدين الجدد إلى الارتداد عن المسيحيّة ، أو إن أصرّوا على التمسّك بممارسات تنافي الشريعة الطبيعيّة ، عندئذٍ تتحقّق شروط «الحرب العادلة» فيمكن الإسبانيّين القيام بمبادرات عسكريّة لإخضاع الهنود . إلاّ أنّ ڤيتوريا كان يوصي بأن تقتصر الأعمال العسكريّة على الحدّ الأدنى ممّا لا بدّ منه لإعادة النظام ، دون اللجوء إلى المظالم والمذابح . ثمّ إنّ السكّان الأصليّين هم في نظره جديرون بالاحترام لأنّ «همجيّتهم» ، التي تتجلّى بممارسات تنافي الطبيعة ، لا يمكن نسبتها الى تخلّف عِرقهم أو إلى نقص في تكوينهم كما ارتآه سپُولڤدا ، بل إلى تربية طالحة فقط ، نتيجة لعوامل تاريخيّة وبيئيّة يمكن إصلاحُها . وعليه ، وإن سلّمنا بأنّه يحقّ للشعوب الأكثر تقدّمًا استعمار الأراضي التي يسكنها أقوام أكثر تخلُّفًا ، فإنّ هذا الحقّ يبطل حالما يصل المستعمَرون إلى درجة من التمدّن تتيح لهم تقرير مصيرهم بذواتهم . وهنا أيضًا استبق الراهب ڤيتوريا عدّةَ قرون ما وصلت إليه العلوم الاجتماعيّة الحديثة أو الفكر السياسيّ المعاصر ، وبرهن أنّه أكثر تقدميّة من مناظريه العلمانيّين وأبعدُ رؤيةً منهم[١٣] .

* * *

٥١ لمّا ابتدأت مناظرة ڤلْيادُوليد في آب ١٥٥٠ ، كان ڤيتوريا قد لقي حتفه ؛ إلاّ أنّه قام وريثٌ لفكره هو بَرْتُلُميه لاس كاسَس ، فقارع سپُولْڤِدا على نحوٍ يحاكي أسلوب أستاذ سَلَمنكا الكبير .

كانَ لاس كاسَس مهاجرًا إسبانيًّا عاش خبرة الاستعمار و «المحصول» في جزيرتَي إسپانيولا Hispaniola وكُوبا ، شأنه شأن سواه من مواطنيه . ولمّا رُسم كاهنًا لم يستنكف من أن تُخصَّص له أراضٍ يتملّكها ويدٌ عاملة هنديّة يسخّرها ، لا بل برهن أنّه من ذوي المبادرات الاقتصاديّة الفعّالة وقد أبلى فيها

١٣. وممّا رُوي عن ڤيتوريا قوله «إن الهنود أغبياء لا لشيء إلاّ لأنّهم لم يُفتح أمامهم مجال التعلّم ، وإن هم يعيشون كالبهائم فمِثلَهم يَفعل ، وللأسباب نفسها ، كثير من الفلاّحين الإسبانيّين» .

بلاءً حسنًا. بيد أنّ مجرى حياته تبدّل عام ١٥١٤ في إثر عظةٍ سمِعها ورفْضِ أحد الرهبان الدومنيكيّين مَنْحَه الحلّة من خطاياه، فباع أملاكه وتنازل عن الهنود الذين كانوا من نصيبه وأعتقهم بين يَدي حاكم كوبا يوم عيد العنصرة من السنة المذكورة. ولمّا كان قد اختبر اختبارًا شخصيًّا ما يفعله المستعمِرون بأهل البلاد الأصليّين، فانّه انكبّ قلبًا وقالبًا على الذود عن حقوقهم بالقول والقلم والعمل، وقفل راجعًا إلى إسبانيا عام ١٥١٥ للدفاع عن قضيّتهم لدى الملك فِرْدِينَنْدُو الكاثوليكي ثمّ لدى خَلَفه كارلوس الخامس. وفي ١٦ أيلول ١٥١٦ عُيِّن «مُدَبِّر الهنود»، عيّنه كبيرُ أساقفة إسبانيا ووزيرها الكردينال فرَنْثِيسْكو خِيمانِث ده ثِسْنارُوس Fr. Ximenez de Cisneros.

٥٢ وفي السنوات تلك اعتَمد لاس كاسَس نظريّةً اقتصاديّة استوحاها من فكر القدّيس توما الأكوينيّ هي «مذهب التعويض»، وافق عليها كردينال أُوتْرِخْت Utrecht الذي أصبح فيما بعد البابا أَدْرِيانُوس السادس. ويقول هٰذا المذهب بأنّه يتوجّب على إسبانيا إنصافُ الهنودَ بأن توظَّف في أراضيهم ولحسابهم حصيلة الحسنات «التعويضيّة» التي يقدّمها – بموافقة البابا – المستعمِرون التائبون الراغبون في نوال الغفران لِما ألحقوه بالسكّان الأصليّين من سوء معاملة وتنكيل.

٥٣ وفي كانون الأوّل سنة ١٥١٩ كانت لِلاس كاسَس في البلاط الملكيّ ببرشلونة مناقشة حامية الوطيس مع المطران خوان كِڤِيدُو Quevedo الذي استند هو أيضًا إلى أرسطو ليبرّر استعباد الناس الذين هم من درجةٍ دنيا كالأميركيّين؛ إلاّ أنّ كيڤيدو بدّل رأيه فيما بعد، وقد يكون لِبَرْتُلميه يد في ذٰلك. ولقِي لاس كاسَس في البلاط دعمًا غير منتظَر من قِبل پلاثيوس رُوبيوس الذي تقدّم ببعض التعديلات على قوانين بُورگُس لصالح الهنود، ثمّ ما عتّم برتلميه أن انخرط في صفوف الرهبانيّة الدومنيكيّة سنة ١٥٢٣، ولعلّ ما دفعه إلى هٰذه الخطوة رغبتُه في مزيد من الدعم تُقدّمه له رهبنة مقتدرة تشاطره بشكل صريح تامّ مواقفه حول أميركا وسكّانها؛ وكان لاس كاسَس بالحقيقة يحتاج إلى مثل هٰذا الدعم لأنّه كان يواجه في أميركا معارَضةَ – أو اقلّه عدمَ تفهّم – الرهبنات الأخرى التي كانت، على وجه الإجمال، مقيّدةً أو

خاضعةً للجماعات الإسبانيّة في ما وراء البحار. وفي سنة ١٥٤٣ عُيِّن مطرانًا على تْشِيابَس Chiapas في گواتيمالا (وهي اليوم في المكسيك) تسهيلاً لقيامه بمهمّاته كـ «مدبّر للهنود»، ولإعطائه مركزًا مرموقًا في عداد ذوي السلطة الكنسيّة. وظلّ برتلميه، في وظيفته الجديدة، يتابع النضال من أجل الهنود، فأعطى كهنة إبرشيّته توجيهات تقضي برفض الحلّة «للمحصِّلين» الذين لا يتقيّدون تقيّدًا دقيقًا بقوانين حماية السكّان الأصليّين. لكنّ المستعمِرين احتجّوا على ذلك بشدّة، وعارضه بعضُ الرهبان ولو بشكل غير علنيّ، كما وُجِّهت إليه تهمة الحثّ على التمرّد، إذ باشر في تلك الأيّام بإنشاء جماعات هنديّة تقتصر إدارتها على الرهبان والهنود أنفسهم. واضطرّ الأسقف النشيط إلى العودة بعد قليل – في غضون سنة ١٥٤٧ – إلى إسبانيا ليدافع عن نفسه ويبرّرها من تلك التهم، ممّا كان في النهاية لمصلحة الهنود إذ تمكّن برتلميه من الانصراف ردحًا من الزمن إلى المحاماة عنهم في البلاط وحوله، وإلى تحرير كتابات أخرى في هذا الصدد. وممّا نشره في الفترة المذكورة كتاب بعنوان «الطريقة الوحيدة لهدي الجنس البشريّ إلى الدين الحقّ» (ألّفه عام ١٥٣٩ ولم ينشره إلاّ عام ١٥٤٧)، وكتاب أسماه «تاريخ ودفاع»، طبعه سنة ١٥٥٠. وفي كلا المؤلَّفين توسّع في عرض مفاهيم سَبَقَ أن بثّها مدافع آخر عن الهنود هو أسقف مدينة سِيگُوِڤيا Segovia أَنْطُونِيُو رَمِيرِث دِه آرُو Ant. Ramirez de Haro.

* * *

٥٤ ولئن خسرت مناظرة ڤلبادوليد، برحيل ڤيتوريا المبكِّر، بعض العمق في مجال الفكر القانونيّ، فقد ربحت، بوجود لاس كاسس، حماسةً وتشويقًا. وما إن انطلقت الندوات حتى هاجم «رسولُ الهنود» خصومه لا تلين له شوكة، وكانوا يتمسّكون بحرفيّة مذهب أرسطو فيقولون بأنّ الجنس الهنديّ أدنى مرتبةً من العنصر الإسبانيّ؛ وعلى الرغم من أنّهم يعترفون مبدئيًّا للهنود بالحقّ في الحرّيّة الشخصيّة لأنّهم بشر ومعمَّدون، فانّهم يُنكرون أنّ اهتداءهم إلى المسيحيّة يجعلهم مساوين للإسبان، ولا بدّ لهم من الخضوع لأسيادهم

الجدد دائمًا أبدًا. ومن هٰذا المنطلق يرون أنّ إسبانيا مفوَّضة لتسُوس أعضاء الشعوب الأميركيّة على مرّ الزمن ومخوَّلَة لتستعبدهم فيخدموا المستعمِرين.

٥٥ أمّا «رسول الهنود» فشرع بادئ الأمر بنقض صحّة مذهب أرسطو الموضوعيّة نقضًا قاطعًا، وقال: «بالنسبة إليّ، أرسطو وثنيّ يَصْلى في جهنّم سعيرًا»، فإن أردنا أن نأخذ مبادئه بعين الاعتبار، ينبغي لها ألاّ تُناقِض الأخلاق والعقيدة المسيحيّة. ولمّا كان تعليمُ آباء الكنيسة، المستنِد إلى ما ورد في الكتب المقدّسة، يؤكّد أنّ الله خلق سائر البشر أحرارًا ومتساوين إذ هم متحدّرون من أصل واحد حسبما جاء في رواية الخَلْق، فهل يُمْكِنه تعالى، وهو الصالح في جوهره، أن يرضى عن ولادة أناس عبيد بطبيعتهم؟ وكيف يستطيع سپُولْفدا التأكيد أنّ الأميركيّين الأصليّين – الذين لم يشاهدْهم مع ذلك مرّةً واحدة – هم متوحّشون على شاكلة من وصَفَهم أرسطو: حيوانات ناطقة، خلائق بشريّة ناقصة، أشباه قرود، كُتِبَت عليهم العبوديّة منذ أن حبلت بهم أُمّهاتهم؟

٥٦ كان لاس كاسس يختلف عن ڤيتوريا في تنشئته وبعض مواقفه. ففيما يبرز أستاذ سلمنكا الكبير قانونيًّا محترفًا ورائدًا سبّاقًا في القول بحقوق الناس حسبما فَهِمَها الشرع الدولي الحديث، ومؤيّدًا للفصل الواضح بين الدولة والكنيسة، يبدو برتلميه مقيَّدًا بمفاهيم تيوقراطيّة من ذيول العصور الوسطى بالنسبة إلى عدم التمييز العقائدي بين الصعيد المدنيّ والصعيد الكنسيّ؛ بيد أنّه تبنّى بعض طروحات ڤيتوريا – وقد يكون استوحاها من تلاميذ الاستاذ الكبير، أمثال دُومِينْگو ده سُوتُو Domingo de Soto – بحيث طلع بأفكار على غاية من الحداثة حول إمكانية تطوّر الجنس البشريّ. وممّا جاهر به أنّ جميع الشعوب، بما فيها أشدّها تخلّفًا، قادرة على التقدّم والصعود عاليًا في معارج التمدّن: فليست «الهمجيّة» حالةً دائمة جوهريّة لا مَناص منها؛ إن هي إلاّ عَرَض منوطٌ بالتاريخ والبيئة.

٥٧ وعليه فالهنود أبعد ما يكونون عن البهائم، ولا هُم فُطِروا على العبوديّة والتخلّف العقليّ، بل إنّهم أناس ولدوا أحرارًا، لهم من المهارة قسط وافر ومن الثقافة ما يجعلهم جديرين بكلّ احترام. ويذكر لاس كاسس من

الطرائق الزراعيّة وأساليب الريّ التي اعتمدها الهنود ما ينمّ عن تقدّم ملحوظ، كما يبيّن مهارتهم في استغلال النباتات إذ يستخرجون من نبتة واحدة من فصيلة الباهرات، هي الأغاف، اثنتين وعشرين مادّةً مختلفة. وهم قابلون للتقدّم في الحرّيّة، الشخصيّة منها والسياسيّة، جديرون بأن يشجَّعوا ويساعَدوا على الوصول إلى مستوى من التمدّن أعلى بواسطة تعليمهم وإشراكهم، على قدم المساواة، مع جماعات أكثر تطوّرًا. ولهذا السبب لم يوافق لاس كاسس على فرض قانون المستعمرات الإسبانيّ وما ينصّ عليه من التمييز بين الأوروبّيّين والهنود، بل رأى أنّ الاختلاط التدريجيّ المدروس بين السكّان الأصليّين و «أناس طيّبين» من العنصر الأوروبّيّ لمّا يأتي بالنتائج الإيجابيّة.

٥٨ ومن ثمّ فواجب الإسبانيّين، كونهم أعضاء في مجتمع متطوّر ومنتمين إلى العالم المسيحيّ، أن يعاملوا الهنود معاملتهم لبشر حقيقيّين فيعزّزوا تقدّمهم المدنيّ، ممّا يسهّل بشكل حتميّ دخولهم في الدين المسيحيّ[١٤]. وخلاصة القول إنّ فتح الإسبانيّين لأميركا لا يمكن تبريره إلاّ إذا كان الهدف منه تنمية الهنود على الصعيدين الخُلُقي والمدنيّ؛ ولمّا كان الإسبانيّون حتّى ذلك الحين أبعد من أن يسعوا إلى هذه الغاية، فلا بدّ من إعادة النظر في السياسة الاستعماريّة بمجملها لإعطاء الأوّليّة للإقناع السلميّ.

* * *

٥٩ ذلك باختصار تفكير الخصمَين حسبما تجلّى في مناظرة ڤليا دوليد. والواقع أنّ الجلسات كانت أشبه شيء بسيل عارم يعجّ بالمعلومات الأدبيّة والكتابيّة، والبراهين القانونيّة والفلسفيّة واللاهوتيّة، ممّا أرهق فأغرق أشدّ الأذهان قدرةً على الاستيعاب. وبعد الجلستين الأوليين كان من الحكّام – وقد أعياهم طول النقاشات، إذ دامت مرافعة لاس كاسس الأولى

١٤. وتجدر الإشارة هنا إلى توافق فكر لاس كاسس السياسيّ وفكره الدينيّ. فهو لم يكن ليرضى عن «العمادات السهلة» الجماعيّة التي لجأ اليها في البدايات بعض الرهبان تحدوهم الرغبة في إبعاد خطر الرقّ عن الذين يُمنحون العماد أو بغيةً منحهم الخلاص، بل كان يقول بأنّ إدخال الهنود في جماعة المؤمنين يجب أن يمهَّد له بتعليم دينيّ مناسب، وحتّى بتنشئة مدنيّة مماثلة. فاحترام حرّيّة المعتقد كان بالنسبة الى لاس كاسس أمرًا أساسيًا.

خمسة أيّام ! – أن قرّروا أنّهم... لن يتّخذوا قرارًا نهائيًّا مستعجلاً. وراحوا يطلبون المزيد من الإيضاحات، وأرادوا كتابة النتائج التي انتهَوا إليها، ممّا استدعى بضع سنوات؛ وما أبدَوه من آراء لم يكن بالإجمال على كثير من الدقّة والوضوح، بيد أنّ الاتّجاه السائد كان بلا أيّ شكّ لصالح مذهب لاس كاساس.

٦٠ وفي غياب القرار الحاسم على إثر المناظرة، راح كلا الفريقين المتخاصمين يدّعي لنفسه الغلبة، وعادت المجادلة بينهما يَذُرّ قَرنُها فتغذّيها كتابات جديدة. ومع ذٰلك، وبغضّ النظر عن قرارات حكّام المناظرة في ڤليا دوليد، فإنّ قصب السبق كان من نصيب لاس كاسس لأنّ سياسة اسبانيا وتشريعها في السنين التالية تأثّرا تأثُّرًا واضحًا بأفكار المطران المِقدام. ففي عام ١٥٥٦، لمّا سمح الملك فيلبّس الثاني لنائبَيه في البِيرُو والمكسيك بمباشرة رحلات استكشافيّة جديدة، أعطاهما توجيهات صارمة ليقودا هٰذه العمليّات في إطار القوانين المرعيّة. وقد جرى فتح الفيليبّين فيمَا بعد (سنة ١٥٧٠ وما يليها) بطريقة أقلّ ضراوة ووحشيّة. ومن إيجابيّات القوانين التي صدرت في ١٣ تمّوز ١٥٧٣ لتنظيم الاكتشافات والفتوحات العتيدة عبر البحار، أنّها شدّدت على ضرورة اتّسام هٰذه العمليّات بالطابع السلميّ، وعلى حقوق السكّان الأصليّين. و «الإيضاح» الذي صدر سنة ١٥١٣، وإن لم يُنْسَخ، فقد خُفِّف من صرامته وحُذِف من نصّه الاستناد إلى احتلال شعبِ إسرائيل أرضَ الميعاد بالسيف والنار. كذٰلك مَنحت هٰذه القوانين السكّانَ الأصليّين ضمانَ حرّيّتهم الشخصيّة، وركّزت بنوع خاص على مبدإٍ يقول بأنّ إدخال الحضارة الأوروبيّة والديانة المسيحيّة إلى المستعمرات مشْتَرَط بتنمية هويّة الرعايا الجدد وتحريرهم على الصعيد المدنيّ.

٦١ ولٰكن ما يدعو إلى الأسف أنّ الأمور، من الوجهة العمليّة، ظلّت تسير بشكل عام على نحو ما كانت عليه قبل مناظرة ڤليادوليد وصدور قوانين فيليبّس الثاني، ولم تتحسّن أحوال الهنود إلاّ ببطء وتعثّر. بيد أنّ المناظرة المذكورة بالِغةُ الأهمّيّة بالنسبة إلى المستقبل إذ إنّها لم تكن مجادلة مجرّدة عقيمة بين أحد الرهبان وخصم له علاّمةٍ وحسْب، بل ظهرت مرحلةً أساسيّة في

تطوّر الفكر السياسيّ الحديث ؛ وقُيِّض في النهاية لطروحات ڤيتوريا وحجج لاس كاسس ، النابعة من خبرة إنسانيّة عميقة مُعاشة ، أن تنتصر على تعاليم سِپُولڤدا التقليديّة الفارغة . وإنّ إعلان المساواة في الحقوق والواجبات بين البشر جميعًا بمعزل عن أجناسهم ، وإعلان المبدإ القائل بأنّ سائر الناس وُلدوا أحرارًا متساوين في الكرامة ، متّحدين بالأخوّة الشاملة ، لمّا أَلهم الكثيرين من أرباب الفكر والسياسة في العصور التالية – وقد ناضلوا بالقول والقلم والعلم لإقرار حقوق كلّ ذي نفس – ولمّا تردّد صداه في شرعة حقوق الإنسان التي تبنّتها الأمم المتّحدة ، وفي قرارات المجمع الڤاتيكانيّ الثاني .

٥) نضال المرسَلين في سبيل الهنود

٦٢ قويتْ شوكة الفاتحين في أميركا بتدفّق المهاجرين الأوروبّيّين وتثبيت الأُطُر السياسيّة والإداريّة الإسبانيّة في المستعمرات ، وقابَل هٰذه الظاهرة ، من جهة الهنود ، تفاقم حالتهم وتدنّيها من سيّئٍ إلى أسوأ . فعلى الرغم من الجهود اليوميّة التي كانت تبذلها الرهبانيّات والدوائر الرسميّة للدفاع عن حقوق أهل البلاد الأصليّين ، وعلى الرغم من التحسينات التي طرأت شيئًا فشيئًا على التشريع الإسبانيّ لحماية الهنود أفرادًا وجماعات ، فإنّ هؤلاء المساكين كانوا في أغلبيّتهم الساحقة يعيشون حياةً هي بالواقع نوع من العبوديّة . ذلك بأنّ نظام « المحصول » أخذت تتّسع رقعته وتتأصّل شأفته دون أن تعترضه عقبات تُذكر ، وكان يطبَّق بلا مراعاة للأسس الإنسانيّة التي من شأنها أن تحدّ من قساوته . أمّا المُثُل الدينيّة التي حرّكت رسميًّا عَجَلة فتح القارّة الجديدة ، والتي كان من المفروض أن تظلّ تنفح بروحها حياة المستعمَرات ، فكانت قد ضعفت وانحصر جلّ نشاطها في تشييد الكنائس الفخمة الرائعة[١٥] .

١٥. ثمّة بعض الأحكام التي أطلقها نفر من رجال الدين على « المحصّلين » ونظام « المحصول » نفسه :

قال رئيس أساقفة مُونْگروڤيخو Mongrovejo في رسالة منه إلى الملك فيليبّس الثاني عام ١٥٩٢ :
« ليس من عبوديّةٍ ولا مِن أسْرٍ أشدّ تضييقًا منه وإذلالاً ، إنْ عند البربر أو في سفن الأتراك » . ←

٦٣ وهناك تفسير لدوام هٰذه الحالة ، علمًا أنّ نظام « المحصول » لم يُلْغَ بشكل نهائيّ إلاّ في العقد الأخير من القرن الثامن عشر : فتشغيل الهنود بصورة منظّمة كان يهمّ ملوك إسبانيا أنفسهم ، على الرغم من كلّ ما كانوا يتستّرون وراءه على الصعيدين القانونيّ والأخلاقيّ ؛ كما كان يهمّ الموظّفين في إدارة المستعمَرات ، وكذٰلك المستعمِرين ، وحتّى أعيان الهنود الذين تكيّفوا خير التكيّف مع النظام الجديد واندمجوا فيه. فبالنسبة إلى الملوك كان لا بدّ من إدخال السكّان الأصليّين ، حتّى عن طريق النظام الضاغط ، في الحياة اليوميّة ضمن الجماعة الهنديّة الإسبانيّة الناشئة – وبدون عملهم لا حياة اقتصاديّة ممكنة في المستعمَرات . أمّا بالنسبة إلى الموظّفين ، فكانوا لا يرون بدًّا من إرساء المجتمع الاستعماريّ على قواعد ثابتة ، منظّمة ، أقرب ما تكون من المثال الأوروبّيّ ، قادرة على تأمين متطلّبات الوطن الأمّ مِن حيث الضرائب . وبالنسبة إلى « الفاتحين » والمستعمِرين ، كان إقطاعهم الأراضيَ ، وما يواكبه من عَمل يُفْرَض على السكّان المحلّيّين، جزاءَ ما كان لهم – أو ما ظنّوا أنّه كان لهم – مِن فَضلٍ في إخضاع الأميركيّين وإنشاء مجتمع جديد في المستعمرات . وكان ماثلاً أمامهم ما جرى للمقاتلين في الحروب مع العرب ، ولفاتحي جُزر الكناري ، إذ نالوا تعويضات مماثلة وأحسنوا الولاء للمملكة مؤمّنين لها في الوقت نفسه وفاء الذين أخضَعوهم لسلطانهم .

٦٤ ولم تكن الدولة ، مع كلّ هٰذه المصالح المتداخلة المتشابكة ، لتتجاهل واجباتها في ترقية مستوى الهنود الإنسانيّ وتبشيرهم بالإنجيل ؛ إلاّ أنّه كان ينبغي لها ، في الوقت عينه ، أن تأخذ بعين الاعتبار الخدمات التي أدّاها « الفاتحون » والمستعمِرون باحتلالهم الأراضي وتعميرها وحفظها في دائرة المملكة . لذا ظلّت التشريعات الصادرة عن الدولة تتذبذب باستمرار بين

وكتب مطران لِيما إلى الملك فيليبّس الثاني بتاريخ ١٣ كانون الثاني ١٥٩٣ يندّد أشدّ التنديد بنظام « المحصول » .

كما كتب مطران توكومان الى الملك فيليبّس الثاني بتاريخ ١٤ آب ١٦٠٩ ينعت « المحصّلين » بالأبالسة المتجسّدة.

الاعتراف بحقوق الهنود – أقلّه الإنسانيّة منها – وإعطاء المهاجرين ما يطلبونه من امتيازات على حساب الهنود.

* * *

٦٥ إنّ الاختلاط الذي فرضته الظروف على سكّان أميركا القدامى والجدد كان، على الرغم من المظالم التي ألحقها الأواخر بالأوائل، تطوّرًا تاريخيًّا أسفر، على المدى الطويل، عن نتيجة إيجابيّة هي ولادة المجتمع اللاتينيّ الأميركيّ ثمرةً لتمازجٍ بدأ عسيرًا ولكنّه أضحى، في النهاية، سبيلاً إلى التقدّم. وقد كان لقلّة نسبة النساء الأوروبيّات في القارّة الجديدة أثر ملموس في نشأة عنصر المولّدين، الذي ما عتّم أن طبع المجتمع بطابعه، موفّرًا أسباب التقارب والتمازج بين الحضارتين الهنديّة والأوروبيّة على نحوٍ مطّرد لا مجال لإيقافه.

وخلال هذا التطوّر التاريخيّ كان الهنديّ موضوع سياسة سعت إلى السيطرة عليه واستغلاله، ولكنّها ساهمت على المدى الطويل في تنميته الثقافيّة والاجتماعيّة. ولبلوغ هذا الهدف الأخير، قام بالدور الفعّال المرسَلون والجماعات الرهبانيّة.

٦٦ لقد ذكرنا آنفًا كيف اجتهد التشريع الاسبانيّ، منذ أوائل الفتوحات، في أنْ يجد حلاً ثابتًا لمشكلة الجماعات الهنديّة الرحّل أو شبه الرحّل أو حتّى المبعثرة، فشجّعها على الاستقرار أو أجبرها عليه في مراكز إقامة دائمة، وغايته من ذلك تيسير مراقبتهم وتبشيرهم وإيجاد اليد العاملة للأشغال العامّة و «المحصول» الخاص؛ بيد أنّه كانت له غاية أخرى هي تسهيل الانتقال بهؤلاء القوم من اقتصاد القطاف – والتخريب أحيانًا – إلى اقتصاد الزراعة وتربية الماشية والمهن الحرفيّة. وقد أُطلق على هذه المراكز الجديدة اسم «الحواضر»، وكانت إدارة الهنود فيها مبدئيًّا بيد رؤساء محلّيين، إلاّ أنّ الحلّ والربط كانا عمليًّا في عهدة موظّفين إسبانيّين جُعلوا لمراقبتهم. كذلك كان في «الحواضر» المرسَلون، ومهمّتهم التبشير، بيد أنّه لم يندر أنْ أُنيطَ بهم – سواء بمبادرة منهم أو بطلب من السلطات المدنيّة – مساعدةَ موَظّفي الدولة أو حتّى

إدارةَ الجماعة من شتّى الوجوه. وتدخُّل الرهبان هٰذا في الإدارة المدنيّة كان ممكنًا بفعل تَنصِيبِهم رسميًّا «محامين للهنود»، أو بفعل «وصاية ملك إسبانيا»؛ ذٰلك بأنّ عاهل قشتالة كان قد تقلّد، قلّده البابا، منصبَ «نائب» الحبر الأعظم في البلاد الهنديّة، ممّا خوّله بعض السلطان الإداريّ في شؤون الكنيسة باستثناء ما يمتّ إلى خصوصيّات الكهنوت. وكانت ازدواجيّة السلطة هٰذه التي يتمتّع بها المليك في الأمور الزمنيّة والروحيّة معًا تفسح له المجال لرعاية مبادرات المرسَلين رعايةً مباشرة، وقد سعت الرهبانيّات إلى ذٰلك، وكثيرًا ما طلبت إلى ملوك الإسبان أن يجعلوا إرساليّاتها في حمايتهم. ومن منافع مثل هٰذه الوصاية الحصولُ على مساعدة المملكة في تحمّل تكاليف الإدارة، والتحرّر من سلطة الأساقفة المحلّيين، والخضوع المباشر لـ «مجلس الشؤون الهنديّة» وكان مركزه في مدريد، بعيدًا عن الضغوط السلبيّة التي تمارسها الجماعات الإسبانيّة المستعمِرة. وهٰكذا تأسّست في مناطق مختلفة من أميركا بعض «الحواضر» حيث كان الرهبان في آنٍ واحد مبشّرين وإداريّين مدنيّين، أو أقلّه معاونين للحاكم المدنيّ يساهمون في نفح إدارته بالروح الإنسانيّة.

٦٧ يبدو أنّ المحاولة الأُولى حصلت في كُومَنا Cumaná – ڤنزويلا – بمبادرة مِن برتلميه لاس كاسس وبمساعدة رهبان القدّيس فرنسيس. غير أنّها لم تَدُم إلاّ أعوامًا معدودة من ١٥١٥ إلى ١٥٢٢ لقلّة العنصر الرهبانيّ ولأنّ الجنود الإسبانيّين، الذين جاؤوا في إثر الرهبان لحماية «الحاضرة»، حاولوا عدّة مرّات استعباد الهنود القاطنين فيها، ممّا تسبّب بثورة دمويّة. وقامت في الفترة نفسها محاولة مماثلة بهمّة الرهبان الدومنيكيّين، ولٰكنها باءت بالإخفاق للأسباب عينها. كما أنّ جماعات أخرى ثلاث، كان لاس كاسس يخطّط لإنشائها في ڤنزويلا، لم تبصر النور لأنّ الرهبان الفرنسيسيّين المخصَّصين لها هلكوا جميعًا بغرق سفينتهم في البحر.

٦٨ إلاّ أنّ النجاح قُيِّض لمحاولة ثالثة مع إنشاء «حاضرة» «ڤيرا پاث» Vera Paz في گواتيمالا سنة ١٥٣٧ بهمّة لاس كاسس وبعض شركائه من الدومنيكيّين. كانت المنطقة التي قامت عليها التجربة تُدعى باسم معبِّر ومخيف: «أرض الحرب»، مردّه إلى الروح القتاليّة التي كان يتّصف بها قاطنوها. إلاّ أنّ

الدومنيكيّين استفادوا من خبرتهم السابقة في ڤنزويلا وتصرّفوا بحذر، وقبل أن ينطلقوا بمبادرتهم أرادوا الحصول على بعض الضمانات من حاكم گواتيمالا بالوكالة، القاضي أَلُونْسُو دِه مَلْدُونادُو. وممّا طلبوه أن يُسمح للهنود الذين سيُخضعهم المرسَلون بالطرق السلميّة، أن لا يؤدّوا «المحصول» إلى الأفراد، بل إلى الملك نفسه مباشرةً بأن يُدْفَع إلى خزينته ضريبة بسيطة؛ كما أنّهم طلبوا أن يُمنَع، لمدّة معيّنة من السنين، دخول الاوروبيّين المباح إلى المنطقة، خشية أن تُهيّأ الظروف لفرض «المحصول» الخاص، ولقطع الطريق أمام أسباب تشكيك الهنود. فمَنَح ملدونادو بتاريخ ٢ أيار ١٥٣٧ الضمانات المطلوبة، وقد ثبّتها نائب الملك في المكسيك أنطُونيو دي مَنْدُوثا، والملك كارلوس الخامس نفسه بعد أن استمزج «مجلسَ الشؤون الهنديّة» في مدريد.

٦٩ واتّجه الإخوة برتلميه لاس كاسس ولويس كانْثِر واثنان آخران، يرافقهم بعض التجّار الهنود المتنصّرين، إلى قرية كُوبان Cubán مركز المقاومة في وجه الإسبانيّين، واتّصلوا بقبائل المنطقة وزيّنوا لها بكثير من الصبر الفوائدَ المترتّبة على خضوعها المسالم للمرسَلين، فأقنعوها بقبول تبشيرهم بالمسيحيّة وارتباطهم المباشر بملك إسبانيا. والجدير بالذكر أنّ الملك نفسه عاد فثبّت غيرَ مرّة، بين ١٥٤١ و ١٥٤٣، هذا الارتباط المباشَر به والإعفاء من «المحصول» الخاصّ لجميع الهنود الذين دخلوا مسالمين في طاعة الرهبان، سواء ضمن حدود «أرض الحرب» أو في غيرها من المناطق المجاورة. أضف إلى ذلك أنّه ثبّت سلطة الأعيان المحلّيين – الكاسيك – معترفًا بأنّهم «الأسياد الطبيعيّون»، مانحًا إيّاهم شعارات النبلاء. وقد انتهت إلينا أسماء بعضهم: السيّد خُوان دي أَتِيتْلان – وهو أوّل المهتدِين –، السيّد مِيگال ده تْشِيتْشِيكَسْتِنَنْكُو، السيّد خُورْخِه ده تِكْيان أَتِيتْلان، السيّد كسپار ده تِكِتِيسْتْلان...

وبدأت دعائم المؤسَّسة الجديدة تترسَّخ شيئًا فشيئًا على الرغم من محاولات الإسبانيّين المتتالية لإدخال المستوطِنين إليها ولفرض «المحصول»، وعلى الرغم من الأحداث الدمويّة التي كانت تجري حينًا بعد حين فتوقع الضحايا حتّى بين المرسَلين، ولا يُستبعَد أن تكون هذه الحوادث مفتعَلَة لإقامة البرهان على أنّ «الجمهوريّات لا تُحْكَم بالصلوات».

٧٠ وفي سنة ١٥٤٧ وبأمر من الأمير فيليبّس، أُطلق على «أرض الحرب» اسم «ڤيرا پاث» أي «السلام الحقّ». وعام ١٥٦١ أُنشئَ فيها كرسيّ أسقفيّ على كره من الجالية الاسبانيّة القاطنة في سانتياگو ده گواتيمالا. وكان أوّل مطران لها الراهب پيدْرُو (بطرس) دِه أنْگُولُو de Angulo واستطاعت ڤيرا پاث، بمساعدة الدومنيكيّين، أن تتغلّب على الصعوبات الاقتصاديّة والسياسيّة، بحيث قال أحد المؤرّخين «إنّ الكاسيك. والهنود فيها كانوا، ولا شكّ، فقراء، ولكنّهم كانوا على قيد الحياة». وعلامة أخرى على حيويّة ڤيرا پاث أنّها لم تزُل بزوال مؤسّسها.

٧١ وفي الأعوام التالية تابع الرهبان عملهم هذا على الرغم من أنّ الجماعات الهنديّة المستقلّة التي استطاعوا تنظيمها وإدارتها كانت أشبه بنقطة في خضمّ الأمبراطوريّة الاستعماريّة بأميركا اللاتينيّة. فقد أسّس الدومنيكيّون وأداروا بعض «الحواضر» قريبًا من نهر هُوَالاگا Huallaga في البِيرُو؛ ونشط الفرنسيسيّون على ضفاف نهر الأُورينُوكُو وفي إيالة تُوكُومان وإيالة البرگواي والريو ده لاپْلاتا بحيث كان سنة ١٦١٧ ثلاث جماعات في الإيالة الأولى واثنتا عشرة في الثانية. وكانت بعض هذه «الحواضر» تضمّ من السكّان ما يربو على الخمسة آلاف نسمة، وأهمّ من عُرِف من المرسَلين المنشّطين لهذه الجماعات الرهبان لويس ده بُولانيوس وألونسو ده سان بُوناڤنْتُورا وگبريال ده لا أَسُونْثِيُون. وكان لرهبان القدّيس فرنسيس فضل لا يُستهان به في ميدان هامّ: فقد وعَوا ضرورة تبشير السكّان الأصليّين تبشيرًا عميق الأثر، بَعيدَ المدى، ممّا يتطلّب في الوقت نفسه تطوير ثقافتهم. لذا عَمَدوا إلى التركيز على اللغات المحلّيّة وجعلِها أداةَ تَواصُل ومدخلاً إلى المعرفة والعلم، فعملوا على تنسيق قواعدها وإيجاد كتابة لها. وبذلك حُفِظَتْ الثقافة المحلّيّة، أقلّه بشكل جزئيّ، وأتاح لها الرهبان فرصة البقاء. وانصرف الفرنسيسيّون في البرگواي إلى إنشاء كتب للتعليم الدينيّ في أهمّ اللغات المحلّيّة، لغة الگواراني، وجعلوا من هذا اللسان أداتهم الأساسيّة لنقل البشارة.

٧٢ واتّضحت معالم هذا الاتّجاه ورسخت جذوره في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر، فأقرّته السلطات الكنسيّة في أميركا الجنوبيّة خلال

مجمع انعقد في مدينة لِيما عام ١٥٨٣ ؛ وقد ثبّت هٰذا الاتجاهَ أيضًا ، بالنسبة إلى إبَرشيَّة البِرَكواي والرِيُو دِه لا پْلاتا ، الأسقفُ المحلّيّ الراهبُ الفرنسيسيّ مارتين إنياثيُو ده لُويُولا بمناسبة انعقاد مجمع إبَرْشيّ في مدينة أسُونْثِيُون. كما أنّ السلطات المدنيّة الإسبانيّة في المنطقة وافقت تمام الموافقة على سياسة الفرنسيسيّين اللغويّة هٰذه[١٦].

بيد أنّ أبناء القدّيس فرنسيس لم يعيروا النشاط الاقتصاديّ في «حواضرهم» إلاّ قليل الاهتمام ، مفضّلين إدخال الهنود في دائرة إنتاج الجماعة الإسبانيّة الراهنة . وقد أدّى ذٰلك من جهة إلى بعض الصعوبات بفعل ارتباط «الحواضر» الزائد بعالم الاستعمار – وكان الهنود خاضعين «للمحصول» الخاصّ ممّا جعل «حواضر» الفرنسيسيّين على حال من الفقر دائم –، ومن جهة أخرى سادت أجواء من التفاهم الضمنيّ بين «الحواضر» والسلطات والمستعمِرين الإسبان.

٧٣ وجاء اليسوعيّون إلى البيرو سنة ١٥٦٨ . والحقّ يقال إنّهم لم يحصلوا بسهولة على الإذن بالعمل في هٰذه البلاد ومِن بعدها في البِرَكواي. فإنّ مجلس الشؤون الهنديّة كان مِن عادته التحفّظ في إعطاء التراخيص ، وكان لا يزال يتمهّل لإطلاق يد الرهبانيّة اليسوعيّة الحديثة النشأة ، مُؤْثِرًا إسناد العمل التبشيريّ إلى الرهبانيّات المخضرمة صاحبة الخبرة وليدة الأيّام. إلاّ أنّ تضافر جهود نائب ملك إسبانيا في البيرو ، ورئيس أساقفة لِيما ، والرهبانيّة اليسوعيّة في روما ولدى البلاط الإسبانيّ ، تغلّب في النهاية على تردّدات الملك فيلِيبّس الثاني فمنح الرخصة المرجوّة في يوم ٣ آذار ١٥٦٦ . وقد سارع المليك في اتّخاذ القرار لأنّ اليسوعيّين البرتغاليّين ، العاملين في البرازيل ، كانوا يفكّرون في الدخول إلى البِرَكواي من الشرق كما يشهد على ذٰلك ما كتبه المرسَل نُوبْرِكا Nóbrega إلى

---

١٦. ورد في مذكّرة رفعها الضابط مانُويل فْرِياس إلى «مجلس الشؤون الهنديّة» ما يلي : «نتوسّل إلى جلالتكم أن تأمر رؤساء الرهبانيّات الفرنسيسيّة واليسوعيّة وسواها في الأقاليم بألاّ يَستبعدوا من توكومان وغيرها من المدن الرهبان الذين يحسنون اللغة المحلّيّة ويعملون في تعليم الهنود ، وإن همُ استعادوا أحدًا فليُرجعوه».

القدّيس إغناطيوس ده لويولا قُبَيل وفاة مؤسّس الرهبانيّة اليسوعيّة سنة ١٥٥٦.

٧٤ وما إن حلّ اليسوعيّون في البيرو حتى أسّسوا جماعة أُولى في هُوارُوتْشِيرِي Huarochiri بجبال الأَنْدِس، تخلّوا عنها بعد سنتين لافتقارهم إلى مَن يديرها مِن ذوي الكِفاية. ولكنّهم سرعان ما عادوا إلى العمل فأسّسوا رسالة «مُحِيط لِيما» في جوار العاصمة. وبدأت ثمّة ترتسم مجموعة من الأنشطة إلى جانب الأعمال التبشيريّة البحتة، ممّا يتجاوز ما تنصّ عليه قوانين القدّيس إغناطيوس من تحاشي التزام رهبانه بأعمال الرعايا وما إليها، فقامت مدارس لتعليم الديانة المسيحيّة بشكل مستمرّ، مع ملحقات لها لتلقين الفنون الموسيقيّة، وأُنشئ نظام لتوفير المساعدات الطبّيّة بما فيه جولات يوميّة للممرّضين على المرضى وبناءُ المستشفيات، كما أُسّست مدارس خاصّة بتربية أولاد «الكاسيك».

٧٥ ومن الجماعات الهنديّة التي انصرف اليسوعيّون فيها إلى التنظيم المدنيّ فضلاً عن العمل الكنسيّ الصرف، واحدة تتميّز بأهمّيّتها، هي «حاضرة» خُولِي Juli. كانت تقوم على علوّ أربعة آلاف متر إلى الجهة الجنوبيّة من شاطئ بحيرة تِيتِيكاكا الكبيرة، وتضمّ نحو تسعة آلاف هنديّ في أربع رعايا. وكان أعضاء هٰذه الجماعة، شأنهم شأن إخوانهم في الجماعات السابقة، يخضعون، بموجب قرار نائب الملك في البيرو بتاريخ أوّل آب ١٥٧٨، «للمحصول» الملكيّ المباشر. وكان اليسوعيّون يشرفون، بمعاونة «الكاسيك» المحلّيّين، على الإدارة المدنيّة في «الحاضرة» إلى جانب متابعتهم للحركة الاقتصاديّة، وهي تقوم على صيد الأسماك وتربية الماشية وزراعة الحقول، فيُمضي الهنود في تلك الأعمال الأشهرَ الثلاثة التي كانت الدولة المستعمِرة تتركها لهم – في حين كانوا يعملون، خلال الأشهر التسعة المتبقّية، في المناجم الحكومية، كلّ واحد في دوره.

٧٦ وكان اليسوعيّون، بفضل ارتباطهم المباشر بالملك، لا يَخضعون لرؤساء الكنيسة المحلّيّين، وغالبًا ما اضطُرَّت السلطات المدنيّة إلى التوسّط لحلّ النزاعات القائمة حينًا بعد حين بين الرهبان ومطران كُوثْكُو Cuzco الذي كان

يسعى دومًا إلى إرسال كهنته إلى رعايا خُولي – ولعلّهم كانوا يبغون من وراء ذلك تحصيل العُشر. وكان من ازدهار الحركة الاقتصاديّة في خُولي أنّه أتاح لليسوعيّين أن يجعلوا من هذه الحاضرة «روما صغيرة»، إذ شادوا فيها كنائس أربعًا سُمّيت بأسماء باسيليكات رومانيّة: القدّيس بطرس، القدّيس بولس، القدّيس يوحنّا، وصليب أورشليم المقدّس. وكان بُناة هذه المعابد ومزيّنوها من الصنّاع الهنود، قلّدوا فيها النماذج الأوروبيّة فأضحت بمثابة «المختبرات»، ومنهم مهرت طبقة من المهنيّين المحلّيين ساهموا بعد ذلك في نشر فنّهم في سائر مناطق البيرو.

٧٧ وكان إثراء حاضرة خُولي النسبيّ مدعاةً لحسد العلمانيّين والإكليريكيّين، ومن ثمّة سببًا للانتقادات. فقد تعرّض الرئيس الإقليميّ اليسوعيّ، الأب بَلْتسار پنياس Piñas غير مرّة حتّى في داخل رهبانيّته، للذمّ والتوبيخ لاهتمامه الزائد بالناحية الاقتصاديّة في إدارة الجماعة المذكورة على حساب الناحية الدينيّة. وبالفعل، وعلى حدّ ما أعرب عنه النقّاد، كانت الحياة الروحيّة في خُولي تبدو على شيء من الخمول، يواكبه التزام بالمسيحيّة سطحيّ، ومعاقرة للكحول متفشّية، وسلوك غير مرضيّ على وجه الإجمال. ولم ينكر المسؤولون عن «الحاضرة» هذا التقصير في الحياة الروحيّة، أقلّه بعضًا منه، إلاّ أنّهم كانوا يَعْزُونه إلى النقص في عدد المبشّرين، وإلى الاختلاط الزائد وغير الخاضع للمراقبة بين الهنود والإسبانيّين – لا سيّما خلال فترات العمل الإلزامي في المناجم –، وبين هنود الحاضرة وأعضاء القبائل الأخرى التي لم تكن انتمت بعدُ كاملَ الانتماء إلى المسيحيّة. أضف إلى ذلك أنّ حاضرة خُولي لم تكتفِ بمَنح سكّانها ظروفًا معيشيّة أرفع مستوى منها في الجماعات الهنديّة الأخرى، بل يبدو أنّها خلقت عند أهلها وعيًا لا يستهان به: فتقارير المرسلين روت من مواقف رعاياهم الهنود المدنيّة والأخلاقيّة ما يوفّر عبرًا بليغة وأمثالاً تُحتذى.

٧٨ ونظّم اليسوعيّون حواضر أخرى في البيرو الأعلى – أي في بوليڤيا الحاليّة – بين الهنود التشيكيتُوس Chiquitos، وهم قبائل أمدّت جيش الاستعمار الإسبانيّ بفِرَقٍ من المجنّدين – خاضعة لإمرة المرسَلين – في أثناء

الحملات العسكريّة التي شُنَّت على القبائل الأخرى لإخضاعها.

وقامت الرهبانيّة اليسوعيّة بمبادرة أخرى هامّة في إيالة المكسيك، إذ أسّست في منطقتي كاليفورنيا السفلى والسُنورا Sonora ما يقارب الخمسين قرية، حيث كان الهنود – وهم من عنصر الأَپاتْشِه Apache – خاضعين لإدارة المرسَلين الكنسيّة والمدنيّة. وكانت مهمّة هٰذه القرى دفاعيّة، لحماية حدود المنطقة إلى الشمال. لذا كانت محصّنة وحياة الأهلين فيها شديدة التنظيم برعاية المرسلين، وكانت تساعدها على القيام بأودها مؤسّسات إقتصاديّة وزراعيّة ومهنيّة ذات طابع جماعيّ، كما أنّ كلّ أسرة كانت تُمنَح بيتًا صغيرًا وحقلاً صغيرًا يؤمّن لها حاجاتها اليوميّة.

٧٩ ولم يكتفِ اليسوعيّون بإنشاء الحواضر في الأراضي التابعة للإسبانيّين وحدها، بل عملوا على تأسيسها أيضًا في البلاد الخاضعة للبرتغاليّين، أي في البرازيل، مع بعض الاختلاف في شروط العمل وطبيعته بين هٰذه وتلك.

إلاّ أنّ البادرة التي خلّدت بها الرهبانيّة اليسوعيّة اسمها بشكل مميّز لا مثيل له كانت مغامرتهم العظيمة في البرِگواي الشرقيّ، حيث استطاعت بسط سلطان إسبانيا ونشر السلام والأمان دون هدر الدماء، منشئة إلى ذٰلك مجموعة من «الحواضر» قامت على نظام اقتصاديّ متكامل ونعمت بالاستقلال الاداريّ، وقد عرفها التاريخ باسم «دولة» اليسوعيّين في البرِگواي، أو بشكل أصحّ، دولتهم بين الگواراني.

* * *

٢ اليسوعيّون «يفتتحون» البرﮔواي

١) التمهيد والمقدّمات

٨٠ إنّ منطقة الرِيُو ده لاپْلاتا (نهر الفضّة)، التي يمتّ إليها البرﮔواي على الصعيد الجغرافيّ، اكتُشفت سنة ١٥١٦ على يد البحّار خُوان دِياث ده سُولِيس Juan Díaz de Solís فيما كان يحاول إيجاد الطريق الجنوبيّ إلى المحيط الهنديّ. إلاّ أنّه ساءَ نصيبًا، فما إن وطئت قدمه اليابسة حتى قتله الهنود التشارُواس Charrúas، ممّا دفع رفاقه في الرحلة إلى العودة أدراجهم عازفين عن المزيد من الاستكشافات.

وعلى العكس لقد حالف الحظّ بحّارًا آخر كان يعمل في خدمة ملك قشتالة، هو سِبَسْتِيانُو كَبُوتُو، أحد رعايا جمهورية البندقيّة. فإنّه استولى على بعض الأماكن الساحليّة هناك، وأقام علاقات ودّية مع عدد من القبائل الهنديّة، وأسّس قواعد وشيّد قلاعًا على امتداد الخليج الشاسع الأطراف حيث يصبّ نهر الفضّة. ثم توغّل، على طول الأنهر الكبيرة، في المنطقة، فكان له مواجهات، حالفه النصر خلالها، مع قبائل الأَكَاثِس Agaces، كما أنّه أنشأ علاقات ودّية مع أعدائهم الگواراني.

٨١ في الفترة نفسها بدأ الإسبانيّون يتغلغلون داخل أراضي البرﮔواي، إلاّ أنّهم لم يتقدّموا خلال السنوات الأولى إلاّ بشيء من البطء، على عكس ما جرى لهم في المكسيك والبيرو، بسبب افتقار البرﮔواي إلى مناجم المعادن الثمينة التي تجتذب الفاتحين. أضف إلى ذلك الظروف الأرضيّة الصعبة من غابات كثيفة تخترقها مجاري المياه بكثرة، ومن حرب العصابات تشنّها باستمرار قبائل

الهنود ، ممّا أخّر تقدّم القشتاليّين نحو الشمال واضطرّهم إلى الاكتفاء بادئ الأمر بالسيطرة على المناطق المجاورة لأهمّ الطرق النهريّة.

وكان أكبر مراكز الإسبانيّين مدينة أسُونْثِيُون Asunción ، أسّسها في الخامس عشر من آب ١٥٣٦ خُوان دِه أيُولَس ووسّعها بشكل ملحوظ الحاكم دُومِنكُو دِه إرالا بعد أن انتخبه مواطنوه لهذه المهمّة سنة ١٥٣٨. وكانت أسونثيون مفتاح العبور إلى بلاد البيرو الأعلى (أي بوليفيا الحاليّة) الغنيّة بالمعادن ، كما أنّها كانت في النصف الأوّل من القرن السادس عشر أهمَّ من مدينة بُويِنُس آيرِس Buenos Aires التي لم تزدهر إلاّ في أواخر القرن المذكور. ومع نهاية هذه الحقَبة كان الإسبانيّون قد تمركزوا على طول شاطئ الأطلنطي وعلى طول نهرَي البرگواي والپَرَنا Paraná في حين بقيت منطقة نهرَي الپَرَنا الأعلى والأُورُوگواي في عداد المجاهل، يقطنها قبائل شبه بدويّة من أصلِ گواراني، بدائيّة الثقافة، لا تتورّع عن الحروب اذا دعت الحاجة.

٨٢ لم تكن العلاقات بين الاسبانيّين والگواراني ، أقلّه في البدايات ، عدائيّة أو متوتّرة ، وذلك لمجموعة من الأسباب : فالظروف البيئيّة القاسية ساعدت على خلق نوع من التضامن بين الهنود والإسبان بحيث كانت معاملةُ المستعمِرين للگواراني الذين جُعلوا في خدمتهم – بملء إرادتهم أو مكرَهين – أقربَ إلى حماية الأب لأطفاله منها إلى التسلّط المستبدّ. وكان عدد المستعمِرين والجنود محدودًا – لِما سبق وقلناه من أنّ المهاجرين الأوروبّيين كانوا يصنّفون البرگواي في درجة دون درجة البيرو والپيرو الأعلى – ، لذا باتت أسباب التوتّر الشديد شبه معدومة. كما أنّ الگواراني ، بفضل ما كانوا عليه من حياة قريبة إلى البداوة ، لم يعتادوا التجمّع في مراكز سكنيّة ذات شأن ، وبذلك لم يسهّلوا على المستعمِرين إخضاعهم بالقوّة وتسخيرهم لخدمتهم الشخصيّة. وأخيرًا كان الإسبانيّون يمدّون يد المساعدة للگواراني في مناوشاتهم المستمرّة مع أعدائهم التقليديّين التوپي Tupí في حين كان هؤلاء يلاقون الدعم من البرتغاليين النازلين في البرازيل[١٧].

---

١٧. كان الإسبانيّون القاطنون في منطقة نهر الفضّة يحاولون التمدّد نحو الشرق ، وكان البرتغاليّون في البرازيل يسعون إلى العكس ، ممّا خلق تنافسًا وعداوةً بين الفريقين غالبًا ما أدّيا إلى معارك بالسلاح. ←

٨٣ أمّا بدء تردّي العلاقات بين الإسبان والگواراني فكان في أواخر القرن السادس عشر لمّا انتبه المستعمِرون إلى أنّ إحدى النباتات المحلّيّة، وتدعى الـ «يِرْبا»، يمكن استعمالها لإنتاج «المتّه»، وهو مشروب كثير الرواج في تلك البلاد، شبيه بالشاي. عند ذاك تهافت المهاجرون الجدد ولجأوا إلى «المحصول» على نطاق واسع، ممّا أثار ردّات فعل عنيفة من قِبل السكّان الأصليّين. وكان مِن تدهور العلاقات مع الهنود أن صارت معيشة الإسبانيّين خارج المدن الكبرى خطرة، فتعثّر بالتالي تأسيس المستوطنات نحو الشرق. وبات الهنود من جهتهم أضنّ على أراضيهم وأشدّ مراقبة للمناطق الداخليّة والسبل النهريّة.

٨٤ واتّفق أنّ تباطؤ المستعمِرين في دخولهم الجهاتِ الشرقيّةَ من البرگواي حصل في زمن أضحت السيطرة على المنطقة ضرورةً حيويّة بالنسبة إلى السلطات الإسبانيّة؛ ذلك بأنّ البرتغاليّين النازلين في البرازيل الجنوبيّ ولا سيّما في منطقة ساو پاولو – وهي مدينة نشأت قرب مدرسة ساو پاولو (أي القديس بولس) التي أسّستها الرهبانيّة اليسوعيّة عام ١٥٥٣ – كانوا يهدّدون بالتوسّع، عن طريق نهرَي الپَرَنا الأعلى والأوروگواي، نحو مستعمرة الريو ده لا پلاتا، وتضييق الخناق على البيرو والپيرو الأعلى. وكان الحكّام والأساقفة الإسبانيّون مهتمّين بهذا الواقع، إلاّ أنّهم كانوا في الوقت نفسه غير قادرين على القيام بعمل عسكريّ، فعرضوا على الملك أن تُوكَل المناطق الشرقيّة في البرگواي إلى الرهبانيّات، وقد شُهِد لها بالقدرة على التنظيم والمهارة الدبلوماسيّة في التعامل مع القبائل الهنديّة. وكانت ردّة الفعل الأولى بعض الممانعة بحيث

وكان الدبلوماسيّون من كلا الطرفين يجتهدون في تأويل معاهدة تُورْدِسيلْياس Tordesillas كلٌّ لصالح قومه، ولم تصل المشكلة إلى الحلّ إلاّ بعد عشرات من السنين في أواخر القرن الثامن عشر. – ومن أوائل الذين شعروا في البرازيل بأهمّيّة البرگواي من الناحية الاستراتيجيّة اليسوعيّون. فإنّ الأب مانُويل ده نُوبْرگا de Nobrega مؤسّس إقليم البرازيل في الرهبانيّة اليسوعيّة (١٥٤٩) كان يلحّ لتُطلَق يده في إنشاء رسالات بمنطقة الگُوايْرا Guayra، إلاّ أنّه كان يواجه معارضة ملك البرتغال، وكان يخشى مخالفة أحكام معاهدة تُورْدِسيلْياس بشكلٍ سافر، كما كان يواجه مقاومة رئيس الرهبانيّة اليسوعيّة العامّ. وكان يربط كلَّ مبادرة في الگُوايرا بموافقة المليك المذكور.

رفض مجلس الشؤون الهنديّة، في منتصف القرن السادس عشر، إعطاء الإذن بنقل بعض الآباء اليسوعيّين من البرازيل إلى البرگواي، خاصّةً لأنّهم كانوا من التابعيّة البرتغاليّة؛ بيد أنّ السلطات المركزيّة الإسبانيّة أعطت بعد ذٰلك موافقتَها ومنحت بعض الإجازات.

٨٥ فبالإضافة الى الفَرَنْسيسيّين الذين ركّزنا على أخبارهم في الفصل السابق، أُرسِلَ إلى البرگواي في هٰذا الصدد اليَسوعيّون وأُنيطت بهم مهامّ دينيّة وإداريّة. في سنة ١٥٨٥، ونزولاً عند طلب أسقف تُوكُومان الراهب الدُومِنكيّ فرنثِيسْكُو ده ڤِيكْتُورِيا، وصل إلى المنطقة، قادمَين من البيرو، الأبوان فرنثيسكو أنْكُولُو Angulo وأَلُونْسُو بَرْثانا Barzana ، وفي آب ١٥٨٧ وصل إلى أسُونْثِيُون، في البرگواي بالذات، ثلاثة يسوعيّين آخرين قادمون من البرازيل هم مانُوِيل أُورْتِيگا Ortega البرتغاليّ، وخُوان سَلُوني Saloni الكَتَلُونِيّ، وتوماس فِيلْدس Fields الإيرلنديّ، وفتحوا ديرًا في عاصمة البرگواي وبدأوا بتأسيس مدرسة. وكانت مدريد قد رخّصت لهم في ذٰلك بعد أن حقّق فيليبُّس الثاني الوحدة بين مملكتَي إسبانيا والبرتغال سنة ١٥٨٠، وكانت الحكومة تأمل من ذٰلك الترخيص تخفيف التوتّر بين الدولتين.

من المحتمل أن يكون الرهبان الثلاثة أوّل كهنة أوروبيّين دخلوا منطقة الگوَايرا، إلى الشرق من أسُونثيون، واتّصلوا بالسكّان الأصليّين فيها. ولم يؤسّسوا مراكز إرساليّات ثابتة، بل درجوا على ما أَلِفُوه في إقليمهم بالبرازيل، فأنشأوا إرساليّات متنقّلة إنْ لتكييفها على أفضل وجه مع حياة الكواراني شبه البدويّة، أو ليستطيعوا تبشير أكبر عدد ممكن من الهنود. وكانت الاتّصالات الأُولى هٰذه مرضيةً تبشّر بالخير سواء لليسوعيّين الذين استُقْبِلوا دون أيّة عداوة، أو للگواراني الذين لم يُفْرَض عليهم ضرائب ولا خدمات. ومن الأكيد أنّ أحد الأسباب الأساسيّة لنجاح الآباء الثلاثة كان قدرتهم على التكلّم باللغة المحلّيّة دون اللجوء إلى المترجمين.

٨٦ وعلى عكس ذٰلك لم تكن العلاقات بين اليسوعيّين والجالية الإسبانيّة في أَسُونثِيون على خير ما يُرام. فالمرسَلون كانوا يقاومون نظام «المحصول» بدافع من مبادئهم الخُلُقيّة ولاقتناعهم بأنّه عقبة كأداء دون افتتاح

المنطقة بالطرق السلميّة. لذا كانوا يصرّون على تطبيق قوانين حماية الهنود تطبيقًا لا زَغَل فيه. وسرعان ما وصل التوتّر بين المستعمرين واليسوعيّين إلى حدّ خطير، فارتأت سلطات الرهبانيّة أن تسحب مرسَليها من منطقة البرگواي، ولم تترك في دير أسُونثيون إلاّ الأب فِيلْدس شاهدًا على استمراريّة وجودها هناك. وكانت أسباب هٰذا الانسحاب الظاهر متعدّدة مختلفة: مِن أقربها إلى الواقع الرغبةُ في منع الاختلاف السائد في البرگواي مِن الحصول مع جماعة الإسبانيّين في البيرو حيث كانت «حاضرة» خُولِي تسير بشيء من النجاح نتيجةً لمراعاة مستمرّة للتوازن الدقيق الهشّ في عمليّة التعايش مع الاسبانيّين. أضف إلى ذٰلك أنّ اليسوعيّين شعروا بضرورة كسب المزيد من الوقت لتهيئة دخولهم البرگواي بطرق أكثر دبلوماسيّة، آخذين بعين الاعتبار سائر الخبرات الايجابيّة والسلبيّة التي طرأت عليهم إنْ في خُولي أو في البرگواي نفسه. وكان ثمّة مشكلة أخيرة، خاصّة بالرهبانيّة اليسوعيّة ولكنّها مرتبطة بمصالح سياسيّة دوليّة خطيرة، فَرَضت معالجة الأمر بمزيد من التحرّز، وهٰذه المشكلة نتجت عن تساؤل: هل يُدْرَج البرگواي بشكل نهائيّ في إطار إقليم البيرو اليسوعيّ – وكانت العلاقات مع هٰذا الإقليم صعبة بسبب وعورة سبل الاتّصال به – أم يُناط بالإقليم البرازيليّ؟

٨٧ ذٰلك بأنّ اليسوعيّين، النازلين في منطقة ساو پاولو، كانوا على أشدّ ما يكون الاعتقاد بأنّ البرگواي الشرقيّ هو جزء لا يتجزّأ من البرازيل الجنوبيّ، وأنّ معاهدة تُوردِسِيلْياس Tordesillas تَتْرك مجالاً من عدم الوضوح في تثبيت الحدود بين الأراضي الإسبانيّة والبرتغاليّة في أميركا، ممّا يسمح للبرتغاليّين بالتقدّم نحو الغرب. وفي سنة ١٦٠١ كتب «البرازيليّ» القديم فِيلْدس، من مقرّه في أسُونثيون، إلى الرئيس العامّ على الرهبانيّة طالبًا إيفاد مرسلِين جدد من البرازيل نظرًا لكون المواصلات مع البلد المذكور أسهل منها مع البيرو. وفي سنة ١٦٠٤ تمنّى الرئيس الإقليميّ على البرازيل، الأب إنْياثِيُو تولُوسا Tolosa، أن يُلْحَق البرگواي بإقليم البرازيل، خلافًا لما قُرِّر عام ١٥٨٥ إذ أُتْبِعت منطقة البرگواي بالبيرو. – بيد أنّ كلمة الفصل كانت في النهاية لرئيس الرهبانيّة العامّ، الأب كْلاَوْدِيُو أَكْوافِيڤا Claudio

Acquaviva ، فارتأى حلاً ثالثًا وفي ٩ شباط ١٦٠٤ أسّس إقليم البرَكواي اليسوعيّ مستقلاً عن كِلا البيرو والبرازيل. ولم يكن هذا الإقليم محصورًا في حدود جمهوريّة البرَكواي الحاليّة، بل كان يضمّ ما هو اليوم دُول الأرجنتين والأوروگواي والتشيلي وقسمًا من بوليڤيا والبرازيل. وأوّل رئيس عُيّن له كان دْيِيكُو ده تُورّس بُولّيُو Diego de Torres Bollo وكان قبل ذلك رئيسًا على «حاضرة» خُولي، وعُرِف بروح المبادرة والفعّاليّة. فما عتّم أن فطن لأهمّيّة الشروع الحثيث بعمليّة الوصول إلى الگواراني قبل أن يدركهم البرتغاليّون، وطلب أن يُصار إلى إيفاد عدد من المرسَلين على جناح السرعة لتأسيس بعض «الحواضر» في شرق البرَكواي حيث كانت قبائل من الگواراني تعيش ضمن منطقة تحدّها أحواض نهرَي البَرَنا الأعلى والإگْوَاثُو Iguazú والمجرى الأعلى لنهر الأوروگواي.

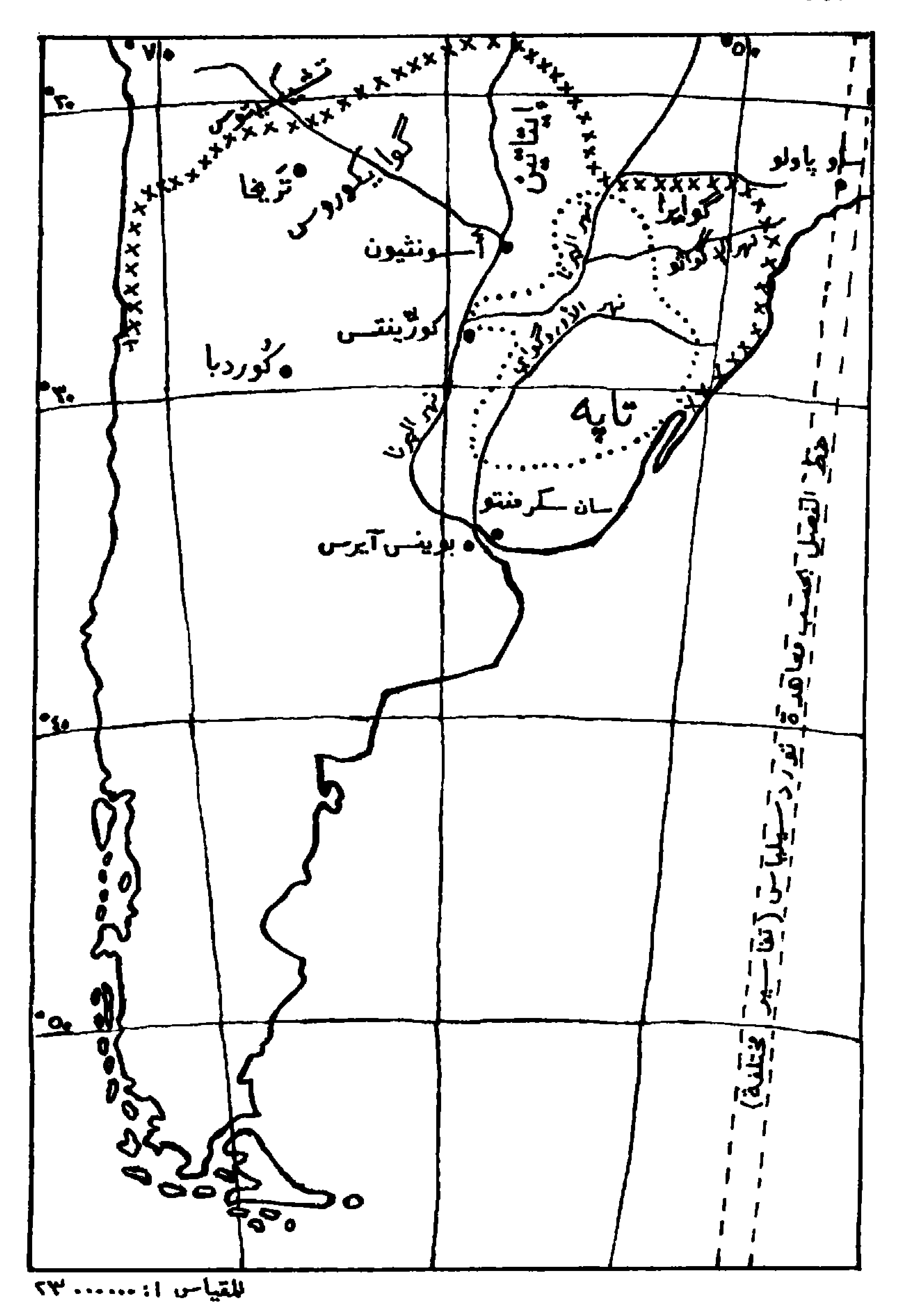
٨٨ وفي السنوات السابقة لذلك مباشرةً، تهيّأت أيضًا الشروط السياسيّة لعودة الرهبانيّة اليسوعيّة إلى البرَكواي بقوّة ملحوظة. فإنّ القيّمَين على الإدارة المحلّيّة الإسبانيّة رَمِيرِث ده ڤِلَسْكُو Ramirez de Velasco وإرْنَنْدُو أرْياس ده سَاَڤِدْرا Hernando Arias de Saavedra اتّخذا في ١٥٩٧ و ١٥٩٨ و ١٦٠٤ عددًا من الإجراءات، المستوحاة من روح العمل الإرساليّ، للدفاع عن الگواراني من ظلم المستعمِرين، منها: إنشاء «الأسبوع القصير» في ما يخصّ العمل، إذ جُعل يوم السبت لتهيئة الهنود الروحيّة ليوم الأحد التالي؛ ومنها إبعاد الأولاد والشيوخ عن السخرة الشخصيّة؛ وحماية وحدة الأسرة من التفكّك بسبب ما يقوم به المحصّلون من تعيينات وتبديلات؛ ومنها أيضًا دراسة أنجع الشروط لاختيار الأماكن التي تقام عليها «الحواضر». يُضاف إلى ذلك ما توصّل إليه مدبّر الرهبانيّة في العاصمة الإسبانيّة – وكان أشبه بسفير لرهبنته لدى البلاط – من الحصول على وعد رسميّ بأنّ الإرساليّات العتيدة في البرَكواي ستُناط مباشرةً بالسلطة الملكيّة – وبالتالي تحظى بالدعم الماليّ – ويمكنها الاستفادة من سائر الضمانات والامتيازات التي خصّصتها المملكة للهنود المهتدين بطريقة سلميّة أو المنتقلين من البداوة إلى حياة الحضر. ومن هذا المنطلق تقرّر أن يكون الگواراني المهتدون على يد اليسوعيّين

والساكنون في «الحواضر» المقبلة مرتبطين ارتباطًا مباشرًا بالمِلِك من حيث تأدية «المحصول»، وكلّ من يحاول الاستثار بهم يُحسَب مِن المذنبين في حقّ المليك نفسه. كما أنّه اتُّفِق على أن يَنعم الهنود بسائر ما يَفيد منه المسيحيّون الجدد كالإعفاء من الضريبة لفترة أُولى مقدارها عشر سنوات.

٨٩ ويمكن القول إنّ ما طلبه اليسوعيّون في هٰذه المرحلة لم يتعدَّ ما نصّ عليه القانون الإسبانيّ، إلاّ أنّهم أرادوا أن يتحقّقوا أنّ هٰذا القانون سيكون مطبّقًا في البِرْگواي البعيد، وكان لهم من قوّة شخصيّة إرْنَنْدُو أرْياس ده سآقدرا خير ضامن لذٰلك. — وغنيّ عن البيان أنّ البلاط الإسبانيّ نفسه كان يأمل من تعاونه مع الرهبانيّة اليسوعيّة الحصول على مكاسب ملموسة: أوّلها اتّساع المناطق المستعمَرة دون اللجوء إلى أعمال عسكريّة مكلفة غير مضمونة النتيجة؛ وثانيها ازدياد عدد الرعايا يواكبه ازدياد في عداد المهتدين إلى المسيحيّة، ممّا يفي بالوعد الذي قُطع للبابا؛ وثالثها ما سيدفعه الگواراني، بعد فترة الإعفاء الأولى، من ضريبة تدخل مباشرةً في صناديق الملك لقاء حمايته لهم؛ وآخرها إقامة حاجز لا بدّ منه في وجه برتغاليّي البرازيل الذين كانوا يواصلون ضغطهم وزحفهم نحو الغرب، إذ لم تحُل الوحدة الجديدة، التي ضمّت إسبانيا والبرتغال، دون استمرار المعاداة بين المملكتين في أوروبّا والمستعمرات.

* * *

٩٠ أخذ اليسوعيّون يستعدّون لاقتحام البِرْگواي مرّةً ثانيةً اقتحامًا سلميًّا، متوجّهين خاصّةً إلى الناحية الشرقيّة المعروفة بـ «الگوايرا»، يشدّد من عزيمتهم تشجيع فيليبّس الثالث — الملك والنائب البابويّ في آن واحد — وحماية الحاكم إرنندو أرياس ده سآقدرا. وكانت أسلحتهم الأساسيّة وعود، سُمِح لهم بقطعها لقبائل الگواراني، بأنّها ستخضع على نحو مباشر لعاهل إسبانيا، مع الإعفاء المؤبّد من الخدمة الشخصيّة الخاصّة والإعفاء المؤقّت من تأدية الضريبة للملك. وأُعلِن التصديق الرسميّ على هٰذه الوعود بقرار ملكيّ صدر في ٤ نيسان ١٦٠٩ يوضح أساليب التطبيق اللاحقة من جهة السلوك والاقتصاد في «الحواضر» المنويّ تأسيسها.



××× إقليم الپركواي اليسوعيّ لدى تأسيسه

... حدود حواضر الپرگواي في النصف الأوّل من القرن الثامن عشر.

٩١ وأرسَل رئيس الرهبانيّة العامّ إلى الأب تُورّس بُولِّيو تعليماته الأولى في شأن المقاييس العامّة الواجب اتّباعها لتنظيم «الحواضر» الجديدة وإدارتها١٨ . وأهمّ المطاليب كانت احترام قوانين حماية الهنود ، وإعادة الشرعيّة حيث انتُهكت حرمتها ، وتأمين التعليم العامّ والتربية الدينيّة للسكّان الأصليّين ، فضلاً عن دفعهم في الوقت نفسه إلى اعتناق حياة الحضر . ولمراقبة سَير العمل وتقويمه فُرض على المرسَلين إقامة لقاء سنويّ في قرية تُجعَل مركزًا إداريًّا ، ومن أهمّ الأمور التي حُدِّد إدراجها في جدول الأعمال تبادل المعلومات والخبرات والآراء ، كما أنّه أُلزِم رئيس «الحواضر» بزيارة سائر الإرساليّات بشكل دوريّ للاطّلاع والتوجيه .

٩٢ ويمكن اعتبار يوم ٢٦ تشرين الثاني ١٦٠٩ يومَ ولادة بادرة اليسوعيّين الدينيّة والإداريّة في البرَكواي . في ذلك التاريخ أصدر النائب العام لحاكم البرَكواي والرِيو ده لاپْلاتا ، القائد پيدْرُو ده أَنْياسْكُو Pedro de Añasco أمرًا يقضي بمنع الإسبانيّين من دخول منطقة نهر البَرَنابَنِيما Paranapanema في الكُوَايرا ومن تسخير الهنود فيها للخدمة الشخصيّة ، خاصًّا عمليّة إخضاعهم برهبانيّة القدّيس إغناطيوس دون سواها . وقد ثُبِّت هذا الأمر ووُسِّعت دائرة مفعوله إلى سائر مناطق البرَكواي ، الموضوعة في عهدة اليسوعيّين ، بتاريخ الأوّل من آب ١٦٢٨ .

---

١٨. كتب الرئيس العامّ الأب كلاوْديُو أَكْوافِيڤا إلى الأب دييكُو ده تُورّس بُولِّيو في ١٠ حزيران ١٦٠٨ منبّهًا إلى تبدية العمل في الإرساليّات على النشاط في الرعايا ، طالبًا أن يُترَك الهنود ، بعد تنشئتهم التنشئة الصالحة ، في عهدة الإكليروس العلمانيّ ، فيتفرّغ المرسَلون إذ ذاك وينصرفوا إلى هداية أقوام جدد من الهنود غير «المتحضّرين» . وبعد تسعة أعوام أكّد الرئيس العامّ التالي مُوتْسِيُو ڤيتِلّسْكي Muzio Vitelleschi هذه التوجيهات مع شيء من التمييع : فالواقع أنّ المرسَلين اليسوعيّين مارسوا العمل في الرعايا طوال قيامهم بنشاط «الحواضر» في البرَكواي ، وهذا ما كان يناقض قوانين القدّيس إغناطيوس التي تحرّم على أبنائه الاضطلاع بمسؤوليّة الرعايا . إلاّ أنّ الأمر عُولج خلال مجمع إقليميّ للرهبانيّة انعقد في مدينة ليما يوم ١٨ آب ١٥٧٦ برئاسة الأب خُوسِيه أَكُوسْتا José Acosta فقرّر المرسَلون «التصرّف بطرق مختلفة على ما تقتضيه الحاجة» نظرًا إلى قلّة الإكليروس العلمانيّ وعدم كفايته . من جهة أخرى ، ولمّا كان اليسوعيّون يبتغون عملاً تبشيريًّا عميق التأثير في الهنود الرُحَّل المدعوّين إلى العيش في «الحواضر» لاحقًا ، توجّب عليهم البقاء معهم لفترات طويلة بحسب ما نصّت عليه التوجيهات التي أصدرها نائب الملك في البيرو لُويس ده ڤِلَسْكُو Luis de Velasco بتاريخ ٢٢ تموز ١٥٩٥ .

٢) «الحواضر» الأولى

٩٣ في نهاية سنة ١٦٠٩ استعان اليسوعيّون ببعض الهنود المتنصّرين وبكاهن قرية ياگُوارون Yaguarón إرْنَنْدُو ده لاكُويڤا Hernando de la Cueva فاتّصلوا بأَرَپِسَنْدُو Arapisandù كبير مقدّمي[١٩] قبائل الگواراني بالمنطقة وأقنعوه بالتفاوَض مع الحاكم إرْنَنْدُو أَرْياس ده سآڤِدْرا في شأن إشاعة السلام ضمن الأراضي الخاضعة لنفوذه. وبعد أن نال المرسَلون هٰذه النتيجة، استطاعوا الولوج إلى المناطق الداخليّة. فبعث الأب تُورِّس بُولْيو رجاله من مدينة أَسُونْثِيُون في اتّجاهات ثلاث: فريق أوّل تقدّم إلى الجنوب نحو نهر البَرَنا الأعلى، على مقربة من منطقة «حواضر» الفرنسيسيّين؛ وفريق ثانٍ اتّجه إلى الشرق نحو الگوايرا حيث تمّت منذ عشرين سنة محاولة اللجوء إلى المرسَلين المتجوِّلين؛ والنواة الثالثة صعدت إلى الشمال باتّجاه منطقة قبائل الگُوايْكُورُوس Guaycurús، واسم المنطقة إيتاتِين Itatín.

٩٤ ولم يكن الحظّ حليف الفريق الأخير – وكان من أعضائه الأبوان ڤِنْثِنْه گْرِيفِّي Griffi ورُوكّه گُونْثالِث González. فالهنود في ناحيتهم كانوا من محبّي الحروب، شديدي التمسّك بحياة البداوة، لا يرضون البتّة الخضوع لعيشة الحضر ونظام اقتصاديّ قوامه الزراعة، فقاوموا بشدّة بالغة مساعي اليسوعيّين واضطرّوهم بعد مدّة وجيزة إلى العزوف عن تبشير الگُوايْكُورُوس وإخضاعهم، مكتفين بإقامة مراكز قليلة مؤقّتة عند بعض قبائل الگواراني.

٩٥ أمّا الفريق الأوّل فكان أسعد حظًّا، إذ اتّصل الأبوان مارْثِيال لُورِنْثانا Marcial Lorenzana وفرَنْثِيسْكُو سان مَرْتِين Francisco San Martín يعاونهما أَرَپِسَنْدُو Arapisandù وسواه من الهنودالمتنصّرين، بعدد من عشائر الگواراني في منطقة البَرَنا الأعلى، وبيّنا لهم حسنات الخضوع الطوعيّ للمملكة القشتاليّة برعاية الرهبانيّة اليسوعيّة، مركّزين على نقطة كان الهنود أشدّ تحمّسًا لها من سواها، هي الإعفاء من «المحصول» الخاصّ. وقد

---

١٩. نعني بالمقدَّم مَن دعاه الإسبانيّون بكلمة «كاسيكِه» Cacique وهو رئيس العشيرة. والعبارة ليست من لغة الگواراني بل من مصدر كرَايِيبيّ. والكلمة الگوارانيّ الحقيقيّة هي «تُوبِيسْيا» Tubiciá.

قيِّض لبراهين اليسوعيّين كامل النجاح إذ ما لبث المرسَلون أن أسّسوا في ٢٩ كانون الأوّل ١٦٠٩ «الحاضِرة» الأولى في ناحية قريبة من ملتقى نهرَي البَرَنا والبرّكواي إلى الجنوب من أَسُونْثِيُون على بعد نحو مائتين وخمسين كيلومترًا من هٰذه المدينة، ودَعوا «الحاضرة» سان إنْيائِيُو – أي القدّيس إغناطيوس –. وقد أُطلق عليها فيمَا بعد اسم سان إنياثيو گُوائُو، أي «الكُبرى» للتمييز بينها وبين «حاضرة» أخرى، أُسِّسَت بعد زمن قصير في مكان آخر، سُمِّيت باسم القدّيس نفسه. وصارت سان إنياثيو گوائُو ومَن فيها من الگواراني المتحرّرين من «المحصول» المرجع والمثال لسائر قبائل الگواراني وعشائرهم، وما عتّم أن جاءها اثنان من كبار القادة، هما أَبَكتُو Abacatù وتَبَكَمْبِي Tabacambi، لتقديم خضوعها. وفي السنة التالية انضمّ إلى الأبوين لورنثانا وسان مرتين زميلها البيرُوفيّ أنطُونيُو رُويث مُونْتُويا Ant. Ruíz Montoya الذي قام في السنوات اللاحقة بنشاط عظيم وأسّس عددًا كبيرًا من «الحواضر»[٢٠]. أمّا الفريق المتبقّي الذي يمَّم شطر الگوايرا، فإنّه ضمَّ إيطاليَّين، دجُوزِبّه كَتَلْدِيني Giuseppe Cataldini وسِيمُونه مَشِتّي Simone Mascetti، فإنّهما اتّجها نحو الشرق إلى ما وراء نهر البَرَنا الأعلى وأسَّسا في تمّوز ١٦١٠ «حاضرة»

٢٠. وُكِلَت إلى الأب رُويث مونتويا سنة ١٦٣٨ مهمّة دبلوماسيّة ذات شأن لدى بلاط مدريد، هي وظيفة «مدبّر» إقليم البرّكواي في الرهبانيّة اليسوعيّة. وفي أثناء الفترة التي أمضاها بالعاصمة الإسبانيّة ألّف كتابًا بعنوان «الفتح الروحيّ» الذي حقّقه الرهبان اليسوعيّون في بلاد البرّكواي والبرنا والأوروكواي والتايه»، نُشر سنة ١٦٣١ وما زال إحدى أهمّ الوثائق لمعرفة تاريخ «الحواضر» الأولى في البرّكواي. وبحسب ما جاء في بعض المصادر، فإنّ «حاضرة» سان إنياثيو گوائو لم تؤسَّس فعلاً إلاّ عام ١٦١١ أو ١٦١٢، وسبب ذٰلك أنّ الأب لورنثانا اقتصر، خلال سنوات عمله الأولى، على الوعظ ولم يؤسِّس «الحاضرة» إلاّ بشكل رمزيّ دون أن ينظّم نواة مدينة حقيقيّة بكلّ معنى الكلمة، يحدوه في ذٰلك صعوبة جمع العدد الكافي من الهنود المستعدّين لاعتناق حياة الحضر. وتكون «الحاضرة» الأولى فعلاً هي «حاضرة» لُورِيتُو Loreto التي وضع أُسسها المرسلان الإيطاليّان كَتَلْدِيني ومشِتّي Cataldini; Mascetti. وممّا يدعم افتراض تأخّر إنشاء حاضرة سان إنياثيو أنّ الرهبان الفرنسيسيّين، الذين كانوا قد أنشأوا «حاضرتين» إلى جنوب أسونثيون، اعترضوا على تأسيس سان إنياثيو گوائو وحاولوا إقناع اليسوعيّين بعدم النزول في منطقتهم. والواقع أنّ «حاضرة» سان إنياثيو الأولى نُقلت بُعيد إنشائها إلى موقع قريب يُدعى يَگْوَآرَمِگْتا Yaguaaramigta – أي «رأس الكلب» بلغة الگواراني –، ثمّ نُقلت مرّةً أخرى واستقرّت بشكل دائم.

لُورِيتُو، وبعدها بقليل «حاضرة» سان إنياثيو المدعوّة «مِنِي» أو «مِري» Mini; Miri أي «الصغرى».

٩٦ وفيمَا كان اليسوعيّون منصرفين إلى تنظيم إرساليّاتهم الجَديدة، أصدرت السلطات الإسبانيّة أولى توجيهاتها لتحديد أسس العلاقات بين «حواضر» رهبانيّتهم والإدارة الحكوميّة وسائر المستعمرات. وكان واضع هٰذه الأسس المفتّش الملكيّ فَرَنْشِسْكُو دِه ألفارُو Fr. de Alfaro، مبعوث محكمة تشاركَس Charcas العليا للتحقيق في أحوال هنود البَرَگواي ومكافحة تجاوزات المستعمِرين. فإنّه عمَّم في ١٢ تشرين الأوّل ١٦١١ مذكّرتين، إحداهما تمتّ إلى العلاقات بين الإسبانيّين وهنود المنطقة، والأخرى خاصّة بالگواراني التابعين لـ«حواضر» اليسوعيّين.

٩٧ أمّا المذكّرة الأولى فإنّها حدَّدت قبل كلّ شيء نظام «المحصول» فأوضحت ضرورة حصره في دفع ضريبة معيّنة، وحرّمت بذٰلك الخدمة الشخصيّة. وحُسِبت قيمة الضريبة هٰذه بغاية الدقّة، كما أنّه وُضِع حدٌّ أدنى للأجور الواجب دفعها للهنود العاملين، عن طريق العقد الطوعيّ، لصالح المستعمِرين. يُضاف إلى ذٰلك أنّ المذكّرة منعت الإسبانيّين من اقتناء العبيد، حتّى إنْ هم حصلوا عليهم بطريقة شرعيّة – إذ كانت قبائل الگُوايْكُورُوس والتُوپي تأسر الهنود من القبائل الأخرى وتبيعهم للأوروبيّين. ثمّ إنّ المذكّرة نفسها نظّمت «الحواضر» عامّة – بما فيها «حواضر» اليسوعيّين – فارضةً أن يكون في كلّ منها كنيسة ومجلس بلديّ شبيه بمجالس الجماعات الإسبانيّة وينعم مثلها بشيء من الاستقلال الإداريّ. وكذٰلك مُنع نقل «الحواضر» بعد تأسيسها، ما لم توافق السلطات الإسبانيّة على ذٰلك؛ كما حُرِّم دخولها على الإسبانيّين والمولّدين والزنوج.

أمّا المذكّرة الثانية، الخاصّة باليسوعيّين، فإنّها أعفت هنود «حواضرهم» من «المحصول» حتى إشعار آخر وإجراء آخر من نائب الملك. وكان هٰذا التدبير في غاية الأهمّيّة بالنسبة إلى الرهبانيّة اليسوعيّة لأنّه خير ما يجذب الگواراني ويجعلهم يرضون عن العيش في «الحواضر».

٩٨ إلاّ أنّ المستعمِرين الإسبانيّين احتجّوا شديد الاحتجاج على هاتين المذكّرتين أمام محكمة تْشاركَس العليا ، وبعد درس الأمر أعلن القضاة عدم صلاحيّتهم للبتّ فيه وأحالوا الدعوى على الإدارة المركزيّة في إسبانيا ؛ وبقيت قرارات ألفارُو سارية المفعول ، في حين تعرّض اليسوعيّون – لِما كان لهم من دور فعّال في بثّ فكرة هٰذه القرارات وتدوينها – لسهام الجماعة الإسبانيّة وعدوانها . وكانت ردّةُ فعل الرهبان الإعلانَ أنّ كلّ من يعصي هاتين المذكّرتين يقترف خطيئة مميتة . ثم ثبّت مجلس الشؤون الهنديّة سنة ١٦١٨ قرارات ألفارو ، مُدخِلاً عليها بعض التعديلات ممّا لا يمسّ بالجوهر والامتيازات المنوطة بـ « حواضر » الرهبانيّة اليسوعيّة .

وبعد صدور هٰذه القرارات تطوّرت « حواضر » اليسوعيّين بشكل ملحوظ ، وتحسّنت العلاقات مع الگواراني بعد أن أصابها بعض الاضطراب على أثر محاولة المستعمِرين تسخير هنود « حاضِرتَيْ » لُورِيتُو وسان إنياثيو مِني ، كما أنّ رجال تَبكَمْبِي ، الذين حاولوا عام ١٦١١ الهجوم على سان إنْياثِيُو گوُاثُو ، ألقوا سلاحهم وبدأوا يتعاونون مع المرسَلين . وكان محرّك هٰذه الانطلاقة ومحورها اثنان : الأب رُويث مونتويا والأب روكِه گونثالث دِه سانتاكْرُوث المولود في البركواي نفسه ؛ وقد عمل الأوّل في ناحية البَرَنا الأعلى والثاني في منطقة نهر الأُورُوگواي الأعلى حيث لم يدخل حتى ذٰلك الوقت أيّ أوروبّي . وثمّة ، في البقعة الممتدّة بين النهرين ، وصلت « دولة » اليسوعيّين في البركواي إلى قمّة نموّها .

٩٩ وأُنشئت في تلك السنوات « حواضر » جديدة . ففي ١٦١٥ تأسّست « حاضرتا » سانْتا آنا وإيتاپُوا Itapúa ؛ وممّا يذكر عن الثانية أنّها صارت فيما بَعد المقرَّ النهائيَّ لِتَبكمبي وقبيلته ، وأنّها نالت شهرةً كبيرةً بسبب غنى تربتها ووفرة مراعيها ، ممّا جعلها تؤمّن اللحوم والحبوب لـ « حواضر » أخرى فتفتَتِح بذٰلك وتساهم في تطوير عمليّة التكامل الاقتصاديّ الذي اتّصفت به مجموعة الإرساليّات اليسوعيّة في البركواي . وقد استُقبِل إرناندو أرياس ده سآفدرا في إيتاپُوا بعد مرور سنة ، واستطاع أن يرسِل في ٢٥ أيّار ١٦١٦ كتابًا الى الملك جاء فيه أنّ تَنظِيم هٰذه الإرساليّة ونشاطها الاقتصاديّ

مكّنا الهنود من بلوغ شأو بعيد في الازدهار، ممّا خوّلهم أن يبيعوا منتوجاتهم الى المستعمرات المجاورة. – وفي سنة ١٦٢٠ أسّس روكّه گونثالث «حاضرة» كُونْثِپْثِيُون Concepcion.

٣) مرحلة التوسّع

١٠٠ في الرابع من تمّوز ١٦٢٦ أصدر فَرَنْثِيسْكُو ده ثِسْپِدِس Fr. de Céspedes حاكم بوينس آيرس، قرارًا ينيط باليسوعيّين دون سواهم مسؤوليّة فتح منطقة مجرى الأوروگواي الأعلى التابعة لإيالته وإخضاعها للمملكة الإسبانيّة والكنيسة. فتكاثرت إذ ذاك «الحواضر» بهمّة روكّه گونثالث والرئيس الإقليميّ الجديد نقولاس مَسْتْرِلّي دُوران N. Mastrelli Durán النابوليتانيّ، وأسّست، بفترة قصيرة، سنة ١٦٢٦، «حاضرتا» سان نِقولاس وسان خَڤِيَر San Javier، وسنة ١٦٢٧ «حاضرة» ياپيُو Yapeyú التي قامت إلى أقصى جنوب بلاد الگواراني على ضفاف نهر الأوروگواي، ممّا أعطاها فيما بعد أهمّيّة خاصّة من الناحيتين التجاريّة والإستراتيجيّة. وفي عام ١٦٢٨ أُنشئت «حاضرتا» كَنْدِلَرِيا Candelaria وتُودُوس لُوس سانْتُوس دِل كَرُو Todos los Santos del Caró التي سُمِّيت فيما بعد «مارتِرِس» Martires أي «الشهداء»، إذ استشهد فيها يوم ١٥ تشرين الثاني من السنة عينها رُوكّه گُونثالث وأخوه بالرهبانيّة أُلونْسُو رُودْرِيگِث Alonso Rodriguez فيما كانا يشيّدان قبّة الكنيسة، وقد لقيا مصرعهما على يد نفر من الهنود بقيادة مقدّمهم كَرُوپيه Carupé وبإيعاز من المقدّم الساحر نِثو Nezú الذي كان يخشى على سطوته من تصاعد نفوذ «السَحَرَة» الجدد بين مواطنيه[٢١].

١٠١ جاء على لسان العلاّمة ماگنُوس مُورْنِر Magnus Moerner الذي أجرى أبحاثًا دقيقةً حول نشاط «الدولة» اليسوعيّة الاقتصاديّ،

---

٢١. في ١٩ أيار ١٩٨٨ أعلن البابا يوحنّا بولس الثاني في مدينة أسُونثيون بالبرگواي قداسة الآباء روكّه گونثالث وأُلونسُو رودريگث، بالإضافة إلى يسوعيّ ثالث هو خُوان دِل كَسْتِيلْيُو Juan del Castillo الذي سيأتي ذكره بعد قليل (المعرّب).

أنّ روكّه گونثالث كان، مع زميله دِيِيگُو ده تُورِّس بُولِيو، أوّل مَن وضع أسس التنظيم الاقتصاديّ الذي اتّصفت به إرساليّات اليسوعيّين في البرگواي. فبفضل مولده في أسونثيون عام ١٥٧٦، كان على معرفة تامّة بأمور المنطقة، مدركًا أنّ بقاء «الحواضر»، بمفردها أو بجملتها، مشترَط بقواعد اقتصاديّة راسخة تحرّرها من الارتباط بعالم الاستعمار. لذا ركّز شديد التركيز على النشاطات الزراعيّة والحِرَفيّة وعلى تربية المواشي. وبفضل معرفته لعوائد الگواراني ولغتهم، كان فعّالاً سبّاقًا إلى إدخال الأساليب العمليّة التي تبنّتها الرهبانيّة اليسوعيّة للتقرّب من الهنود بالطرق الوديّة وتنصيرهم، كالموسيقى، والرقص، وجوقات الغناء، وتعليم الدين المسيحيّ بلغة الگواراني، والرعاية المنظّمة للأولاد، وتلقينهم القراءة والكتابة. وكان يتقن أصول الهندسة والعمارة والنجارة فيكاد يصنع بيديه كل شيء، علمًا أنّ تنظيم العمل المركّز للگواراني البالغين – هذا التنظيم الذي أضحى فيما بعد عنصرًا مميّزًا آخر لـ«حواضر» البرگواي – كان إذذاك في طور البدايات.

١٠٢ وفي إثر مقتل روكّه گونثالث وألونسو رودريگث، حاول نِئُو وكَرُوپيه شنّ حرب شاملة على «الحواضر». فيوم ١٧ تشرين الثاني، بعد ثمانٍ وأربعين ساعةً من موت روكّه گونثالث قُتل مرسَل آخر هو خُوان دِل كستيليو. واقترب مِن حاضرة كندلريا نحو ألف وخمسمائة من الهنود المسلّحين، مهدّدين بالهجوم عليها وتدميرها. فنهض اليسوعيّون دِيِيگُو ده بُورُوا Diego de Boroa وخُوسِيه أوردُونِيِيث José Ordoñez وپيدْرُو رُومِيرُو Pedro Romero وفرنثيسكو كلاڤِيخُو F. Clavijo ونَظّموا الدفاع واستعانوا بضابط برتغاليّ مقيم في البرگواي يُدعى مانُويل كَبْرال Cabral، فما كان منه إلاّ أن جنّد عشرة إسبانيّين من الرماة بالبنادق ومائتين محارب هنديّ من قرية إيتاتي المتنصّرة. وأرسل الرهبان الفرنسيسيّون مِن يُوتِي Yutí وكآثَپا Caazapá مائتين من الگواراني المسلّحين بقيادة فرنثيسكو كَلابُوِي Calabuí. بيد أنّ معظم قوى الدفاع جاءت من استنفار الگواراني في حاضرتَي كُونْثِپْثِيُون، بقيادة المقدّم نقولاس نِينْگِرُو Neenguirú وإيتاپُوا Itapuá، بقيادة سَنْتِيا گو تَبكَمْبِي، ومجمل المجموعتين ألف محارب.

١٠٣ دامت الحرب الصغيرة ما يقارب الشهر ؛ وبعد مناوشات قليلة كان النصرُ فيها حليفَ هنود «الحواضر»، جرت في ٢٥ كانون الأول ١٦٢٨ الموقعة الحاسمة قرب كَنْدِلَريا. فقد حَصَدت بنادقُ كَبْرال وسهام هنود نِينْگِرُو وتبكمبي جموعَ المهاجِمين بعد أن فوجئوا خاصّةً بفعّاليّة الأسلحة الناريّة التي أصابتهم حتّى وراء أغصان الشجر التي اختبأوا فيها. وقُتل كرويپه إبّان المعركة في حين أخلد نِثو إلى الهرب داخل الغابات. ووقع في الأسر عدد كبير من المقاتلين أُحيل اثنا عشر منهم إلى السلطة المدنيّة بتهمة سفك الدماء، علمًا أنّ المرسَلين أقنعوهم قبل ذلك بضرورة التوبة واقتبال المعموديّة ؛ أمّا باقي المحاربين فقد استسلموا. وسارت الأمور على النمط نفسه بالنسبة إلى عشائر كثيرة كانت موزّعة في الغابات، فلحق بها بعض الأسرى المعتقين وأشادوا لها بقدرة الرهبان واستعدادهم للغفران. وكان بين المساهمين المساهمةَ الفعّالة في عمل التهدئة وإحلال السلام نقولاس نينگرو، وقد أَظهر الكثير من الاعتدال والاتّزان، والمقدرة على التوسّط والإقناع، فضلاً عن الهيبة والسلطة المعنويّة اللتين اكتسبهما من جرّاء ما أظهره من شجاعة في القتال ؛ وممّا جاء في رسالة بعث بها آنذاك رئيس اليسوعيّين الإقليميّ إلى رئيسه العامّ الأب مُوتْسِيُو ڤيتلّسكي : «إنّ إليه قبل سواه يعود الفضل في إحلال السلام في سائر «الحواضر»، وذلك بسبب الشجاعة التي أبداها لمّا راح يثأر لموت الشهداء القدّيسين ويجابه ضغوط جحافل الهنود الذين تقاطروا لقتل الآباء المتبقّين في «الحواضر» الأخرى».

* * *

١٠٤ وفيما كان روكّه گونثالث يتقدّم في ناحية نهر الأُوروگواي، كان أنطونيو رُويث مونتويا ينمّي إرساليّات الشمال الشرقيّ في الگوايرا. وكانت هذه البادرة تستجيب قبل كل شيء لضرورة إستراتيجيّة تشعر بها السلطة الإسبانيّة وتحسب لها كلّ الحسابات، ألا وهي حماية تخوم البرگواي الشرقيّة. فراح اليسوعيّون وأصحابهم الگواراني يشقّون ثمّة أولى الطرق التي وصلت أسونثيون، عاصمة البرگواي، بشمال شرق البلاد، فخلقوا بذلك رديفًا للنقل النهريّ

الذي كان محفوفًا بالمخاطر بسبب شدّة انحدار المجاري وكثرة الشلاّلات ووفرة الحيوانات الزحّافة، فضلاً عن الكمائن التي اعتادت قبائل الهنود غير المهادِنة أن تنصبها على جوانب الأنهار.

وفي تمّوز ١٦٢٧، أي بعد ثماني عشرة سنة من النشاط، كان اليسوعيّون قد أسّسوا أربع عشرة «حاضرة» لعدد من السكّان يقارب الثلاثين ألفًا. وبرزت بين هذه «الحواضر» لُوريتو وسان إنياثيومِني (في الگوايرا) فضمّت كلّ منهما ما يربو على الألفي أسرة، وظهرتا بمظهر المدن المنظّمة، وتزيّنتا بكنائس بدت عليها ملامح الإبداع الفنّي، ودبّ فيهما النشاط الاقتصاديّ على أنواعه لا سيّمَا في الحقل الزراعيّ.

* * *

١٠٥ وكان التوسّع نحو الشمال الشرقيّ وأقصى الشمال يصبو إلى هدف آخر توخّاه اليسوعيّون، وهو إبعاد جماعات الگواراني عن مراكز الإسبانيّين الكبيرة قدرَ المستطاع، ليتحاشوا بذلك أسباب النزاع مع المستعمِرين الأوروبيّين الساعين دومًا إلى «محصول» يحصّلونه. وقد نالت هذه «المسيرة نحو الشرق» رضى السلطات الإسبانيّة لأنّها رأت فيها من جهة أُولى حمايةً إستراتيجيّة لمناطق الريو ده لاپلاتا والبرّگواي والپيرو الأعلى، ومن جهة ثانية حائلاً دون ضغوط قوّةٍ مضادّة تندفع من الشرق إلى الغرب بأهداف معاكسة، ألا وهي التوسّع البرتغاليّ، أو بعبارة أصحّ – حسب الاصطلاح السائد آنذاك – البُولُسيّ (نسبةً إلى مدينة «القدّيس بولس»: ساو پاولو).

ذلك بأنّ ناحية ساو پاولو بدأت تشاهد عمليّة ولادة ونموّ للمواطنيّة البرازيليّة مع ما يواكبها من تحسُّسٍ بهويّتها الخاصّة. وكان سكّانها يتميّزون بالتمازج العرقيّ والعنفوان وقدرةٍ على التوسُّع قَلَّ نظيرها (وقد رأينا كيف أنّ المرسَلين اليسوعيّين في إقليم البرازيل كانوا هم أيضًا ينظرون برغبةٍ شديدة إلى منطقة الگوايرا). وتمَّ التمازجُ السكّانيّ المذكور بانصهار عنصرين أساسيّين: أحدهما أوروبّيّ – ومعظمه برتغاليّ – والآخر محلّيّ، من قبائل التوپي؛

ودعي البرازيليّون «مَمَلُوكُوس»، ومعناه بلغة التوپي «المولّدون»، وكان من نتائج هٰذا الاختلاط وهذا التولُّد أَن اتّصف سكّان البرازيل بالقوّة، واستطاع المهاجرون الأوروبّيّون، بفضل مصاهرتهم الهنود، أن يتكيّفوا مع البيئة الحارّة الصعبة ويسيطروا عليها.

١٠٦ وكان الضغط البولُسيّ نحو الغرب يتبع هو أيضًا منطقًا خاصًّا به تُحرّكه دوافع سياسية واقتصاديّة؛ منها في الدرجة الأولى اهتمام السلطات الاستعماريّة البرتغاليّة بالدفاع عن البرازيل الجنوبيّ، وفي الوقت نفسه بتهديد المستوطنات الإسبانيّة في الريو ده لاپلاتا والپيرو الأعلى، وذٰلك نظرًا إلى انعدام الوضوح في الحدود الفاصلة بين المستعمرات البرتغاليّة والإسبانيّة. ثمّ إنّ توجُّهِ المستعمِرين من الشرق إلى الغرب – وما قابله من توجّه من الغرب نحو الشرق – كانا يستندان إلى تقاليد في التجوال والترحال متعاكسة، سارت عليها قبائل التوپي والگواراني متنقّلةً منذ غابر العصور ومتلاقيةً ضمن منطقة واسعة تمتدّ أطرافها إلى حوض الأمازون والپرگواي وسلسلة جبال الپيرو؛ فسَلَكَ البرتغاليّون والإسبانيّون السبيل نفسه، يتحرّكون مدًّا وجزرًا على نحو ما يفعله التوپي والگواراني[٢٢].

---

٢٢. تزعم الأساطير المحلّيّة أنّ أوّل مَن سكن المنطقة الشقيقان توبي وگواراني، جاءا إلى البرازيل بعد عبورهما المحيط. فعاش الأخوان وذووهما فترة من الزمن في تفاهم إلى أن شبّ خلاف بين النساء سببه ببّغاء، فافترقت المجموعتان. وحلّ التوبي في المناطق المحاذية للساحل البرازيليّ، في حين نزل الگواراني في المنطقة القريبة من الريو ده لاپلاتا. واستمرّت العداوة بين القومين على مدى السنين تؤجّج نارها الغزوات المتبادلة فتعيث في البقعة كلّها موتًا ودمارًا.

ومع كرّ الأيّام انقسم كلّ من الفريقين إلى عشائر، قوام كلّ واحدة منها نحو مائة أُسرة. وكانت كلّ عشيرة تنتخب لها مقدَّمًا مطلق السلطان يخضع له الجميع في السلم كما في الحرب. وأضحت المقدَّميّة فيما بعد وراثيّة في أغلب الأحيان، أو أقلّه كان المقدَّم يُختار بينْ نفر ينتمون إلى عدد محصور من العائلات.

وكانت الحروب القبليّة بين التوبي والگواراني لا تُبقي ولا تَذَر، فتُهدَم القرى المهزومة ويُقتل سكّانها؛ وإذا ما بقي بعضهم على قيد الحياة عوملوا بئس المعاملة فسُمِّنوا ومن ثمّ ذُبحوا طقسيًّا وأُكِلوا. ومع مجيء الأوروبّيّين اكتشف التوبي والگواراني أنّه من الأنسب الكفّ عن قتل السجناء وبيعهم في سوق النخاسة.

وإلى جانب هٰذه المظاهر البدائيّة في حياة التوبي والگواراني، كان لهؤلاء القوم مظاهر أخرى تنمّ عن بعض التقدّم، كمثل حبّهم للموسيقى ومعرفتهم لسلّم موسيقيّ مخمَّس الأصوات؛ كما أنّهم لم يكونوا ←

١٠٧ وإن اهتمّ البولسيّون بالمناطق الشرقيّة من الوجهة الاقتصاديّة، فكان ذٰلك بسبب حلمهم الدائم بالوصول إلى كنوز البيرو الأعلى المعدنيّة، وخاصّةً بسبب رغبتهم في الحصول على الرقيق الهنديّ، وكانت تجارته رائجة كلّ الرواج في البرازيل. فقد بدأ «المَمَلُوكُوس» يشنّون الغزوات على القبائل البدويّة أو شبه البدويّة المنتشرة حول ساو پاولو، ثمّ سارعوا إلى شقّ طريقهم نحو الشرق لغزو قبائل الگواراني فتغلّبوا عليها بسهولة، وكانت زُمَرهم تعود إلى ساو پاولو بعد حملاتها وقد غنمت سبيًا وفيرًا.

نحو سنة ١٦٢٠ شرع البولسيّون، يساندهم أعوان من التوپي، بالهجوم على «حواضر» اليسوعيّين في الگوايرا بعد أن تبيّن لهم أنّها منجم ثمين للعبيد: ذٰلك بأنّ الگواراني المتحضّرين في الإرساليّات كانوا، خلافًا للقبائل البدويّة أو شبه البدويّة المنتشرة في الغابات والبراري، مجمَّعين في بقع محدودة الأطراف ممّا يسهّل الاستيلاء عليهم بجملتهم ونقلهم إلى البرازيل. فحصلت بالتالي أُولى التصادمات بين «المَمَلُوكُوس» وهنود «الحواضر». وبعد المفاجآت الأُولى التي كلّفت اليسوعيّين والگواراني العديد من الضحايا بين قتيل ومسترَقّ، فضلاً عن الأضرار المادّيّة الجسيمة، بدأت الإرساليّات تنظّم دفاعها المسلّح. وفي ١٦٢٨ سمح الرئيس الإقليمي لـ «حواضر» بالتسلّح لا بالمقاليع والقسيّ والسهام وحدها، بل بالأسلحة الناريّة أيضًا، على الرغم من معارضة حاكم

من عَبَدَة الأوثان على شاكلة أغلبيّة البدائيّين، بل يبدو أنّهم توصّلوا إلى تكوين مفهوم غامض للإله الواحد. إلاّ أنّ هٰذه المسألة تستوجب المزيد من البحث والتدقيق. ففي حين أكّدت تقارير المرسَلين بلوغ الگواراني إلى هٰذا المفهوم للإله، رأى ألفريد مِترو Métraux، وهو أحد أعلم خبراء حضارة التوپي والگواراني، أنّه من المجازفة القول بهٰذا المذهب. فالظاهر أنّ اسم تُوپا Tupá أو تُوپان Tupan، الذي تبنّاه المرسَلون للتعبير بلغة الگواراني عن مفهوم الإله القادر على كلّ شيء، قد استعاروه على عَجَل، ولانعدام ما هو أصلح منه، مِن اسم اله كان الگواراني ينسبون إليه القدرة على تفجير البروق والرعود. ولمّا وصل اليسوعيّون إلى البرگواي كان الگواراني قد تلقّوا، من خلال تبشير كاهن غير كفوء، بعض المبادئ المسيحيّة دمجوها بأساطيرهم. لذا وجد اليسوعيّون أنفسهم أمام ثقافة محلّيّة لم تخلُ من بعض التأثيرات الأوروبّيّة، ممّا يبرّر قولهم بوحدانيّة ديانة الگواراني.

أمّا بالنسبة الى المظهر الخارجيّ، فالتوپي والگواراني – على ما وصفهم في القرن السابع عشر عالِم الطبيعيّات اليسوعيّ سانْتشِث لَبْرادُور Sanchez Labrador – لهم أجسام قويّة، وقامات متناسبة، وشعر أملس أغلب ما يكون أسود، وعيونهم صغيرة تشعّ فطنةً.

البرگواي لُويس ده ثِسْپِدِس Luís de Céspedes الذي تذرّع بقوانين المستعمرات وهي تحرّم على الهنود استعمال هٰذا النوع من الأسلحة.

١٠٨ إلاّ أنّه مضى فترة من الزمن قبل أن يصبح الدفاع عن «الحواضر» كافيًا لصدّ هجمات زُمر البولسيّين، وكان هؤلاء يوالون غزواتهم بتواتر متزايد مكبّدين الإرساليّات خسائر فادحة ومبيدين الهنود شرّ إبادة. ويفيد تقرير أرسله حاكم بوينس آيرس في ١٦ أيلول ١٦٣٩ إلى ملك إسبانيا أنّه في الفترة الواقعة بين ١٦١٢ و ١٦٣٩ أسر «المملوكوس» في الأراضي الإسبانيّة ما يربو على ثلاثين ألف هنديّ، وقد خسرت الإرساليّات اليسوعيّة بين ١٦٢٨ و ١٦٣٠ ما لا يقلّ عن ستّين ألف متنصّرٍ جديد. وبات اليسوعيّون يستنجدون السلطات الإسبانيّة دون جدوى، إن لرداءة التنظيم العسكريّ في المستعمرات الإسبانيّة، أو لعدم اهتمام الأوروبيّين بمصير الگواراني. وكذٰلك لم تُفلح المداخلات لدى السلطات البرتغاليّة سواء من جانب اليسوعيّين في البرازيل أو من جهة دبلوماسيي مدريد. فالجماعات البرتغاليّة القاطنة عبر البحار في البرازيل كانت، شأنها شأن الجماعات الإسبانيّة المستعمرة، في طريقها إلى التمتّع باستقلال فعليّ كبير، ولم يكن من السهل على السلطات ضبطها، فضلاً عن أنّ هٰذه السلطات كانت في الحقيقة راضيةً عن التسلّلات داخل المناطق الغربيّة. ثمّ إنّ احتجاجات نائب الملك وحكّام المقاطعات الإسبانيّة لدى البلاط لم تُسفر عن نتائج ملموسة، إذ ضاعت الشكاوى في متاهات الدوائر الحكوميّة ومناقشات اللجان المشتركة. ونادرًا ما طلبت السلطات البرتغاليّة إلى رؤساء الزمر الغازية أن يؤدّوا حسابًا عن تصرّفاتهم، وإنْ هي فعلت، فدون نتائج تُذكَر.

١٠٩ ولئن كانت لامبالاة السلطات البرتغاليّة بمصير «الحواضر» تدخل في باب المعقول، فجمود السلطات الإسبانيّة يستوجب التفسير. لا شكَّ أنّ القوى العسكريّة التي كانت في تصرّف حكّام مستعمرات جنوب اميركا الشاسعة كانت قليلة، تكاد لا تكفي لضبط القبائل الهنديّة التي لم تؤدِّ الخضوع بعد: فثمّة إذًا سبب «فنّيّ» لعدم التدخّل. إلاّ أنّ السبب الأساسيّ – فيما يخصّ البرگواي – يعود إلى العداوة التي كان يضمرها القسم

الأكبر من السكّان المتحدّرين من أصل إسبانيّ لليسوعيّين ونشاطهم في «الحواضر» وجماعاتهم الهنديّة المعفاة من الخدمة الشخصيّة ؛ فكانوا بالتالي يؤمّلون خراب «الحواضر» السريع ، حتّى على يد البرازيليّين ، ليتاح لهم تسخير جميع أمّة الگواراني لمآربهم . ولا بدّ أن يكون موقف جماعة المستعمِرين هٰذا قد انعكس على تصرّف موظّفي الحكومة ومسؤولي قوى الأمن ومَن لفَّ لفَّهم .

١١٠ وهاجم البرازيليّون «حواضر» الگوايرا واحدةً واحدةً ودمّروها . وفي سنة ١٦٣١ اضطُرَّ أهالي «الحاضرتين» الأخيرتين المتبقّيتين في المنطقة ، وهما لُورِيتُو وسان إنياثيو مِني ، إلى الرحيل بعيدًا جدًّا باتّجاه الجنوب الغربيّ للاحتماء من هجمات زمر البولسيّين . وهٰكذا انتهت بشكل مأسويّ مسيرة اليسوعيّين العظيمة نحو الشمال الشرقيّ . وتمّت الهجرة بقيادة الأب رُويِث مُونتُويا وفي ظروف شاقّة للغاية : فقد انطلق اثنا عشر ألفًا من الگواراني ولم يصل منهم إلى الأماكن المعدّة لاستيطانهم الجديد سوى أربعة آلاف . أمّا الباقون فإنّهم قضوا في الطريق أو أحجموا عن متابعة السير فتبدّدوا[٢٣] .

١١١ وخلافًا للمتوقّع ، لم تتحمَّس لهٰذا الرحيل الجماعات الإسبانيّة المجاورة ، لأنّ «المحصول» الشخصيّ كان ساري المفعول في لُوريتو وسان إنياثيو مِني ، على عكس ما درج في سائر «حواضر» البَرَكواي ؛ ثمّ إنّ ابتِعاد الإرساليّتين أزال الحماية من جهة الشرق . والواقع أنَّ اليسوعيّين بذلوا جهودًا غير يسيرة للحصول من الحاكم على الإذن بالانتقال ، وكان هٰذا الإذن ضروريًّا بموجب قرارات أَلْفارُو . وقد تأكّدت في السنة المقبلة مخاوف الإسبانيّين بالنسبة إلى تضاؤل دفاع الگوايرا ، فإنّ تجريدةً من البرازيليّين اجتاحت المنطقة وهدّدت بشكل خطير مدنًا اسبانيّةً ثلاثًا هي : ڤِلياريكا وثِيُوداد رِيال وسانْتِياگو ممّا اضطرّ أهلها إلى تركها والانتقال نحو الغرب . وهٰذه المرّة انتهت مسيرة إسبانيا نفسها لجهة الشمال الشرقيّ .

٢٣. روى رويث مونتويا أنّ الهاربين ابتنوا على جناح السرعة سبعمائة مركب ، بالإضافة إلى زوارقهم العاديّة ، وساروا في النهر يومين كاملين ثمّ في اليابسة ثمانية أيّام .

١١٢ ولمّا فرغ البولسيّون من نهب الگوايرا، وجّهوا أنظارهم الى جنوب شرق البرگواي، الى التاپه، حيث أسّس اليسوعيّون عشر «حواضر» ونيّفًا، ونكّلوا بجماعات الگواراني واقتادوا مَن نجا منهم مكبّلين إلى ساو پاولو؛ فترك اليسوعيّون التاپه كما سبق لهم أن تركوا الگوايرا. ثمّ عاود «المملوكوس» الكرّة واجتاحوا منطقة «الحواضر» الشماليّة، الإيتاتِين، حيث أنشأ اليسوعيّون أربع إرساليّات بين الگواراني، وغزوا ثلاثًا منها ودمّروها. إلاّ أنّ الرهبان لم يتخلّوا عن الإيتاتين لأن السلطات الإسبانيّة اعتبرتها منطقة إستراتيجيّة بالغة الأهمّيّة تحكم الطريق إلى البيرو الأعلى وتُعدُّ السدّ الوحيد في وجه توسّع البرتغاليّين إلى قلب تلك المستعمرة.

* * *

١١٣ في السنوات ١٦٣٥ إلى ١٦٣٧، حيث كان البولُسيّ أنْطُونيُو رَپُوسُو تڤارِس Ant. Raposo Tavares ينظّم أهمّ التجريدات في تاريخ المنطقة، بدأ اليسوعيّون يستخلصون العِبَر. فقد نهب لهم البرازيليّون ودمّروا أكثر من ثلاثين «حاضرة»: أربع عشرة في الگوايرا، إثنتا عشرة في التاپه، ثلاثًا في الإيتاتين، إثنتين في ناحية نهر الأوروگواي؛ عشرات الألوف من الهنود قُتلوا أو تعرّضوا للسبي؛ البقيّة الباقية من الگواراني منهارة المعنويّات، تهدّد بالعودة إلى حياة البداوة في الغابات حيث تشعر ببعض الأمان. لكأنّ «حواضر» الگواراني باتت على وشك الفناء.

فقرَّر المرسَلون أنّه على «الحواضر»، إن هي أرادت البقاء، أن تسعى إلى الاكتفاء الذاتيّ في الدفاع العسكريّ كما توصّلت إلى الاكتفاء الذاتيّ على الصعيد الاقتصاديّ. ولمّا كان الشرع الإسبانيّ يمنع الهنود من استعمال الأسلحة الناريّة، فلا بدّ من إعادة النظر فيه، ولو استحال ذلك فلا بأس مِن تجاهله. وقد سبق سنة ١٦٢٨ أن «تناسي» رئيس اليسوعيّين الإقليميّ توجيهات الحكومة لمّا مسَّت الحاجة إلى تنظيم أوّل دفاع مسلّح للگوايرا، غير أنّ تلك البادرة بقيت محدودةً، بِنْتَ ساعتها، بعيدةً عن كلّ دعاوة. أمّا الآن فالمطلوب العمل المكشوف العلنيّ، وتنظيم جيشٍ گواراني بكلّ معنى الكلمة،

والحصول على الاعتراف الرسميّ به. وما كان من الرئيس الإقليميّ آنذاك، الأب دِيِيگو دِه بُورُوا، أن خطا الخطوة الحاسمة وأمر بإنشاء فصائل من الگواراني مسلّحَةً بالبنادق. وفي حين كان حاكم بوينس آيرس، پيدْرُو إسْطِيان ده أڤيلا يتردّد في تأمين الأسلحة الناريّة لهنود «الحواضر»، أعطى الأب بُورُوا معاونيه الأمر بشراء «سائر ما يرونه ضروريًا لمواجهة الحرب»؛ وفُوِّض إلى الأب فرنثيسكو دِياث تانِيو Fr. Diaz Taño مسؤوليّة تنسيق الأعمال العسكريّة في «الحواضر»، كما اهتمّ اثنان من الإخوة المساعدين، أنْطونيو بِرنال Ant. Bernal وخُوان ده كاردِنَس Juan de Cárdenas، وكانا سابقًا في سلك الجنديّة، بالحصول على البنادق وتدريب الگواراني على استعمالها. وبُوشِر أيضًا بصنع نوع بدائيّ من هٰذه الأسلحة في «الحواضر» نفسها.

١١٤ وأُرسِل الأب رويث مونتويا إلى إسبانيا عام ١٦٣٨ ليدعم لدى البلاط قضيّة تسليح الإرساليّات. ومع أنّه ركّز على الترابط الوثيق بين سلامة «الحواضر» والدفاع عن مستوطنات الريو ده لاپلاتا والپيرو الأعلى، فإنّ البلاط كان متردّدًا وترك القرار لنائب الملك في ليما؛ وعلى كلّ حال كانت هٰذه المرّة الأُولى التي لم يواجَه فيها مثلُ ذاك الطلب برفض مبدئيّ. وخلال السنة عينها نَفّذت ميليشيات الگواراني أوّل مهمّة رسميّة لها، بأمر من حاكم بوينس آيرس الجديد مِينْدُو ده لاكُوِيڤا إي بِنَڤِيدِس Mendo de la Cueva y Benavides، فقد دعاها إلى المساهمة، بصفة فصائل أنصار، في دعم القوّات النظاميّة الإسبانيّة إبّان حملة تأديبيّة شنّتها على قبائل هنديّة معادية كانت اقتحمت مدينتَي كُورِّينْتِس Corrientes وسانْتا فِيه Santa Fé.

١١٥ وفي العام التالي حصلت أوّل موقعة هامّة بين جيش الگواراني و«المَمَلوكوس». فإنّ تجريدة ضمّت برازيليّين وأنصارًا لهم من التوپي اجتاحت التاپه ومنطقة الأوروگواي الأعلى واقتربت من «الحواضر». فهبّت كتيبة من الگواراني بقيادة الأب دِيِيگو ده ألْفارو Diego de Alfaro، ابن المفتّش الملكيّ الذي أصدر مذكّرتي سنة ١٦١١، وواجهت العدوّ في ناحية كاآپَثا گُواثُو Caapaza Guazù فصدّته وهزمته على مشهد من كتيبة إسبانيّة أرسلها حاكم البرگواي للنجدة فتملّكها الدهش لا سيّما أنّها لم تجسر

أو لم تُرد التدخّل في المعركة. وأُسِر عدد من البولسيّين، مِن ضِمنهم قائد الحملة، سلّمهم الگوارانى إلى السلطات الإسبانيّة التي أطلقت سراحهم بعد فترة من الوقت. ولقي دييگو ده ألفارو مصرعه في ساحة القتال وقد شارك في المعركة بنفسه.

بعد موقعة كآپثا نعمت «الحواضر» بسنتي سلام لسببين اثنين: أوّلها اهتمام البرازيليّين بتنظيم قوّة عسكريّة قادرة على كسر شوكة مقاومة اليسوعيّين غير المنتظرة؛ وثانيهما تحوّل خيرة المحاربين البولسيّين إلى شمال شرق البرازيل للدفاع عن مدينة پرْنَمْبُوكُو Pernambuco المهدّدة بهجوم من الهولنديّين.

١١٦ وفي سنة ١٦٤١ جهّز مانُويل پيرِس Manoel Pires تجريدةً سلّم قيادتها إلى جيرُونِمو پدْرُوسُو ده بارُّوس Jerônimo Pedroso de Barros كانت بالحقيقة جيشًا عرمرمًا قوامه نحو خمسمائة «مملوكوس» وألفان وخمسمائة من الأنصار التوپي جاءوا في حوالى تسعمائة زورق مزوّدين بالأسلحة الثقيلة الفتّاكة. وكان هدفهم توجيه ضربة قاضية إلى سائر «الحواضر» المتبقّية في الأوروگواي الأعلى، وبذلك محو الوجود الإسبانيّ فيه؛ علمًا أنّه اندلعت، في السنة السابقة، الحرب التي كان من نتائجها تحرير البرتغال من خضوعه لشخص ملك إسبانيا، والتي جعلت البرتغاليّين في البرازيل يرون وكأنّه من واجبهم الوطنيّ محاربة المستعمرات الإسبانيّة.

١١٧ وعليه فقد سلكت الحملة طريق نهر الأوروگواي واقتربت من الإرساليّات، إلاّ أنّ جواسيس «الحواضر» رصدوا هذه التحرّكات وسارعوا إلى إعلام جيشهم بقدوم التجريدة. وكانت ميليشيات الگوارانى قد أصبحت بمرور الوقت قوّة عسكريّة لا يستهان بها، خضعت لتدريب صارم وزُوِّدت بمزيد من الأسلحة الناريّة، لا سيّما أن الحكومة الإسبانيّة رجعت عن موقفها السلبيّ بالنسبة إلى تسليح الهنود وأوكلت البتّ في القضيّة إلى نائب الملك في ليما، وكان أوفر منها تحسّسًا للأمور.

١١٨ وكان الگوارانى، بعد انتصارهم في كآپثا گواثو يتطلّعون بكثير من اللهفة والحماسة إلى الثأر من «المملوكوس» ومن أعدائهم التقليديّين التوپي، موقنين أنّهم، إن هزموا البرازيليّين هزيمةً نكراء، فسوف يؤدّي ذلك

إلى ردع المعتدين ردعًا نهائيًّا. لذا كان الزمن مؤاتيًا للگواراني، ومعنويّاتُهم عالية. وكان جيشهم يضمّ أربعة آلاف رجل برئاسة «المقدَّم» دُونْ نقولاس نِينْگِرُو، قائد القوّات البرّيّة الشجاع المحنّك، و«المقدّم» دون إِنْياثِيُو أَبيارُو Abiarú، قائد القوّات النهريّة الماهر. فانتظروا التجريدة المهاجمة عند ملتقى نهرَي الإِمْبُورُورِه Mbororé والأوروگواي. ولمّا وصلت عمارة العدوّ في ١١ آذار ١٦٤١، فوجئ البولسيّون بهجوم خاطف عنيف شنّه الگواراني ملتفّين بخفّة في ثمانين من زوارقهم حول قوارب البرازيليّين الثقيلة، مُمطِرينهم بوابل من الرصاص أطلقوه من ثلثمائة بندقيّة ومدفع واحد بدائيّ صغير. وإذ رأى رجال التجريدة ما حلّ بهم، لا سيّما أنّ ثلاثة من قواربهم قد أُغرقت، حاولوا إعادة تنظيم صفوفهم على اليابسة. وثمّة كان القائد نينگرو ومحاربوه بانتظارهم، فقتلوا منهم عددًا كبيرًا. وسعى الباقون إلى النجاة على طول ضفاف النهر، والتمسوا هدنةً رفَضَها خصومُهم، فظلّت المعركة تدور رحاها إلى أن كُتب النصر للگواراني بعد أن كبّدوا أعداءهم المزيد من الخسائر. وكانت حصيلة الموقعة ألفين من القتلى بين «المملوكوس» وأنصارهم التوپي، وغنم المنتصرون ستمائة زورق وما يربو على أربعمائة بندقيّة من شتّى المقاييس.

١١٩ وإن نحن أخذنا بعين الاعتبار أنّ الجيوش التي غيّرت وجه القارّة الأميركيّة الجنوبيّة خلال القرن السادس عشر كانت محدودة العدّة والعتاد، فلن نبالغ إذا ما قلنا إنّ معركة إِمْبُورُورِه كان لها أهمّيّة عظيمة بالنسبة إلى مستقبل أميركا الجنوبيّة. فلو اختلفت نتيجتها لتبدّل مجرى تاريخ منطقة الريو ده لاپلاتا تبدّلاً ملموسًا، ولأَوغل البرتغاليّون في عمق الممتلكات الإسبانيّة مندفعين جهةَ الپيرو وقاطعين سائر طرق المواصلات بين هٰذه المنطقة وبوينس آيرس.

وبعد الهزيمة التي مُني بها البولسيّون في إمبورورِه، لم يعاودوا البتّة شنّ الهجمات القويّة على «الحواضر»؛ إلاّ أنّهم ظلّوا يقومون بغزوات سريعة جرت أَهمُّها في ١٦٤٨ و ١٦٥١ و ١٦٥٦. ممّا اضطرّ اليسوعيين والگواراني إلى الاحتفاظ بقوّة مسلّحة دائمة الجاهزيّة لتأمين حماية القرى ومزارعها ومراعيها.

١٢٠ ومن نتائج انتصار الگواراني في إمْبورُوره أنّ السلطات الإسبانيّة زادت من التزامها ، وبشكل أوضح ، إلى جانب «الدولة» اليسوعيّة . فقد سمح نائب الملك في ليما ، عبرَ قرار صدر في ٢٣ آذار ١٦٤٥ ، بمنح «الحواضر» مائة وخمسين بندقيّة ؛ وتفيدنا رسالة بعث بها رُوِيث مُونتويا إلى الملك في ٣١ تمّوز ١٦٤٩ أَنّ الإرساليّات حصلت حتّى ذٰلك التاريخ على نحو ستّمائة قطعة من السلاح الناريّ . وهٰكذا استطاع اليسوعيّون أخيرًا مباشرةَ المرحلة الثانية من مغامرتهم في البرِگواي ضمن حدود آمنة رسمتها لهم ثلاثون سنة من الخبرة ، وقد بقيت هٰذه الحدود ثابتةً حتّى ١٧٥٠ ، وهي سنة المعاهدة الإسبانيّة البرتغاليّة التي بدّلت أوضاع المستعمرات بتبديل تخومها . وفي منتصف القرن السابع عشر كان هنالك اثنتان وعشرون «حاضرة» مزدهرة ، أُضيف إليها بين ١٦٨٧ و١٧٠٧ ثمانٍ أُخرى ؛ وقد عُرِف مجموع هٰذه «الحواضر» بـ «دولة» اليسوعيّين في البرِگواي .

٤. «الحواضر» في منتصف القرن السابع عشر

١٢١ بفضل انتصار قوى الگواراني عند نهر الإمْبوروره توقّفت الهجمات التي هدّدت بشكل خطير حياة «الحواضر» ووجودها ؛ إلاّ أنّ مسيرة هٰذه القرى ظلّت عرضةً لشراكٍ نَصَبها لها العديد من الأخصام . وفي طليعة هؤلاء قام البرتغاليّون . فإنّهم ، بعد تحرُّرهم سنة ١٦٤٠ من العلاقة التي كانت تربطهم بشخص ملك إسبانيا ، راحوا يعلّلون النفس بالحلول محلّ الإسبانيّين في البرِگواي والريو ده لاپلاتا ومناطق المناجم في البيرو الأعلى . وتابعوا تنظيم التجريدات ، واستطاع رَپُوسُو تَڤارِس عام ١٦٤٨ أن يغزو بصورة جزئيّة إحدى «الحواضر» في الإيتاتين ويسبي عددًا من سكّانها .

١٢٢ وكان ثمّة خطرُ جماعات الإسبانيّين والمولَّدين . فإنّهم ما برحوا يحاولون حينًا بعد حين طَرْدَ اليسوعيّين من «الحواضر» وتسخير سكّانها من الگواراني لـ «محصول» . وأبلغُ مثال على ذٰلك «مساعدتُهم» المزعومة لـ «حاضرة» إيتاتين لمّا تعرّض لها رپُوسو تڤارس سنة ١٦٤٨ : فما إن انتشر خبر اقتراب تجريدة البولسيّين حتّى انطلقت من أسُونثيون كتيبة من الحرس

الوطنيّ لمساندة الإرساليّة ، ثمَّ... انصرفت إلى نهب الإرساليّة نفسها وطردت منها اليسوعيّين لتستبدلهم بكهنة علمانيّين ؛ أمّا مَن استطاع مِن الگواراني الإفلات من يد تقارس ، فقد وقع في قبضة «المحصِّلين».

١٢٣ إلى جانب ذٰلك كانت قبائل الگُوايْكُورُوس والتُوپِي تهاجم الفينةَ بعد الفينة وعلى حين غرَّة القرى أو المزارع ، الإسبانيّة منها والگواراني ، فتسبي البشر وتغنم الأنعام . وانتهى الأمر بحاكم بوينس آيرس ، مانُويل دِه پْرادُو مَلْدُونادُو أن جهّز لمحاربتهم ، سنة ١٧٠١ ، حملةً عسكريّةً واسعة النطاق طُلب من هنود «الحواضر» المشاركةُ فيها برجالهم وعتادهم.

١٢٤ أَضف إلى سائر أولئك الأخصام خصمٌ أخير لم يَلِن عُودُه وإن لم يُظهر عداءه بشكل سافر ، هو الإكليروس العلمانيّ في البَرَگواي . فإنّه كان ينظر بعين الحسد إلى ازدهار الإرساليّات اليسوعيّة الاقتصاديّ ، لا سيّما أنّ الجماعات الهنديّة التابعة للرهبان الآخرين ، والفرنسيسيّين منهم بوجه خاصّ ، كانت تعيش في شيء من الفقر بسبب خضوع أعضائها لتسخير «المحصِّلين» ، وبالتالي عدمِ توفُّر الوقت لديهم للعمل في الإرساليّات . إلاّ أنّ الدافع الأهمّ لإثارة حفيظة السلطات الكنسيّة على اليسوعيّين كان إعفاء حواضرهم مِن أداء العُشر ، نتيجةً لرعاية المَلِك المباشرة لها . وانفجر الوضع بعنف منقطع النظير حوالى منتصف القرن السابع عشر ، عندما حصل حادث خطير بين الرهبانيّة اليسوعيّة وأسقف أَسونثيون ، بِرْنَرْدِينُو دِه كارْدِنَس Bernardino de Cardenas ، وهو راهب فرنسيسيّ فريد النوع ، قويُّ الشخصيّة جدًّا ، سبق له أن مارس النشاط الإرساليّ بهمّة لا تعرف الكلل ولا الملل.

١٢٥ عُيِّن كارْدِنَس أسقفًا لأَسُونثيون سنة ١٦٤٢ وله من العمر ثلاثة وستّون عامًا . وكان من الاستعجال لتسلُّم مهامّه الجديدة بحيث لم ينتظر وصول براءة التثبيت البابويّة من روما ليتقبّل التكريس الأسقفيّ ؛ فسارع آباء مدرسة اليسوعيّين في أسونثيون إلى إبراز عدم قانونيّة هٰذا التكريس . إلاّ أنّ احتجاجهم لم يؤدِّ في ساعته إلى عواقب عمليّة ، ولم يتّخذ كارْدِنَس من أصحابه موقفًا معاديًا ، أو أقلّه عَرَفَ كيف يخفي نقمته . وفي إثر زيارته لبعض «الحواضر» سنة ١٦٤٤ ، أَرسل إلى مدريد تقريرًا أطرأ فيه عمل المرسَلين ،

مركّزًا بنوع خاص على مساهمتهم في حفظ البيرو الأعلى من تسلّل البرتغاليّين، وموصيًا بإرسال المزيد من اليسوعيّين من إسبانيا.

١٢٦ بيد أنّ الأسقف الجديد ما لبث أن دخل في خصام مع حاكم أسونثيون الإسبانيّ، گريگوريُو ده إنُوسْتْرُوسا Gregorio de Hinostrosa ؛ ولمّا كان اليسوعيّون على علاقات طيّبة مع هذا الحاكم، إذا بهم يتورّطون شبه مُكْرَهين في الخلاف القائم. كما أنّ خلافًا آخر نشب بين آباء مدرستهم في عاصمة البرگواي والمطران كاردِنَس لأسباب تافهة قوامها تنازُعٌ على عقار زراعيّ يخصّ المدرسة ويرنو إليه المطران. فما كان من الأسقف الغضوب إلاّ أن ثار ثائره، وشرع يهدّد اليسوعيّين بشكل علنيّ، ويلوّح بإمكانيّة طردهم من «الحواضر» على أن يُستبدَلوا بالرهبان الفرنسيسيّين والكهنة العلمانيّين، ويوغر صدور المولَّدين فيحثّهم على نهب مدرستهم. وأثارت تصرّفات كاردِنَس مخاوف إنُوسْتْرُوسا على الأمن وعلى ذاته، فطلب إلى رئيس «الحواضر» اليسوعيّة نجدةً عسكريّة وصلته دون إبطاء؛ وكانت هذه المرّة الأولى التي استُعملت فيها قوّاتُ الگواراني المسلّحة في مهمّة أمنيّة داخل مدينة أغلبيّةُ سكّانها مِن الإسبانيّين، ممّا صعّد الأزمة الراهنة بين اليسوعيّين والمستعمِرين.

١٢٧ واستطاع إنُوسْتْرُوسا، بمساعدة الجنود الگواراني، إعادة الهدوء والنظام إلى مدينته، وشَجّع – إنْ لم نَقُل أَجْبَر – المجلسَ الإبْرَشيَّ في أسونثيون على إعلان بُطلان سيامة كاردِنس الأسقفيّة، مستندًا في ذلك إلى ما قدّمته جماعةُ مدرسة اليسوعيّين في أسونثيون من براهين لاهوتيّة. فحرَمَ الأسقفُ خصومه، إلاّ أنّه اضطُرّ إلى الهرب خارج إبرشيّته وخارج إيالة البرگواي، ولجأ الى مدينة كُورِّيِنْتِس Corrientes حيث بدأ يتّهم اليسوعيّين، آخذًا عليهم الهرطقة في تعليمهم الدينيّ للگواراني، وما هو أخطر من ذلك في نظر السلطة الإسبانيّة، مدّعيًا أنّهم يهرّبون الأموال باستثمارهم الخفيّ لمعاجم الذهب في «الحواضر» دون تأدية «الخمس» العائد إلى الملك. وأثارت هذه التهمة الأخيرة اهتمام البلاط، فأمر بإجراء تحقيق حول الموضوع. والظاهر أنّ كِلا الطرفين جاوز الحدّ المفروض، ممّا جعل الرئيس العامّ على الرهبانيّة يوبّخ مدبّر

إقليم البرگواي ويدعوه إلى التزام جانب الاعتدال[٢٤].

١٢٨ ولمّا انتهت، عامَ ١٦٤٧، ولايةُ إنوستروسا، تمكّن كارْدِنَس من العودة إلى أسونثيون، في حين انطلق من بوينس آيرس حاكمُها، خَثِنْتو ده لَرِيث Jacinto de Lariz، ليجول على «الحواضر» ويحقّق بنفسه حول مناجم الذهب «السرّيّة». وكانت النتيجة لصالح اليسوعيّين لأنّ لَرِيث لم يجد أيّ أثر في «الحواضر» لتلك المناجم المزعومة. وجرت تحقيقات مماثلة في فترات زمنيّة لاحقة، إلاّ أنّها أفضت جميعها إلى النتائج عينها.

* * *

١٢٩ في آذار ١٦٤٩ توفّي بشكل مفاجئ حاكم البرگواي دِييگُو ده إنُوبره أُوسُورِيُو Diego de Enobre Osorio وبقي كرسيّه شاغرًا؛ فاستند كارَدِنَس إلى امتيازٍ منحه كارلوس الخامس عام ١٥٣٧ لسكّان أسونثيون، به يسمح لهم بأن يعيّنوا حاكمًا وقائدًا عامًّا مؤقّتًا في حال وفاة صاحب المقام، وعمِل على أن يُنتَخَب لهٰذه الوظيفة؛ وبفضل مركزه الجديد ورئاسته المدنيّة والدينيّة على البرگواي، استطاع أن يثأر من اليسوعيّين، فطردهم لتوّه من مدرسة أسونثيون وراحت جماعات صاخبة من المولَّدين تعيث في رحاب البناء نهبًا. وفي «حاضرتَي» سانْتا ماريا دِه فِيه S. Maria de Fé وسانْتياگو استُبدل اليسوعيّون بكهنة علمانيّين، إلاّ أنّ هؤلاء لقوا من الجفاء في استقبالهم ما جعلهم يؤثِرون بسرعةٍ العودة إلى المدينة، تاركين المجال حرًّا لرجوع اليسوعيّين.

١٣٠ وما لبثت أحداث أسونثيون أن أثارت مخاوف نائب الملك وأعوانه. فبالإضافة إلى العلاقات الوديّة القائمة بين بعض المتنفّذين الكبار والرهبانيّة اليسوعيّة – إذ كانت خير المؤسّسات المدرسيّة في العالم الجديد خاصّة اليسوعيّين – ، كان أشدُّ الموظّفين عداوةً لهؤلاء الرهبان يخشون إعادة المفعول إلى امتياز – بات آنذاك منسيًّا – به يحقُّ لسكّان البرگواي أن يعيّنوا لهم

---

٢٤. اشتكى مدبّر إقليم البرگواي في أوروبّا، الأب خُوان بَسْتُور Juan Pastor بتاريخ ٨ آب ١٦٤٦ من «اضطهادات» كاردِنس، فكتب إليه الرئيس العامّ فِنْتشِنْتسُو كَرافّا Vincenzo Caraffa مؤنّبًا: «لا خشية من الاضطهادات ما لم تتسبّب رهبانيّتنا بذٰلك».

حاكمًا ، وإن بصورة مؤقّتة ، إذ قد يُحسَب ذٰلك خطوةً أُولى خطيرة نحو الاستقلال المحلّي ، الأمر الذي ترفضه السلطات السياسيّة الإسبانيّة على قدر ما يتوخّاه ، في المقابل ، جموع المولّدين. لذا كانت ردّة الفعل سريعةً للغاية : فَعيّن نائبُ الملكِ في لِيما حاكمًا جديدًا للبرگواي هو سِبَسْتِيان لِيُون إي ثارَته S. León y Zárate ، وقد تسلّم منصبه بصورة مفاجئة ، يدعمه فيلق من الجيش الگواراني ، ممّا أرغم كاردنس على الفرار مرّةً أُخرى من أسونثيون ؛ ولمّا استُدعي الأسقفُ المهزوم للدفاع عن نفسه أمام محكمة تشارْكَس ، انتظر سنتين قبل الامتثال.

١٣١ في هٰذه الأوضاع المضطربة كان رُويث مونتويا يسعى ولا يعرف الكلل ، فاستطاع ان يحصل من نائب الملك على تصديق مجدَّد للامتياز الذي مَنَحته المملكة للـ «حواضر» — وكان دومًا هدفًا لاعتراضات المولّدين — : فصدر باسم الملك قرار مؤرَّخ في ٢١ حزيران ١٦٤٩ يؤكّد إعفاء الگواراني من الخدمة الشخصيّة الخاصّة ، ويحدّد مبلغ الضريبة التعويضيّة المتوجّب عليهم دفعُها للخزينة الملكيّة ؛ وبالمقابل يلتزم اليسوعيّون الدفاع عن حدود البرگواي الشرقيّة ، ويتعهّدون ، بصورة ضمنيّة ، أن يضعوا في تصرّف السلطة الإسبانيّة فصائل مسلّحة حتّى خارجَ منطقة «الحواضر» ؛ وما لبث ان تمّ هٰذا الالتزام الأخير لدعم تنصيب الحاكم لِيُون إي ثارَته. فإنّ كارْدِنَس ، وإن ذهب إلى المنفى للمرّة الثانية ، فقد أبى البقاء مكتوف اليدين ، وظلّ يؤجّج نار حملته على اليسوعيّين ، مستندًا إلى حجج من شأنها أن تلقى في البلاط الإسبانيّ آذانًا صاغيةً ، منها : تهريب الأموال — وهٰذه المرّة لا في مجال استنباط الذهب ، بل من جهة مردود تجارة «الحواضر» مع المستعمَرات — ، وازدياد العناصر الأجنبيّة بين مسؤولي «الحواضر» زيادةً باتت تشكّل خطرًا على الأمن القوميّ الإسبانيّ. وكانت هٰذه الحجج ، على الرغم من تفنيد اليسوعيّين ومؤيّديهم لها ، تدفع الحكومة ، مع مرور الزمن ، إلى انتهاج سياسة جديدة أقلّ مراعاةً للرهبانيّة اليسوعيّة.

١٣٢ وكان البلاط في تلك الأيّام له على أبنا القدّيس إغناطيوس مآخذ أُخرى. ذٰلك بأنّهم دخلوا في جدال مع السلطات الكنسيّة بالمكسيك

بعد أن تورّطوا في الخلاف القائم بين نائب الملك في تلك البلاد، الكونت ده سَلْفَتِيرّا de Salvatierra – وهو الذي أصبح فيما بعد نائب الملك في ليما – وأسقف پُوابلا Puebla المدعوّ خوان پَلَفُوكْس إي مَنْدُوثا J. Palafox y Mendoza وكان له، بصفة كونه مفتّشًا من قِبَل مجلس الشؤون الهنديّة، سلطات مدنيّة إلى جانب مسؤوليّاته الدينيّة. فانتهزت الحكومة الفرصة هذه وأنكرت على اليسوعيّين سوء استعمالهم الامتيازات، الممنوحة لهم، للتهرّب من عدد من الواجبات يفرضها عليهم ارتباطهم بسلطة الملك الدينيّة، وخاصّةً للتنصّل الكامل من مراقبة الأساقفة المحلّيّين على الصعيد الروحيّ؛ وذلك في زمن فَقَدتْ فيه «الحواضر» – أو أخذت تفقد – طابَعَها الأوّل، طابع الإرساليّات بين غير المؤمنين، لتصبح في الواقع رعايا مسيحيّة بكلّ معنى الكلمة؛ فتبشير الگواراني كان في تلك الأيّام قد اجتاز شوطًا بعيدًا وبات عدد غير المتنصّرين كمّيّة يستهان بها. وعليه أصدر الملك فيليبّس الرابع يومَ الأوّل من حزيران ١٦٥٤ سلسلةً من القرارات تقضي على اليسوعيّين بأن يتقيّدوا، على أشدّ ما يكون التقيّد، بما تفرضه عليهم سلطة الملك الدينيّة، وأن تتحاشى رهبانيّتهم إرسال المزيد من المرسَلين الأجانب إلى البَرگواي، وألاّ يُقاضوا الأساقفةَ ورؤساءَ الأساقفة لدى المحاكم – كما فعلوا مع كاردِنَس وپَلَفُوكس. وفي حال عدم تقيّدهم بهذه التعليمات، سوف يُطرَدون من «الحواضر» ويُستَبْدَلون بالإكليروس العلمانيّ أو الرهبانيّات الأخرى. إلاّ أنّ حملة الدفاع عن اليسوعيّين تحرّكت بسرعة ولم يمضِ نصف شهر حتى أُحدثت تعديلات (في ١٥ حزيران ١٦٥٤) على القرارات المذكورة، لا سيّما فيما يخصّ الحقّ بإقالة رعاة «الحواضر»، وكانوا في الوقت نفسه مسؤولين مدنيّين أيضًا[٢٥].

---

٢٥. لم يَثْبُت ارتباط مرسَلي «الحواضر» بالسلطات الكنسيّة على وجه واحد. ففي بدء العمل التبشيريّ لم يتبع اليسوعيّون في البَرگواي أيّ إبَرشيّة على الإطلاق، بل كانوا مرتبطين بالبابا ارتباطًا مباشرًا عن طريق مسؤولي رهبانيّتهم. وكانت نيّة الرؤساء العامّين في الواقع حصرَ أعمال رهبانهم في تبشير الهنود، وتجنُّبَ تولّيهم إدارة الرعايا، إلى حين ترسخ أقدام الجماعات الهنديّة في معارج المسيحيّة، فتعود آنذاك مسؤوليتها إلى الإكليروس العلمانيّ. وفي مرحلة لاحقة، ونظرًا إلى قلّة هذا الإكليروس في البَرگواي وعدم ←

١٣٣ ولئن ثبّت قرار ١٥ حزيران ١٦٥٤ جميع الامتيازات التي نالتها الرهبانيّة اليسوعيّة في السابق ، فإنّه لم يخلُ من الأهمّيّة بالنسبة إلى مستقبل «الحواضر» أيضًا ، لأنّه تطرّق بعضَ الشيء إلى موضوع إدارتها. فحتّى ذٰلك الحين أحكم اليسوعيّون قبضتهم على الحياة المدنيّة في الإرساليّات على الرغم ممّا احتفظ به – صُوَريًّا – مقدَّمو القبائل من سلطةٍ تقليديّة موروثة. وقد برّر المرسَلون سلوكهم هٰذا بحجج متعدّدة ؛ منها أنّ الهنود لم يكونوا مهيّئين للعيش في جماعات متحضّرة أساسُ اقتصادها الزراعة ؛ ومنها ضرورة المناضلة من أجل تطبيق القوانين الخاصّة بحماية الكوارانيّ ، وذٰلك في منطقةٍ نائية هامشيّة لو تُرِك فيها الهنود لأنفسهم لعجزوا عن فرض احترامهم على المستعمِرين الأوروبّيّين. وتبدو الحجّة الأخيرة مقبولة لأنّ اليسوعيّين اضطُرُّوا إلى الخَوض

كفايته ، ورغبةً في تحقيق العهود التي قطعتها المملكة الإسبانيّة للكوارانيّ . بدّل اليسوعيّون رأيهم – شأنهم شأن رهبان القدّيس فرنسيس – وقاوموا الضغوط الخارجيّة التي كانت تريدهم أن يتخلّوا عن «الحواضر» للإكليروس العلمانيّ. وأصبح أبناء القدّيس إغناطيوس إذ ذاك كهنة رعايا ، خاضعين بالتالي لولاية الأساقفة (أساقفة أسونثيون أو بوينس آيرس ، بحسب مواقع القرى) ، ولم يعدّوا أنفسهم قطّ متحرّرين من سلطة المطارين. وحدث عامَ ١٦٣٦ أن أُثيرت قضيّة إدارة الرهبانيّة اليسوعيّة للـ«حواضر» في ضوء سلطة الملك الدينيّة عليها وعلاقتها بالسلطات الكنسيّة ، فقضت محكمة تشاركَس في ١٥ تمّوز من السنة نفسها أنّ نشاط اليسوعيّين منضبط لا يتعدّى حدوده ، وأنّه ينبغي البقاء على الوضع الراهن حتّى إشعار آخر. إلاّ أنّ قرار الملك الصادر يومَ ١٥ حزيران حدّد في ثلاث نقاط – فُرض على اليسوعيّين التقيّد بها – ما يخصّ علاقات المرسَلين بالسلطة الكنسيّة : ١) تُعَدّ «الحواضر» من الآن فصاعدًا رعايا ، ممّا يحتّم على الرعاة تسلّم سلطاتهم بصورة قانونيّة من الأسقف المحلّي ، وهو يقدّم قبلَ ذٰلك إلى الحاكم المدنيّ لائحةً بثلاثة أسماء لِيَختار منها أحدَها – (وكان الذي يوحي باللائحة فعلاً رئيس اليسوعيّين الإقليميّ ، فيؤخذ منها على وجه الإجمال الاسم الأوّل) ؛ ٢) الرعاة خاضعون ، والحالة هٰذه ، لسلطة الأسقف المحلّيّ وزيارته الرعويّة في كلّ ما يؤول إلى خير النفوس (وفي الواقع كانت زيارات الأسقف الرعويّة جِدّ نادرة ، في حين كانت زيارات رؤساء الإرساليّات سنويّة ، وزيارات رؤساء الأقاليم اليسوعيّين تتمّ مرّتين في السنة) ؛ ٣) يحتفظ الرئيس الإقليميّ اليسوعيّ بحقّ إقالة خادم الرعيّة دون أن يتوجّب عليه تبرير عمله أمام الأسقف أو الحاكم.

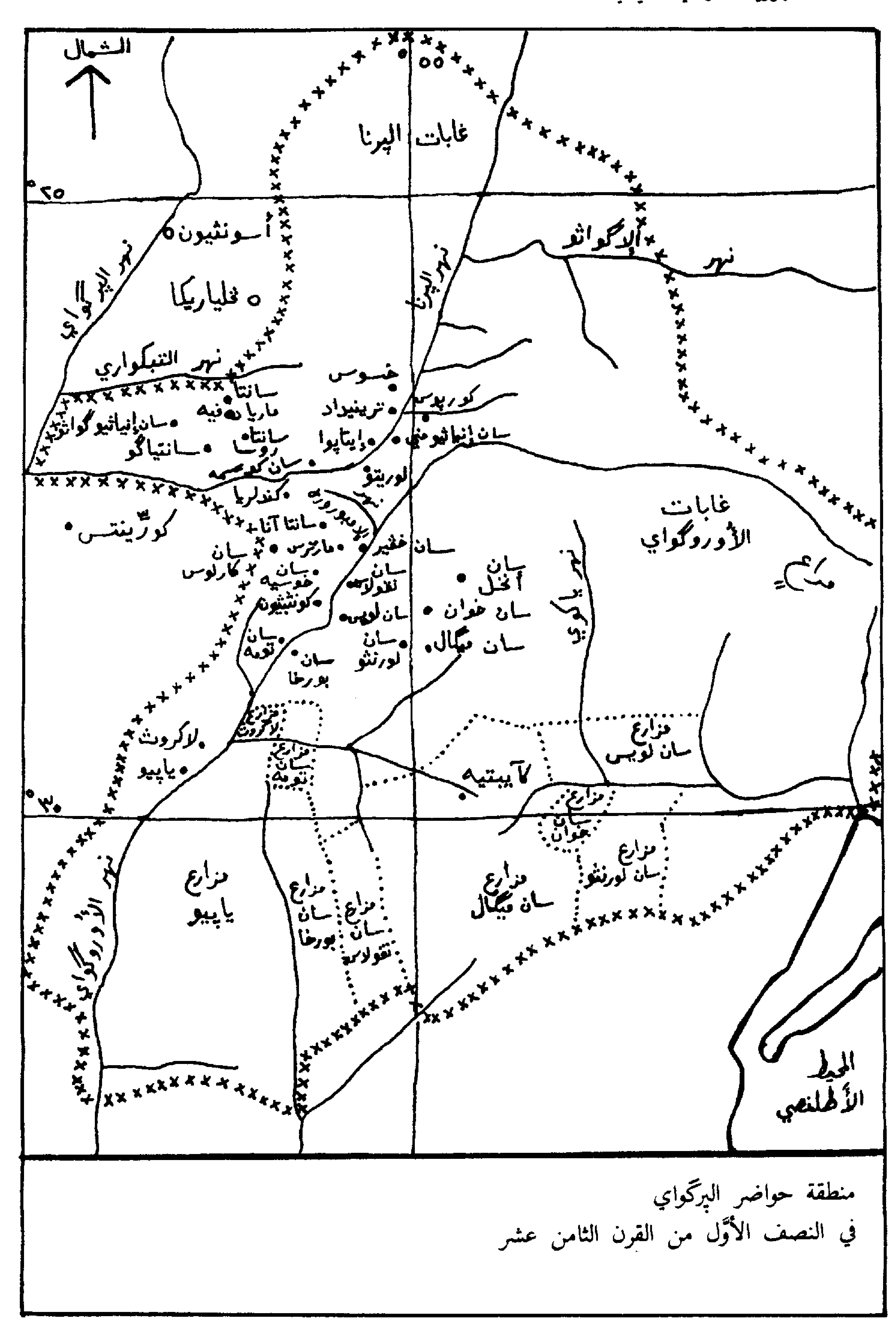
وتجدر الإشارة إلى أنّ موقف البلاط من اليسوعيّين العاملين في الرعايا كان منوطًا بإجراءات الكرسيّ الرومانيّ أيضًا. ففي ٢٤ أيّار ١٥٦٧ وجّه البابا بيوس الخامس إلى الملك فيليبّس الثاني كتابًا به يسمح للرهبان المرسَلين إلى أميركا والتابعين لسلطة الملك الدينيّة أن يقوموا بمهامّ الرعايا دون إذن الأساقفة وبمجرّد سماح رؤسائهم العامّين. إلاّ أنّ هٰذا الامتياز أُبطِل في ٥ شباط ١٦٢٢ ، أَبطله البابا غريغوريوس الخامس عشر ، فكان لا بدّ لملك إسبانيا من العمل بإرادة الحبر الأعظم.

في مهامّ قضائيّة لتطبيق القرارات الملكيّة على الرغم من العقبات الكثيرة التي راح المولّدون يثيرونها لإفراغ تلك القرارات ممّا لا يتوافق ومصالحهم. بيد أنّ الحجّة الأولى أضعف، لا سيّما بالنسبة الى نظام الجماعة الداخليّ:

١٣٤ فقد ركّز قرار ١٥ حزيران ١٦٥٤ على أنّ اليسوعيّين أراحوا الگواراني من أعباء الإدارة في «الحواضر» فقصّروا بذلك في واجب السير بالهنود قُدُمًا نحو نوع من الحكم الذاتي وإنْ يكن محدودًا. وبناءً عليه أمر القرار المرسَلين بالتخلّي عن سائر المهامّ المدنيّة التي أخذوها على عاتقهم ضمن جماعات الگواراني، سواء كانت دائمةً أو مؤقّتةً أو على سبيل الاختبار، ومن ثمّ تسليمها إلى الگواراني أنفسهم[٢٦]. ومن ذلك التاريخ أخذ التنظيمُ المدنيُّ المحلّيّ يتطوّر في «الحواضر»، ودام حتّى سنة ١٧٦٨ وهي التي طُرد فيها اليسوعيّون من البرگواي. إلاّ أنّ الگواراني تولّوا في الجماعات المناصب الإداريّة دون سواها، تاركين للرهبان أن يكونوا المعاونين الروحيّين والمستشارين والمنسّقين بين مختلف «الحواضر» وخاصّةً بينها وبين السلطات المستعمِرة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه كان من الصعب على الهنود التحرّر من مفهومهم الاجتماعيّ المحدود للقبيلة أو الرَهط، لينهضوا إلى مفهوم الجماعة الأشمل؛ ولم يشجّعهم اليسوعيّون في هذا الصدد.

بقي أن نتساءل: هل لقي تقسيم المهامّ المبدئيّ بين المرسَلين وأعيان الهنود تجاوبًا فعليًّا في واقع «الحواضر»؟ سنحاول الإجابة في الفصول التالية. أمّا بالنسبة إلى كاردنَس الأسقف، فإنّه أُعيد إلى منصبه في أسونثيون؛ إلاّ أنّه أصبح هو أيضًا ممّن تخطّتهم عجلة الزمن، وبُعَيد رجوعه إلى عاصمة البرگواي نُقل إلى كرسيّ أسقفيّ آخر حيث توفّي طاعنًا في السنّ عامَ ١٦٦٨.

٢٦. جاء قرار ٢٦ تشرين الأوّل ١٦٦١ يدعم ما نصّ عليه قرار ١٥ حزيران ١٦٥٤.



منطقة حواضر اليركواي
في النصف الأوّل من القرن الثامن عشر

٣ « دولة » اليسوعيّين بين الگواراني

١) مواقع « الحواضر » ونظام بنائها

١٣٥ عاشت « الحواضر » بين منتصف القرن السابع عشر والربع الأوّل من القرن الثامن عشر فترةً من السلام النسبيّ أتاحت لها أن تتقدّم فتصبح هيئةً اجتماعيّة واقتصاديّة متكاملة قائمة بذاتها. وفي الحقبة التي وصلت فيها « الدولة » اليسوعيّة إلى أوج ازدهارها الاجتماعيّ والاقتصاديّ واتّسعت مساحتها إلى أقصى حدودها، أي في الربع الأوّل من القرن الثامن عشر، كانت تشمل ثلاثين قريةً متوزّعة في أربع مناطق جغرافيّة متاخمة، محصورةٍ في حوضَي نهر البرنا الأعلى ونهر الأوروگواي؛ وتمتدّ هذه المناطق على مساحة أشبه شكلاً بمستطيل زواياه إلى الجهات الأربع، ومقدارها نحو مائة ألف كيلومتر مربّع (فضلاً عمّا سُمّي بـ « المزارع »، وهي أراضٍ تُستعمل خاصّةً لتربية المواشي). ثمانٍ من « الحواضر » كانت تقوم بين نهرَيْ البرنا الأعلى والبرگواي في ما هو اليوم جمهوريّة البرگواي، وهي: سان إنياثيو گواثو – « الحاضرة » البكر –، سانتا ماريا ده فِيه، سانتا رُوسا، سانْتِياگُو، سان كُوسْمِه، إيتاپُوا، ترِينِيداد، خِسُوس Jésús. خمس عشرة كانت في مناطق تعود اليوم إلى الأرجنتين: كَنْدِلَريا. – مركز « الحواضر » الإداريّ –، سانْتا آنا، لُورِيتو، سان إنْياثِيُومِنِي، كُورْپُوس Corpus، سان كارلُوس، سان خُوسِيه، مارْتِرِس، كُونْثِيْثِيُون، أَپُوسْتُولِس Apostoles، سانْتا مارياالامَيُور، سان خَفِير، سانْتُو تُومِه S. Tomé، لاكْرُوث، يا پِيُو – وهي العاصمة التجاريّة، في حوض نهر الأُورُوگواي. سبعٌ كانت إلى شرق النهر المذكور في الأراضي

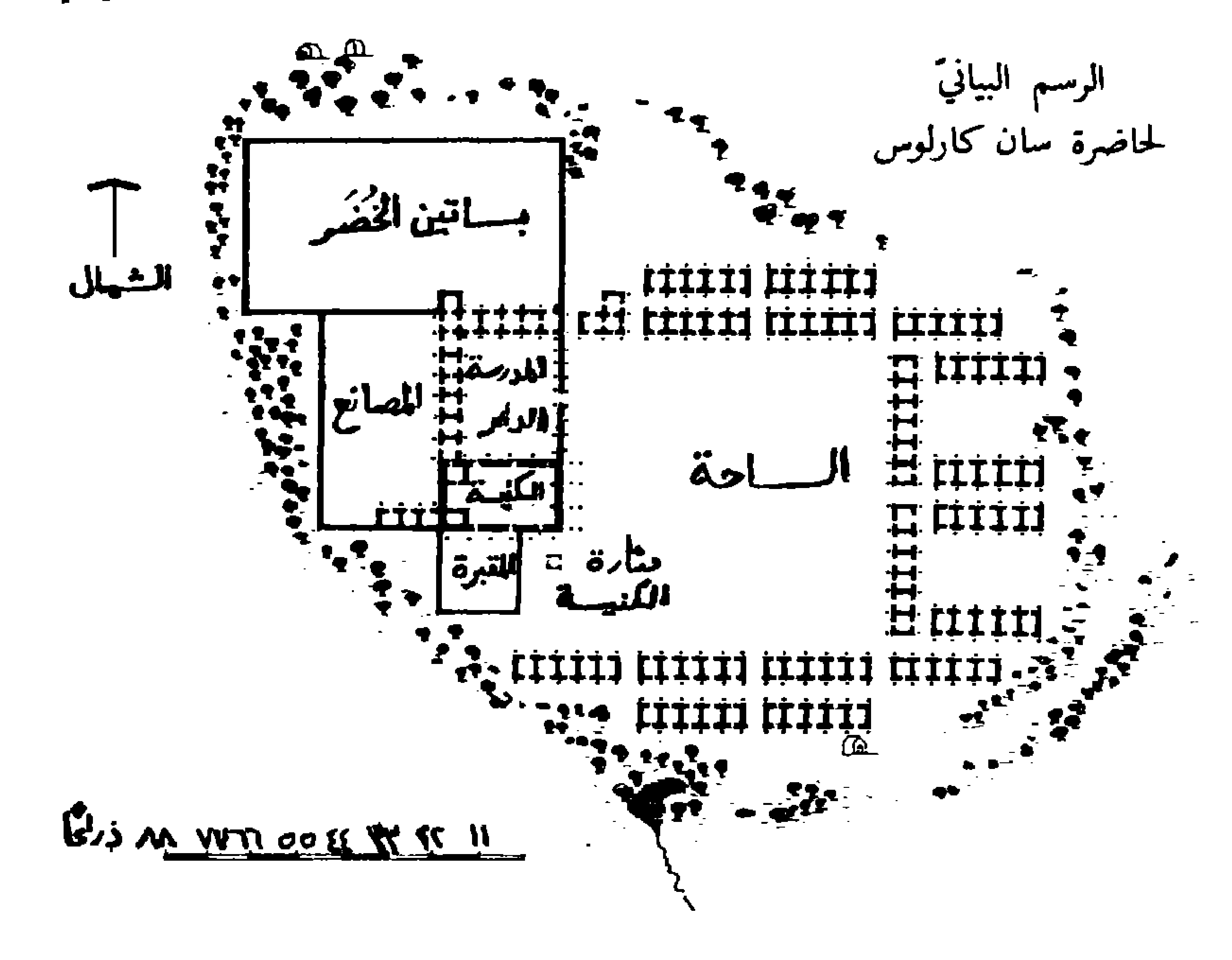
البرازيليّة الحاليّة: سان بُورْخا، سان نِقُولاس، سان لُويس گُونْزاگا، سان مِيگال أرْكانْخِل، سان لُورِنْثُو، سان خُوان باوتِسْتا، سان أَنْخِل.

١٣٦ عدد سكّان «الحواضر» الثلاثين تبدّل بشكل ملحوظ بتبدُّل الزمن والظروف، ولعلّه لم يتجاوز قطّ المائة والخمسين ألفًا، مع هبوط إلى الثمانين ألفًا خلال فترة الانحطاط بين عامَي ١٧٥٠ و١٧٦٨[٢٧]. وفي القرى نفسها لم يثبت عدد الأهلين على وجه واحد، فتراوح بين الألف والخمسمائة في حدّه الأدنى والسبعة آلاف في حدّه الأقصى، مرتفعًا في أزمنة الهدوء ومتدنيًّا خلال فترات الحروب أو الأوبئة.

أمّا المرسَلون الحاضرون في كلّ قرية، فكانوا اثنين أو ثلاثة، يقوم أحدهم بمهمّة الراعي، ممّا يشمل عمليًّا رئاسة الجماعة الهنديّة؛ وعليه فلم يتعدَّ مجموعُهم المائة في أيّ من الأوقات. ولمّا طُرد اليسوعيّون من البرگواي سنة ١٧٦٨ كان عددهم في مجمل إقليمهم هناك نحو اربعمائة.

١٣٧ بالنسبة إلى مواقع «الحواضر»، فإنّها كانت بعيدةً عن المدن التي يغلب على سكّانها العنصر الإسبانيّ. وقد بيّنّا في ما سبق أسباب ذلك. وكان المرسَلون يختارون الأماكن بالاتّفاق مع السلطة المستعمِرة، آخذين بالاعتبار عدّة عوامل: هيئة الموقع ومناخه، قرب ينابيع المياه، وجود الأراضي الزراعيّة، إمكانيّة الوصول والاتّصال (مع ما يرتبط بذلك من اعتبارات إستراتيجيّة). وبالطبع كان لا بدّ لهذا الاختيار ان يحظى برضا الهنود المدعوّين إلى العيش في هذا المكان. وبعد عمليّة تحديد الموقع كان المرسَلون يرسمون مخطّط القرية، وطرازُه محدَّد ثابت: القلبُ في كلٍّ من «الحواضر» ساحةٌ مركزيّةٌ واسعةُ الأرجاء، طولها نحو مائة وثلاثين مترًا وعرضها لا يقلّ عن مائة متر. في وسطها ينتصب صليبٌ عظيم، إلى جانبه تمثال لمريم العذراء وآخر للقدّيس شفيع «الحاضرة» – وكان السكّان شديدي الإكرام لشفيعهم هذا،

٢٧. يؤكّد كَرْدُوثُو E. Cardozo في كتابه *El Paraguay colonial*، ص ١٢٥ أنّ عدد الگوارانيّ الموجودين فعلاً في «الحواضر» كان ضعفَ ما يعلنه اليسوعيّون، ومراد هؤلاء من تنزيل الرقم التهرّبُ من الضريبة المفروضة على كلّ بالِغٍ ذَكَر، ممّا كان مدعاةً للمشاحنات مع الحكّام الإسبانيّين المعنيّين بتحصيل الضرائب.



يكادون أن يرفعوه إلى مصافّ الآلهة المحلّيين –. في الساحة تتركّز الحياة الاجتماعيّة، فتقوم من إحدى الجهات الكنيسة، والمدرسة، والمقبرة، ومسكن المرسَلين، و «المنطقة الصناعية»، ومأوى الأرامل، والميتم، وغيرها من الأبنية العامّة؛ ومن الجهات الأخرى تقوم بيوت الگواراني مرتّبةً في صفوف طويلة متوازية تنطلق من مركز «الحاضرة» وتمتدّ إلى أطرافها.

١٣٨ أمّا فنّ العمارة في الإرساليّات فقد اختلف بحسب الأزمان، ومرَّ بمراحل ثلاث: المباني المشيّدة خلال الفترة الأولى، من ١٦٠٩ إلى نحو ١٦٤٠، كانت في مجملها مؤقّتةً غيرَ مكينة ولم يبقَ لها أيّ أثر. ذلك بأنّ مواقع «الحواضر» ما زالت في تلك السنوات غير ثابتة ولا نهائيّة بسبب اختيارها الخاطئ ونتيجةً لهجمات البولُسيّين والقبائل الهنديّة العدوّة. فعلى سبيل المثال أُسِّست حاضرة» سان إنْياثِيُو گُواثو ثمّ نُقِلت على عَجَلٍ سنة ١٦٠٩، ثمّ رَحلت بعد سنوات قليلة في ١٦٢٧. ونُقلت مرّةً أُخرى عام ١٦٦٧ إلى حيث استقرّت في النهاية. مثالٌ ثانٍ: اضطُرّت «حاضرتا» سان إنياثِيُومِنِي ولُورِيتُو إلى الرحيل سنة ١٦٣١ من منطقة الگُوايرا إلى البَرَنا الأعلى للهرب من

غزوات «التجريدات» البرازيليّة. أضف إلى ذلك أنّ «الحواضر» الأُولى كانت تمتدّ على مساحة واسعة جدًّا ليَسْهُل على الگواراني التأقلم بالتدريج، علمًا أنّهم لم يعتادوا العيش في التجمّعات المكثّفة. لذا اقتصرت نواة الإرساليّات الأولى على هيكليّة هشّة، في حين تبعثرت أكواخ الهنود في الأماكن المجاورة. وكانت الموادّ المستعملة في البنايات الأُولى جذوع الشجر والطين، وبعضَ الأحيان الطُوب؛ ونادرًا ما استُعين بالحجارة. وتكوّنت السقوف من القشّ وأُحيط سائر الأبنية بأروقة بدائيّة غُطِّيت بالقشّ أيضًا.

١٣٩ حوالى سنة ١٦٤٠، مع نموّ الجيل الثاني من الگواراني المتنصّرين، بدأت «الحواضر» تكثّف مساحاتها وتبدو في مظهر هو إلى المُدُن أقرب. فإذا بالمباني الرسميّة المؤقّتة الأولى تتنحّى أمام المنجَزات الثابتة، وإذا بالخشب المصنَّع يتصدّر أمام جذوع الشجر البسيطة. وغُطّيت الأبنية بالقرميد وحلّ الطوبُ والحجر المنحوت محلَّ الطين المطروق. وأخذت الكنائس، وهي خير ما يمثِّل فنّ العمارة في «الحواضر»، تكبر حجمًا مع ازدياد عدد المؤمنين، وشرع الفنّانون يزيّنونها فصارت الزخارف الجميلة تَنزع عنها شيئًا فشيئًا ملامحَ القساوة القديمة. وقام بين الإخوة المساعدين مهندسون راحوا يُطوِّرون فيها المخطّطات، ويرفعون الواجهات والمنارات، كما انصرف الحرفيّون الگواراني إلى تنميق الأبواب والنوافذ بمهارة قلّ نظيرها وطرافة لا تخلو من الذوق على الرغم من أسلوبها البدائيّ.

١٤٠ وفي أعوام الانتقال من القرن السابع عشر إلى القرن الثامن عشر، كما في السنوات التي تلَتها، أي في المرحلة الثالثة والأخيرة، قطعت «الحواضر» شوطًا آخر في مسيرتها العمرانيّة والمعماريّة. فقد دخلها الفنّ «البارُوك» الكثيرُ الزخرف آتيًا إليها من أوروبّا، ممّا أفقد المباني بعضًا من طرافتها في حين ازدادت ضخامةً وعظمة. وكان تأثير الفنّ الإيطاليّ على الطراز المعماريّ في «الحواضر» واضحًا، ومن أهمّ المهندسين المساهمين في ذلك أنْدرِيا بيانْكي Andrea Bianchi ودجيان بَتِيسْتا پرِيمُولِي Gianbattista Primoli، وقد شيّد الثاني كنيسة سان مِيگال San Miguel وهي بواجهتها المزدانة بالأعمدة والتماثيل تكاد تكون أجمل ما أنجزه الفنّ المعماريّ الگواراني



آثار كنيسة سان إنيائيو مني (الصورة للأب هاميل)

ونموذجًا من أبرز نماذج الفنّ «الباروك» في المستعمرات[٢٨]. وثمّة مَن قام بدور مهمّ أيضًا في هٰذا الميدان وإن لم يصل إلى شهرة المهندسَين السابقَين: كالراهبَين اليسوعيّين أَنْدجلو كميلّو پْتراكْراسّا Angelo Camillo Petragrassa ودجُوزِپّهِ بْرِيسَّنِلّي Giuseppe Bressanelli.. وأضحت المعالم الخارجيّة في الكنائس والمباني الرسميّة الأخرى أكثر تعقيدًا وحركةً، كما زاد

٢٨. ومعروف عن بيانكي وبريمولي أنّهما ساهما بشكل ملحوظ في تطوير فنّ العمارة في منطقة الريو ده لا پلاتا خلال القرن الثامن عشر، وإليهما يعود الفضل في تشييد عدّة كنائس في مدينتَي بوينس آيرس وكُورْدُبا Cordoba.

التنميق في الداخل فزُيّنت الصحون الثلاثة ، التي تتكوّن منها المعابد عامّةً ، بهياكل فخمة وتماثيل متعدّدة الألوان وصور ، وجميعها من عمل حرفيّين وفنّانين گوارانيّ أظهروا في ذلك الميدان مهارةً لا سبيل إلى إنكارها . أمّا مراكز « الحواضر » فقد بلغت درجةً من الروعة ما زالت إلى اليوم تثير الدهشة والإعجاب ، لا سيّما أنّ اليسوعيّين واجهوا صعوبات جسيمة من الناحية التقنيّة . فالبُنى الحاملة لم تكن من الحجارة إلاّ فيمَا ندر ، وبقي الخشب مادّة البناء الأساسيّة . واللجوء إلى الخشب في البُنى الحاملة لم يكن حصيلة اختيار مبدئيّ أو ضربًا من الهوس ، بل نتج عن ضرورة فنّيّة لأنّ أراضي « الحواضر » كانت تفتقر إلى المواد المستعملة في ربط الحجارة بعضها إلى بعض كمثل ما يكون من الكلس . لذا لم يُركَن إلى الجدران الحجريّة أو الآجرّيّة في الحمْل بل في الفصل والحماية ، وترتّب على المهندسين اليسوعيّين القيام بمعجزات فنّيّة لضمان ثبات بناياتهم ومتانتها . وبالنسبة إلى الجدران الخارجيّة والواجهات ، عمد المهندسون إلى إنشاء قواعد عريضة من الحجر الكبير المنحوت وجعلوا عليها الحجارة الأخرى فاستقرّت ثابتةً بفعل ثقلها وتداخُل بعضها بالبعض الآخر . ومن هذا أنّ الجدران الخارجيّة في كنيسة سان ميگال قامت على قواعد عرضُها ثلاثة أمتار ، تخترقها دهاليز من شأنها تسهيل العمل . أمّا الحجارة المحلّيّة فكانت من النوع الرمليّ ، طريّةً ليّنة سهلة المعالجة ؛ وقد نجح الصنّاع الگوارانيّ – بل الفنّانون الگوارانيّ – في تطوير فنّ النحت في الحجر ، رافعين إلى مستوًى مرموق على نحو ما فعلوا في حقليْ القاشاني والنحت في الخشب .

١٤١ وممّا اتّصفت به « الحواضر » نظام مدروس للخدمات العامّة : فالطاحون والفرن لصنع الخبز ، والمطابخ الشعبيّة والأهراء ومستودعات المأكولات ، والمخازن والحوانيت على أنواعها ، والأفران لصنع الآجرّ وصهر المعادن ، جميعها متوفرةٌ في سائر القرى ؛ وأُنشئت في بعض « الحواضر » مطابع لا بأس بها . وكان ثمّة شبكات لتأمين المياه الجارية بالإضافة إلى الآبار والمناهل العامّة . واختار الرهبان لتشييد القرى منحدرات التلال ، وكانوا يحفرون في أعلى « الحاضرة » ، وراء الكنيسة ، بئرًا أو عدّة آبار لمياه الشفة ينقلها

جهاز من القنوات تحت الأرض إلى المناهل وأماكن الغسيل والحمّامات والمراحيض العامّة. ومن المراحيض هٰذه كانت شبكةٌ من المجارير تذهب بنفايات البلدة إلى أقرب نهر أو ساقية. وأَولى اليسوعيّون الناحية الصحّيّة في «الحواضر» بالغ الاهتمام، فكان الرؤساء المحلّيّون ورؤساء الإقليم يشدّدون على مسؤولي الرعايا ليُبقُوا جهاز المياه في «حواضرهم» دائم الفعّاليّة، ونعلم، على سبيل المثال، أنّه في سنة ١٦٩٣، تلقّى راعي «حاضرة» سانتا آنا رسالة توبيخ من رئيسه الإقليميّ لأنّ أنابيب المياه المعدّة لتنظيف المراحيض العامّة في قريته لم تَعمل بشكل مستمرّ. كذٰلك عمدوا إلى الماء لتبريد المخازن تحت الأرض حيث تُحفظ المواد السريعة الفساد؛ كما لجأوا إلى المياه لريّ المزروعات، مستعملين في هٰذه الحال وفي سائر الأحوال السابقة أجهزةً لرفع الماء.

١٤٢ وأنشأوا شبكةً من الطرق تربط سائر «الحواضر» بعضها ببعض ممّا أَمّن الاتّصالات البرّيّة السريعة في جميع أنحاء «الدولة»، فضلاً عن المواصلات النهريّة.

أضف إلى ذٰلك أن اليسوعيّين، خلال تولّيهم زمام البرگواي، لا سيّما في «العصر الذهبيّ»، قاموا باستكشافات عديدة في المنطقة كلّها لإيجاد أسرع طرق المواصلات مع البيرو الأعلى حيث أقامت رهبانيّتهم إرساليّات و«حواضر»، ومن أجل العثور على قبائل هنديّة أخرى يُدخلونها في نظام «الحواضر».

١٤٣ أمّا هندسة البيوت فلم يتخلَّ فيها اليسوعيّون عمّا أَلِفه الگواراني في تشييد دُور سَكَنهم، سوى أنّهم أكسبوها مع الوقت متانةً ومزيدًا من أسباب الراحة. وقد أولى المرسَلون المنازلَ قسطًا ملحوظًا من اهتمامهم إنْ لاعتبارات صحّيّة واجتماعيّة أو لاعتبارات دينيّة وأخلاقيّة. فالگواراني، قبل تجمُّعهم في «الحواضر»، كانوا يعيشون في أكواخ كبيرة، مبنيّة بالقشّ والطين، تأوي عدّة أُسَر يصل مجموع أفرادها أحيانًا إلى المائتين، ممّا يتسبّب بمشاكل صحّيّة فضلاً عن الأدبيّة. لذا جاهد اليسوعيّون طويلاً لاستئصال تعدّد الزوجات واللواط ودفعوا الهنود شيئًا فشيئًا إلى السكن في بيوت تتّسع لعائلة واحدة

وحسب[٢٩]. وفي الواقع كانت الدُور المخصَّصة لكلّ أُسرةٍ مجموعةً على وجه الإجمال في بنايات مستطيلة من طبقة واحدة، طولها نحو ستّين مترًا وعرضها ستّة أمتار، يحيط بها أروقةٌ بعرض مترين هي خير حماية من الشمس وعوامل الطقس. وكان لكلِّ منزل بابُ دخول من جهة ونافذةٌ من الجهة الأخرى، وطول هٰذه المنازل عامّةً ستّة أمتار وعرضها خمسة. فيها كان القعود والطبخ والمنامة؛ وظلّ الگواراني يستعملون لرقادهم الأَسِرَّة المعلَّقة المصنوعة من الحبال. وفي بعض الأحيان شيّدوا داخلَ هٰذه الدُور جدرانًا من القصب. أمّا الأرضيّة فغالبًا ما كانت من الطين المطروق، وفي بعض المرّات من البلاط. وكانت الأساسات من الحجر، والهيكليّة من الخشب، والجدران من الطوب أو الحجر، في حين غُطِّيت السقوف بالقرميد.

٢) نظام «الدولة»

آ– الإدارة المدنيّة

١٤٤ طرأ مع الأيّام على تنظيم «الحواضر» المدنيّ والعسكريّ تطوُّرٌ شبيه بما جرى في تشييد المدن والبنايات. ففي البداية اضطُرَّ المرسلون إلى الاتّكال على «المقدَّمين» المحلّيّين، محتفظين بالأسس القَبَليَّة وبُناها شبهَ كاملة. ثمّ لمّا راح الگواراني يُستأصَلون من بيئتهم الجغرافيّة والثقافيّة، ولمّا مسَّت حاجتهم إلى دعمٍ لمواجهة أعدائهم الخارجيّين مِن قبائلَ هنديّةٍ مناوئة وبولُسيّين ومستعمِرين إسبانيّين أَخذتْ أقدامُهم ترسخ شيئًا فشيئًا، صار ارتباط الهنود باليسوعيّين يتوثّق.

١٤٥ بعد زوال «المقدَّمين» القدامى الذين عاشوا حياة البداوة والاستقلال، بدأ خلفاؤهم، وقد نشأوا في بيئة جديدة، يَفقدون بصورة

---

٢٩. روى القدّيس رُوكّه گونثالِث، في كتابٍ أرسله عام ١٦١٣ إلى الأب تُورِّس بُوليو، كيف كانوا يشيّدون «الحواضر» وما كانت اهتمامات المرسَلين الأدبيّة في ذٰلك الصدد. قال: «كان لا بدّ من بناء هٰذه القرية بدءًا من الأساس. ولقطع دابر كلّ أسباب الخطيئة. قَرَّرتُ بناءها على نمط القرى الإسبانيّة لتوفير بيت لكلّ عائلة مع حدود واضحة لمنع الانتقال السهل من منزل إلى آخر».

تدريجيّة سلطتهم وهيبتهم على الرغم من أنّ المرسَلين سَعوا جهدَهم ليحفظوا للعائلات الشريفة حدًّا أدنى من المكانة الاجتماعيّة فضلاً عن إدارة الشؤون العسكريّة. وكان من تداعي الأسس القديمة أنّه أتاحَ للمرسَلين تنظيم «الحواضر» بحسب الاتجاهات التي حدّدتها قوانين المستعمرات الإسبانيّة، ممّا سهّل إزالةَ الفوارق بين الطبقات إلى حدٍّ ما، وخَلَقَ فئةٍ جديدة هي فئة الموظّفين. فإنّه أُنشئَ في كلّ قرية مجلسٌ بلديّ يُدعى «الكَبِلْدُو» Cabildo على نحو ما كان في المراكز التي يقطنها الإسبانيّون وفي سائر القرى الهنديّة. إلاّ أنّه كان ثمّة اختلاف جوهريّ بين الإدارة عند الگواراني وفي أغلبيّة القرى الهنديّة: ففي هٰذه كان المسؤول الأكبر بالنسبة إلى الإدارة المدنيّة إسبانيًّا – باستثناء حالات جدّ نادرة لها مبرّراتها التاريخيّة –، في حين كان الرأس في «الحواضر» هنديًّا دائمًا. وكانت جميع محاولات السلطات الإسبانيّة المحلّيّة لفرض عناصر أوروبّيّةِ الأصل على رأس «الحواضر» تواجه مقاومةَ اليسوعيّين المشروعة والمحقّة، بالإضافة إلى مناهضة الگواراني العنيدة في الواقع. من ذٰلك أنّ حاكم بوينس آيرس، فرنشِسْكو دِه ثِسْپِدِس (١٦٢٤ – ١٦٣١) ضغط على بعض «الحواضر» لتقبل بمسؤولين إسبانيّين، إلاّ أنّ الهنود رفضوا مَدَّهم بالطعام، فاضطُرَّ الموظّفون المعيَّنون إلى التخلّي عن مناصبهم مسرعين مخزيّين. وكان المرسَلون والگواراني يستندون في مقاومتهم هٰذه إلى حقوق اكتسبوها على مرّ السنين، لا سيّمَا أن التشريع بالنسبة إلى البرگواي كان يختلف في بعض نواحيه عن التشريع العامّ في أميركا؛ ففي سنة ١٦١١ أصدر المفتّش الملكيّ أَلْفارُو قراره رقم ١٣ به يَمنع تعيين «مُصْلِحين» أوروبّيّين لرئاسة «الحواضر»[٣٠]، وأكّدت المحكمة الملكيّة في بوينس آيرس بعد نحو نصف قرن (سنة ١٦٦٦) أنّه يحقّ للموظّفين الهنود دون سواهم القيام بالمهامّ القضائيّة في «الحواضر».

* * *

---

٣٠. لفظة «مُصلِح» هي تعريب الكلمة الإسبانيّة «كُورِّخِدُور» Corregidor؛ وكان الموظّف حامل هٰذا اللقب رأس الهيئة الإداريّة في المدن.

١٤٦ كان المجلس البلديّ في «الحواضر» يتألّف من «المُصلح» [ويقال له بلغة الگواراني «پُورُوكُوايْترا» Poroquaitara ، أي «الذي يأمر بما يجب فعلُه»]؛ ومن نائب «المُصلح» يحلُّ محلَّ رئيسه إذا ما طرأ غيابٌ أو مانع؛ ومن اثنين من «القضاة» Alcaldes العاديّين، وهما موظّفان لهما صلاحيّات إداريّة وقضائيّة وأمنيّة؛ ومن اثنين من «القضاة» المعنيّين بالشؤون الريفيّة؛ ومن أربعة مستشارين؛ يُضاف إليهم «القيِّم» المسؤول عن إدارة أملاك الجماعة بمعاونة بعض الموظّفين الثانويّين، و «الوزير» alguacil — وهو ضابط الشرطة، والكاتب.

١٤٧ وكانت جميع هٰذه الوظائف تُمنح عن طريق الانتخاب، باستثناء وظيفة «المُصلح»، إذ كان الحاكم الإسبانيّ يعيّن صاحبها استنادًا إلى لائحة بأسماء ثلاثة يعرضها عليه المرسَلون. وكانت شارة الرئاسة عصا تتناسب زينتها وأهمّيّة المقام. أمّا انتخاب أعضاء المجلس البلديّ فكان يتمّ في شهر كانون الأوّل على مثال انتخابات المجالس البلديّة الإسبانيّة، أي بِقَصر الحقّ بالتصويت على «الناخبين الكبار» وهم أعضاء المجلس البلديّ المنتهي. وكانت لائحة المنتخَبين للمجلس الجديد تُعرَض على كاهن الرعيّة ليوافق عليها، فاذا ما رأى الإتيان ببعض التعديلات قام بها بعد شرح الأسباب الموجبة وغالبًا بعد فرض النقد الذاتي على الذين رُفض انتخابهم. ثمّ تُرسَل اللائحة النهائيّة إلى الحاكم ليُقِرَّها. وكان تَسَلُّم المنتخبين الجدد وظائفَهم يتمّ في الأوّل من كانون الثاني خلال احتفال مهيب.

١٤٨ وإنْ رجعنا إلى نظام «الحواضر» العامّ، الموضوع سنة ١٦٨٩، فإنّه كان يحقّ بموجبه لجميع سكّان هٰذه القرى، القادرين على القيام بالوظائف المدنيّة بما يلزم من الكفاية والكرامة، أن يُنتَخَبوا إلى تلك المهامّ دون أن يؤثِّر على الاختيار أيّة اعتبارات حول أصلهم أو سِنّهم. إلاّ أنّ النظام، في فقرته الأربعين، كان يحذّر، بالنسبة إلى بعض الوظائف الخاصّة، كالقضائيّة منها، تعيين مَن هُم في أوّل شبابهم. وبالنسبة إلى «المُصلِح»، كانت القاعدة العامّة — باستثناء بعض الشواذات — أن يُنتخب من صفوف النبلاء الگواراني، أي من بين «المقدَّمين»، وكانوا، على الرغم من تلاشي الفوارق

المطَّرِد بين الطبقات في «الحواضر»، فئةً اجتماعية تختلف نسبيًّا عن سائرَ الهنود. وكان القانون الإسبانيّ يمنح هؤلاء الأشراف امتيازات معيَّنة كالإعفاء مِن دفع الضريبة للملك وإمكانيّة التلقّب بـ «السيّد» Don . كما أنّ «المقدَّمين» توارثوا تقليديًّا قيادةَ الحروب وملكيَّةَ الأراضي التي تقطنها القبيلة؛ بيد أنّ الامتياز الأخير صار إلى الزوال بسبب كثرة التنقّلات من مكان إلى آخر.

١٤٩ أيُّ دَور قام به أبناء القدّيس إغناطيوس فعلاً في إدارة «الحواضر» على الصعيد المدنيّ؟ بعض العلماء اليسوعيّين المحدَثين، ممّن ابتغوا نفي التهمة الموجّهة إلى رهبانيّتهم من أنّها متعطِّشة إلى السلطة، قالوا بأنّ تأثير المرسَلين على الحياة المدنيّة لم يكن زائدًا. وحذا حذوَهم علماء آخرون «تقدّميّون»، إلاّ أنّ رائدهم في ذلك كان التركيز على النظام الاقتصاديّ الاجتماعيّ دون سواه. أمّا الكتّاب الأقدمون، لا سيّما أعداء الإكليروس منهم في أواخر القرن الثامن عشر، فإنّهم اتّخذوا مواقف هي على نقيض الأولى. قال فِلِيكس ده أثارا Félix de Azara : «القاعدة الوحيدة كانت مشيئة اليسوعيّين. فالواقع أنّه وإن كان لكلِّ مستوطنةٍ إداريُّوها الهنود مِن مُصلحٍ وقاضٍ وقيِّم، على نحو ما في المستوطنات الإسبانيّة، إلاّ أنَّ أحدًا منهم لم يتمتّع بأيّ سلطان، بل كانوا أدواتٍ غيرَ فاعلة بين يدي كاهن الرعيّة، لا دور لهم سوى تتميم مشيئته».

ولا بدّ، للإدلاء برأيٍ لا تعتوره الأحكام المسبَقة، من الرجوع إلى الوثائق الأصليّة الخاصّة بالحقبة التي قامت فيها «الحواضر»: كالقوانين والمذكّرات والتقارير والرسائل وتشريع المستعمرات؛ أو من التوقّف عند الظروف الاجتماعيّة والثقافيّة السائدة آنذاك في البرگواي؛ أو من العودة إلى عقليّة المرسَلين في تلك الأيّام. فاليسوعيّون كانوا بالحقيقة خيرَ ما يمكن وجوده في الكنيسة من قوّةٍ منظَّمة، إنْ من حيث الانتقاء الدقيق للأعضاء أو من حيث التنشئة التي تضمنها سنون طويلة من الدراسة. إلاّ أنّ عملهم الإرساليّ بين «غير المؤمنين» كان مرتبطًا بما تمليه عليهم روحانيّتهم وغيرتهم الدينيّة؛ ولمّا كانت تعوزهم المفاهيم الأساسيّة في علم الاجتماع – وهو باب من العلوم لم

يُطْرَق إلاّ حديثًا –، فقد تصرّفوا خاصّةً عن طريق الحدْس والفطنة، مكيِّفين سلوكهم مع الظروف، يميلون في الدرجة الأولى إلى أن يروا في كلّ هنديّ نفسًا يجب اكتسابها للمسيح وإدارة شؤونها[٣١].

١٥٠ لقد سبق لنا وذكرنا أنّ المملكة الإسبانيّة طلبت سنة ١٦٥٤ وسنة ١٦٦١ إلى الرهبانيّة اليسوعيّة أن يقوم أعضاؤها بالإدارة المدنيّة في «الحواضر». فلا يبعد والحالة هذه أن يكون المرسَلون قد اضطلعوا بدور المنشِّطين للعمل الإداريّ لدى الهيئات المعنيّة وقوامها الهنود دون سواهم؛ كما أنّه من المعقول أنّهم داوموا على الاهتمام بإدارة الشؤون الزمنيّة في القرى. وكانوا بالحقيقة يُعْرَفون بـ «حُماة الگواراني»، وهو لقب مُنح في ١٨ تمّوز ١٦٣٦ لرئيس الإقليم اليسوعيّ في البرگواي، مَنحته إيّاه محكمة تشاركَس الملكيّة وثبّتته عامَ ١٧٤٣ بعد أن أُلغي لفترةٍ محدودة. وكان عمل الحماية هذا يخوّل اليسوعيّين الدفاع عن الگواراني على الصعيدَين المدنيّ والجزائيّ أمام حكّام أسونثيون وبوينس آيرس. أضف إلى ذلك أنّ مهامّ كاهن الرعيّة – وهو رئيس الجماعة الروحيّ – كانت تُولي المرسَل، حسب التقاليد الگواراني، دورًا بالغ الأهميّة في تسيير الشؤون المدنيّة. وفي الواقع كانت إدارة الحياة المدنيّة هذه في «الحواضر» على يد الراهب اليسوعيّ تتجلّى من خلال عرضه على الحاكم أسماء المرشّحين لوظيفة «المُصلح»، ومساعدته المجلس البلديّ في اتّخاذ القرارات، ومقابلته اليوميّة لسائر الموظّفين، وإجرائه القضاء على الطريقة الأبويّة.

١٥١ ولقد خلّف لنا خُوسِه كَرْدِيِيل José Cardiel في منتصف القرن الثامن عشر وصفًا طريفًا للدور الذي قام به الرهبان في حياة «الحواضر» اليوميّة، وهو ما خبره هو نفسه بصفة كونه راعيًا لِيابِيُو. قال: «الكاهن هو بالنسبة إليهم بمثابة الأب والأمّ والقاضي ورجل الدين وكلّ شيء. فإن أخلّ أحدهم بأمرٍ ما، يسرع «القضاة» ويقودونه أمام المرسَل؛ ولا يوثقونه قطّ مهما

٣١. جاء في التعليمات التي وجّهها الأب تورّس بوليو سنة ١٦٠٩ إلى المرسَلين في الگوايرا أنّه ينبغي القيام بتلقين المبادئ المسيحيّة برويّة وتمهّل، لا سيّما بالنسبة إلى البالغين؛ إلاّ أنّ التنبيه كان صارمًا في نقطة واحدة: «لا يجوز أن يموت كبير أو صغير دون عماد».

عَظُم ذنبُه ، بل يكتفون بأن يقولوا له : (هلُمَّ بنا إلى الأَب) ، وهو يتبعهم بتمام الانصياع . ولدى مثولهم بين يدَي المرسل يقول القضاة : أبانا ، إنّه لم يعتنِ بالمواشي التي جُعلت في عهدته ليحرث حقله ، فتركها قرب حقل جاره فدخلته وألحقت به ضررًا جسيمًا . عندئذٍ يستفسر المرسَل عن نوعيّة الضرر ، ومدى مسؤوليّة الجاني ، والظروف المخفِّفة ، وما إلى ذٰلك . ثم يبيّن للمذنب خطأه ويوبّخه توبيخًا أبويًّا وينتهي إلى قوله : (عليك أن تدفع كميّة مُعيَّنة من الذرة إلى جارك . والآن اذهب يا بنيّ . وليَضربوك كذا مرّة بالعصا) . ويكلِّف القضاة بإجراء القصاص وتأمين التعويض»[٣٢] .

١٥٢ وإذا ما أراد أحدهم الاعتراض على أحكام كاهن الرعيّة – هٰذا إن شعَر من نفسه بالثقة التي تخوّله القدرة على المجابهة – فإنّ القانون كان ينصّ على إمكانيّة الاستئناف لدى رئيس «الحواضر» . إلاّ أنّ الشهادات التي بين أيدينا ، كمثل شهادة الأب كرديل ، لا تدع مجالاً للشكّ في أنّ الراعي كان في الواقع أعلى سلطة تعرفها «الحاضرة» لا لمركزه الرسميّ فقط – كما سبق البيان – ، بل بسبب ما كانت رئاسته الروحيّة تفرضه من احترام عميق على الگواراني . وهٰذا الاحترام هو ، قبل سواه من الأسباب ، ما أتاح لعدد من المرسَلين ، لم يتعدَّ المائة ولم يحظَ بأيّة حماية من قِبل الجيش الإسبانيّ ، أن يضبط ، بغاية ما يكون الضبط والانضباط مُدَّةَ مائةٍ وخمسين سنةً ونيِّف – وعلى الرغم من صروف الدهر – «دولةَ» الگواراني .

١٥٣ وقد أدرك المرسَلون هٰذا الأمر خيرَ الإدراك وسَعَوا دومًا إلى فرض هيبتهم غير مَثلومة ، داعمينها بشتّى السبل والشكليّات : من ذٰلك أنّهم تحاشوا الأُلفة الزائدة مع جمهور الأهلين ، وسلكوا سلوكًا لا غبار عليه ، وخاصّةً لم يتصرّفوا قطّ تصرّفًا جائرًا أو تعسّفيًّا ، فبيّنوا بذٰلك للگواراني أنّهم رؤساء عادلون[٣٣] . ويجدر بنا هنا أن نوضح أنّ اليسوعيّين ، وإن قبلوا من باب الخطّة

---

٣٢. يعزو كرديل خضوع الگواراني شبه التامّ إلى تخلّفهم الثقافيّ ، مشيرًا إلى أنّ المرسَلين في المكسيك والبيرو كانوا أقلّ التزامًا في الأمور المدنيّة لأنّ الهنود ثمّة كانوا أكثر تقدّمًا . والواقع أنّه لدى الفتح الإسبانيّ كانت الجماعات الأخيرة على مستوى من الثقافة مرموق .

٣٣. أقرَّ مُونتِسكيُو Montesquieu في كتابه «روح الشرائع» (جنيڤا ، ١٧٤٨ ، القسم الأوّل ،

المنهجيّة أن يحسبهم الگوارانِي خلفاء مِن نوعٍ جديدٍ رفيعٍ لسَحَرتهم السابقين، فإنّهم لم يسعوا قطّ إلى أن يُعَدُّوا آلهة كما ادّعى ذلك بعض الكتّاب في القرن الثامن عشر[٣٤]. وكان هدفهم الأخير تكوين جماعات مسيحيّة لا وثنيّة، ولم ينسَوا قطعًا هذه الغاية. وإن هم قبلوا – على ما ذكرناه سابقًا – ببعض التسويات في شأن تقاليد الهنود وعاداتهم، وببعض المساهمة مع السلطات الإسبانيّة إذ قدّموا لها المساعدة في إدارة الشؤون المدنيّة، فلم يكن تصرُّفهم هذا إلاّ وسيلة وحسب. حتّى إجراءُ القضاء على الطريقة الأبويّة من قِبل المرسَلين كان خاضعًا لنظام معيّن: فإبّان ولاية الرئيس العامّ الأب ڤِنْتشِنْتسُو كَرَافّا Vincenzo Caraffa – ١٦٤٦ – ١٦٤٩ – أُلِّف «كتابُ التنظيمات» Libro de Ordenes وهو مجموعة من التوجيهات أصدرها الرئيس الاقليميّ، تُعْتَبر القانون المدنيّ والجزائيّ في «الحواضر»، وتُحفَظ نسخة منه في كلٍّ من الإرساليّات. وكان العقابان الوحيدان المنصوص عليهما فيه هما: الجَلْد، والسجن مع التقييد بالسلاسل، بما فيه الحبس المؤبَّد الذي خُفِّض فيما بعد، سنةَ ١٧١٦، إلى سجنٍ حدُّه الأقصى عشر سنوات. ويُعدُّ هذا التشريع، من الناحية الإنسانيّة، تقدّمًا عظيمًا بالنسبة إلى الأساليب الجزائيّة السائدة آنذاك في إسبانيا وسائر بلدان أوروبّا. ويكفي قراءة وصف طرق التعذيب التي كانت ما تزال رائجةً في أوروبّا وأميركا خلال القرن الثامن عشر للتيقُّن أنّ طريقة اجراء القضاء في «الحواضر» كانت على جانبٍ من الإنسانيّة كبير[٣٥]. وثمّة دليل آخر على التمدّن الأصيل الذي تجلّى في قيام اليسوعيّين

الكتاب الرابع، الفصل السادس) أنّ اليسوعيّين نقلوا إلى الگوارانِي التمدّن الأوروبّيّ إلى جانب القيم الإنسانيّة والعدالة.

٣٤. لا بدّ لفهم هذه النقطة المذهلة من التذكُّر أنّ الرؤساء الظاهرين في المجتمع الگوارانِي والتوبي البدائيّ كانوا «المقدَّمون»، في حين كان مَن يوحي إليهم بالأفكار والمواقف، ويقوم بمثابة الرؤساء الحقيقيّين والمتنفّذين الفعليّين، هم السَحَرة. وكان هؤلاء يُدعَون «باي» ومعناه «أب»، ويُظنّ أنّهم على اتّصال مباشر بالإله أو الآلهة. وفي نظام الگوارانِي الجديد – أي في «الحواضر» – ورث المرسَلون بشكل آليّ اسم الباي ووظيفته.

٣٥. يمكن مراجعة كتاب تشيزَرِه بكّاريا Cesare Beccaria الصادر سنة ١٧٦٤ بعنوان *Dei delitti e delle pene* («في الجرائم والعقوبات»).

بمهمّة القضاء الصعبة : هو أنّ تطبيق العقوبات الجسديّة لم يتمّ عامّة بشكل علنيّ ، ولم تشذّ عن القاعدة إلاّ الحالات التي كانت تتطلّب التعويض عن شكوك نالت من صفاء الجوّ العام . كما أنّ الإجرام لم يكن متفشيًا على نطاق واسع ؛ وقد جاء برهانًا على ذلك ما أعلنه كُتَيِّبٌ غُفلٌ صدر في البندقيّة عام ١٧٦٧ وبُغْيَتُه التهجّم على اليسوعيّين ، قال : «كان (الهنود) ، بفضل تعاليم المرسَلين وإيعازاتهم ، يكرهون السرقة والقتل والتجاوزات الأُخرى المماثلة ، بحيث يمتنعون عن اقتراف الجُنَح الجسيمة»[٣٦] .

١٥٤ وكانت بعض الخلافات تنشأ بين إرساليّة وأخرى رغمَ روابط التضامن التي أخذت تتوثّق عراها على مرّ الأيّام بين «الحواضر» الثلاثين . وكانت مواضيعها في الغالب نزاعات حول حقوق رَعْي الماشية أو جدالات في شؤون تجاريّة ؛ ولم يكن مِن الكافي ، لِحَلّ هذه الإشكالات ، حُكم كاهنٍ واحد ، فكانوا يرجعون إلى لجنة من المرسَلين ، مؤثرين بينهم من أقام في قريةٍ بعيدة جدًّا عن القرى المتنازعة . وفي الحالات التي هي على جانبٍ أعظم من الخطورة – كالتي يكون فيها التنازع على تحديد التخوم – كانت رئاسة اللجنة تُسنَد إلى رئيس «الحواضر» .

وعمِلَ المرسَلون في النطاق القضائيّ على نحو ما عملوا في حقل الإدارة ، أي ضمن إطار القانون الإسبانيّ . وكانوا بالحقيقة يتمتّعون في هذا الصدد ببعض الامتيازات بصفة كونهم «حُماة الگواراني» ، وهو اللقب الذي منحتهم إيّاه محكمة تشاركس الملكيّة يوم ١٨ تمّوز ١٦٣٦ وفي شَخص رئيسهم على إقليم البرگواي ، ممّا خوّل اليسوعيّين سائر السلطات التي يُنيطها ملك إسبانيا ونوّابه في أميركا بأصحاب وظيفة «الحماية» هذه . وكانت سلطتهم باطلةً في حال الجرائم البالغة الخطورة ممّا يعاقِب عليه القانونُ العامّ بالموت ؛ ففي الظروف تلك كان على الرهبان إحالة الملفّ على الحكّام الاسبانيّين وتسليمهم المذنبين . ويبدو أنّ مثل هذا الأمر لم يحصل ولا مرّةً واحدة .

١٥٥ يتّضح ممّا سبَق أنّ اليسوعيّين كانوا – أقلّه في نظر الشرعيّة

---

٣٦. *Descrizione geographica, politica, istorica del Regno di Paraguay formatosi dai Padri Gesuiti*, p. 17.

الإسبانيّة وضمن إطارها – المسؤولين الحقيقيّين عن إدارة «الحواضر»، بمساعدة معاونيهم الهنود. إلاّ أنّه لا بدّ من التذكير بأنّ الموظّفين الگواراني لم يكونوا أدواتٍ عديمةَ الفاعليّة في أيدي الرعاة، بل إنّهم ساهموا بشكل فعليّ في تطوير جماعاتهم، وأدركوا شيئًا فشيئًا أهمّيّة الأمور، لا سيّما الاقتصاديّة منها، التي تمُتّ بصِلة إلى إدارة «الحواضر»، وما كانوا ليتهاونوا في الدفاع عنها إذا مسّت الحاجة[٣٧]. ولئن كان التطوّر في شتّى المجالات بطيئًا، فردُّ ذلك، كما سبق وأوضحناه، إلى استئصال الهنود الذريع من جذورهم وتقاليدهم العريقة، فضلاً عن أنّ «الحواضر» بقيت مدّةً طويلةً معزولةً عن باقي المستعمرات. وهذه العزلة فرضتها الشرائع الإسبانيّة، كما فرضتها ضرورة حماية الگواراني من جشع «المحصِّلين»؛ وكان من تطبيق هذا العزل المتعمَّد بشكل صارم أنّه حال دون التمازج البطيء المطّرد بين الگواراني والمجتمع الإسبانيّ الاميركيّ الجديد، وأخمد جذوة الحوافز التي من شأنها أن تدفع بالهنود إلى التغلّب بسهولة، وبالاستناد إلى قواهم الخاصّة، على الصعوبات الناشئة من مواجهتهم المجتمع الجديد المذكور.

ب – التنظيم العسكريّ

١٥٦ لم يكن التنظيم العسكريّ في «الحواضر» أقلّ أهمّيّةً من التنظيم المدنيّ، وقد تبيّن في الواقع أنّه كان، بالنسبة إلى إسبانيا، أساسيًّا للدفاع عن مستعمراتها: فمعركة نهر الإمْبورُوره قرّرت مصير الريو ده لاپلاتا والپيرو الأعلى وثبّتت حدود توسُّع الإسبانيّين والبرتغاليّين في المنطقة. – كان لكلّ قرية قواها المسلّحة، وتركّزت الخدمة العسكريّة، مثلها في سائر المجتمعات البدائيّة، على مفهوم «المواطن المسلّح»، المتأهّب دومًا لتلبية الحاجات الحربيّة في جماعته. لذا لم يكن ثمّة جنود محترفون، وعُدَّ كلٌّ من الگواراني جنديًّا في الاحتياط. والواقع أنّه لمّا أجرى حاكم بوينس آيرس خَيْنتو ده لَرِيث

٣٧. ذكر م. أُوبير M. Haubert (في كتابه) *La vie quotidienne au Paraguay sous les Jésuites*, Paris, 1967, p. 249 أنّ «قيِّم» «حاضرة» لوريتو اعترض بشدّة لدى ←

Jacinto de Lariz ، سنة ١٦٤٧ ، إحصاءً في عشرين «حاضرة» ، تبيّن له أنّ ٩١٨٠ من أصل ٢٨ ٧١٤ من سكّانها كانوا «هنودًا محاربين». وكانت القوّات المسلّحة في القرية بإمرة قائد يدعى «أمير الميدان» ، وهو أحد «المقدَّمين» – أو «المصلح» نفسه – ، يُختار لمقدرته وهيبته وشجاعته ، وفي بعض الأحيان لانتمائه إلى أسرة أضحت القيادةُ شبه وراثيّة فيها ؛ ويعاون القائد «رقيبٌ أوّل». ووُزّع الجند في وحدات تضمّ كلّ منها مائة عنصر – إن كانوا من الرجّالة – ، وخمسين – إن كانوا خيّالة ، بأمر الأوّلين نقيب والآخرين ضابط يدعى «الفارس» alfarez ويعاون كُلاًّ منهما رقيبان. ولكلّ وحدة عَلَمٌ وطبل. ووصل عدد الوحدات في القرى الكبيرة إلى ثمانية.

١٥٧ وكان الگواراني يحتفظون في بيوتهم بأسلحتهم التقليديّة من قِسيّ وسهام ومقاليع ودبابيس ، خاضعين للتعبئة في كلّ لحظة. وكان من المفروض على كلّ نابلٍ الاحتفاظ بقوسين وأربعة أوتار وخمسين سهمًا ويعتني بها لتظلّ على خير حال ؛ كما كان على كلّ مقلاعيّ أن يكون لديه من الحجارة الجاهزة ثلاثون حجرًا على أقلّ تقدير. وقد أظهر الگواراني في استعمال هذه الأسلحة مهارةً فائقة ، في حين لم يبلغوا الحدّ نفسه في لجوئهم إلى الأسلحة الناريّة. وكان بين أيديهم من الفئة الأخيرة ، في كلٍّ من «الحواضر» ، بعضُ عشرات من البنادق مخزونة ، إلى جانب البارود والقذائف وبضعة آلاف من السهام ، في مستودعاتٍ خاصّة جُعلت مفاتيحها في حوزة المرسَلين دون سواهم ، علمًا أنّ الرهبان كانوا «مستشاري الحرب» لدى الهنود. أضف إلى ذلك أنّه كان في «الحواضر» بعض المدافع البدائيّة صُنعت من القساطل الضخمة ، أو جذوع الأشجار المفرَغة من باطنها ، بعد تثبيتها بأحزمة من الجلد ؛ وجُلُّ ما كانت تؤدّيه هذه المدافع بعض الطلقات ، ثم تتوقّف عن العمل ، فضلاً عن أنّها

كاهن رعيّته لأنّ المنتوجات التي أُرسلت إلى بوينس آيرس لتباع فيها ويُشترى بثمنها المصنوعات الضروريّة لاقتصاد «الحاضرة» لم تُبَع بالسعر المناسب. فكان على الراعي أن يبسط أمام رعيّته كشوف الحسابات ويبيّن لها أنّ جزءًا من حصيلة ما بيع في بوينس آيرس استُعمل لدفع ديون سابقة. – وجاء في بيان حرّره الراهب الفرنسيسيّ لويس ده بُولانيُوس Luis de Bolaños سنة ١٦٢٨ أنّ مَن يحسب الگواراني بسطاء «سُجّذًا» يكون على خطإٍ مُبين لأنّهم ، إذا ما دعتهم الحاجة إلى الدفاع عن مصالحهم ، أبدوا من المهارة ما لا مثيل له عند المحامين وسواهم من محترفي القانون.

كانت قصيرة المدى. إلاّ أنّ تأثيرها كان عظيمًا خلال المعارك، لا سيّما لدى مواجهة القبائل الهنديّة المعادية.

١٥٨ لقد سبق وذكرنا قضيّة السماح لـ «حواضر» باستعمال الأسلحة الناريّة، وتطرّقنا إلى جذورها ومسبّباتها وتردّد السلطات الإسبانيّة في شأنها. فالإذن الأوّل الدائم صدر بشكل رسميّ في ٢٣ آذار ١٦٤٥، أي أربعةَ أعوام بعد موقعة نهر الإمبُورُورِه، أصدره نائب الملك في البيرو مَرْتشِيسِه ده مَنْثِيرا Marchese de Mancera. وجُدّد الترخيص، ثم أُلغي، ثم أُعيد تثبيته غيرَ مرّة، إلى أن أُعطي الإذن النهائيّ في ٢٥ تمّوز ١٦٧٩. وقد جعلت السلطاتُ الإسبانيّة المرسَلين مسؤولين عن حفظ الأسلحة الناريّة وحسن استعمالها، فلا يسلّمونها إلى الگواراني إلاّ خلال التمارين وفي حال نشوب الحروب. وقد عكس هذا الاهتمامَ نظامُ «الحواضر» العامّ الصادر سنة ١٦٨٩، موصيًا المرسلين بحفظ السلاح على أشدّ ما يكون الحرص، وبتسليمها إلى الگواراني إذا ما دعت الحاجة فقط.

١٥٩ وكان التدريبُ العسكريّ يتمّ بشكلٍ دوريّ خلال الأسبوع، بتوجيه إخوةٍ مساعدين خبروا حياة الجنديّة قبل انخراطهم في سلك الرهبانيّة، ويتّخذ طابعًا شبه احتفاليّ بعد ظهر أيّام الأعياد. وقد وصف ضابطٌ إسبانيّ يُدعى دِييگو ده ألْفِيار Diego de Alvear أحد هذه الاحتفالات العسكريّة، قال: «كان القوّاد ينظّمون جنودهم بعدَ الظهر في أيّام الأعياد ويوعزون إليهم القيام بمناورات تكتيكيّة واستعراضيّة، فيؤدّيها الخيّالة والرجّالة على حدٍّ سواء مستعملين ما لديهم من سلاحٍ أبيض أو ناريّ. وكان أعضاء المجلس البلديّ والرسميّون والرقباء يلجأون، لإعطاء الأوامر، إلى عصا القيادة وهم يحملونها طوال النهار».

١٦٠ وقد سبق وذكرنا أنّ القوّات المسلّحة الگواراني جُعِلت بعضَ الأحيان في خدمة السلطة الإسبانيّة لحفظ الأمن أو للمشاركة في عمليّات حربيّة ضدّ البرتغاليّين أو القبائل الهنديّة المعادية؛ ولم تكن تُحسَب في عداد جيش المستعمرات الإسبانيّ، بل تُعدّ حليفةً له تربطها مثلَه قيود التبعيّة لعاهل إسبانيا وتقبض لذلك تعويضًا ماليًّا من السلطات. أمّا التعبئة فكانت تتمّ على

الوجه الآتي : يرسل الحاكم الإسبانيّ ، سواء في منطقة أسونثيون أو في منطقة بوينس آيرس ، أمرًا خطيًا إلى رئيس «الحواضر» المقيم في كَنْدِلَريا والمطّلع باستمرار – عن طريق تقارير مسؤولي الرعايا أو الزيارات الدوريّة التي يقوم بها – على إمكانيّة كلّ «حاضرة» بالنسبة إلى المجهود الحربيّ ؛ وبموجب هذا الأمر يفرض الرئيس نسبةً معيّنةً من الجند على أقرب «الحواضر» إلى مكان المداخلة فيُعلم بذلك كهنة الرعايا ، والكهنة يُعلمون «المُصلحين» وسائر الموظّفين في القرى فيعمدون إلى تعبئة الجنود المطلوبين.

١٦١ كان عدد مداخلات الگواراني العسكريّة إلى جانب الإسبانيّين بين ١٦٤٤ و١٧٦٦ ما يقارب الستّين. ومن أهمّ هذه الحملات : عمليّة تأديبيّة ضدّ قبائل الكَلْتشَكي Calchaqui التي كانت تهدّد مدينة سانتا فيه Santa Fé عام ١٦٦٥ ؛ واحتلال قلعة سان سَكْرَمِنْتو San Sacramento البرتغاليّة سنة ١٦٨٠ ، وكانت تقع على ضفاف الريو ده لا پلاتا ويدافع عنها مانويل لُوبُو القائد العام للقوّات المسلّحة في ريو ده جنيرو ؛ وقد شارك في هذه الموقعة ثلاثة آلاف محارب گواراني بمن فيهم كتيبة من الخيّالة ، وأظهروا ثمّة من الشجاعة ما حدا السلطات الإسبانيّة على شكرهم العلنيّ بتنويه خاصّ جاء ضمن القرار الملكي الصادر في ١٩ أيّار ١٦٨٢ ، كما وُجّهت رسائل إطراءٍ رسميّة إلى ثلاثة من القادة ، «المقدَّمين» كُورِتُو Coretù وأَمَنْدَو Hamandau وكَپي Capi . ومن هذه الحملات إعادةُ احتلال قلعة سان سَكْرَمِنْتو عام ١٧٠٥ ، وكان البرتغاليّون قد استرجعوها ؛ وقَمْعُ ثورة قام بها في البرگواي بين سنتي ١٧٢٢ و ١٧٣٥ وبقيادة خُوسِيه أَنْتِكيرا José Antequera وفِرْنَنْدُو مُومْپُوكس Fernando Mompox جماعة من المولّدين المطالبين بالحكم الذاتيّ ، وقد جُنّد في تلك المناسبة نحو اثني عشر ألفٍ من الگواراني. أَضف إلى ذلك هجومًا آخر على قلعة سان سكرمنتو عامَ ١٧٣٧ ، وقد حدث آنذاك أنّ المرسَل المرافق لقوّات الهنود ، وهو ألمانيّ يُدعى تُوماس قِرله Thomas Werle ، قُتل في المجابهة الأولى ، فما كان من الگواراني ، وقد صُعِقوا للخَطْب وأيقنوا أنّهم في يومٍ نحس ، أن امتنعوا عن المضيّ في القتال فأُعيدوا على جناح السرعة إلى «حواضرهم» . وعليه فردود الجنود الگواراني لم

يثبت على حال ، إذ كانوا في بعض الأحيان يُبلُون بلاءً حسنًا ، وفي بعضها الآخر يولّون الأدبار بسهولة أمام هجمات العدوّ . وحتّى النظام عندهم لم يخلُ من الاضطراب ، فقد حدث غير مرّة – كما جرى لدى محاصرة قلعة سان سكرمنتو – أنْ قامت بين الگواراني والبرتغاليّين المحاصَرين علاقات « وديّة » في مجال... التهريب ! ولعلّ الثغرة الكبرى في جيوش « الحواضر » كانت الروح القبليّة الفرديّة وما يواكبها من عدم انضباط عند الگواراني ، ممّا تسبّب في كثيرٍ من المناسبات بموت أعدادٍ كبيرة منهم دون فائدة . إلاّ أنّ التنظيم العسكريّ في « الحواضر » نجح على وجه الإجمال في تحقيق المُهِمَّة الأساسيّة التي أناطتها به السلطات الإسبانيّة ، وهي حماية مستعمرات الريو ده لاپلاتا والبرگواي والبيرو الأعلى من تسلُّل البرتغاليّين نحو الغرب .

١٦٢ أمّا التنسيق على الصعيد العسكريّ بين سائر « الحواضر » ، فكان اليسوعيّون يؤمّنونه بواسطة رئيس الإرساليّات ، وقد رأينا فيما سبق أنّ السلطات الإسبانيّة كانت تلجأ إلى هٰذا الرئيس عند الضرورة . وحصل في فترة من الفترات أن عُيّن أيضًا قائد عامّ من الگواراني تمتدّ سلطته إلى أبعد من حدود « حاضرته » الأصليّة : فنقولاس نِينْگِرُو ، أحد أبطال موقعة الإمبُورُورِه ، شغل هٰذا المنصب ، وبعد وفاته عُيّن مكانَه القائد الگواراني الآخر في إمبوروره ، دُونْ إنْيايْيُو أَبِيارُو ، عيّنه حاكم بوينس آيرس خِرُونِمُو لُويس ده كَبْرِيرا Jerónimo Luís de Cabrera في ١٢ كانون الثاني ١٦٤٣ ، مانحًا إيّاه لقب « القائد العامّ للحرب والعدل في حواضر الأوروگواي وسواها التابعة لهٰذه الإدارة » . وخلال الحرب الأخيرة التي خاضها الگواراني ، والتي سوف نروي أحداثها لاحقًا ، عَيّن الهنود على رأس قواهم المسلّحة قائدًا عامًّا هو خُوسِيه تِيارَيُو José Tiarayú.

٣) الاقتصاد

آ– الزراعة – المُلْكيّة الخاصّة والجماعيّة

١٦٣ لا مراء في أنّ النشاط الزراعيّ كان أهمّ ركائز الحياة الاقتصاديّة في « الحواضر » ، فأكثريّة سكّان القرى كانوا ملتزمين بهٰذه الأعمال ، وعلى

نتاجها قامت حياة الإرساليّات. وأوسع المزروعات انتشارًا كانت الذرة والمَنِيهُوت والبطاطا الحلوة وقصب السكّر والخُضَر، يُضاف إليها القطن إذ كان الگواراني يصنعون ثيابهم من نسيجه. وتجدر الإشارة بنوع خاصّ إلى نبتة «اليرْبا ماتِه» Yerba mate أي شاي البرَگواي. فإنّ هٰذه «اليربا»[٣٨] كانت تنبت بشكل تلقائيّ في المنطقة فينصرف إلى جَنْيها جماعاتٌ متخصّصة من الگواراني. إلاّ أنّه كان لا بدّ للقائمين بالقطاف من التوغّل بعيدًا عن قراهم ممّا يعرّضهم لكمائن القبائل الهنديّة الأخرى و «المَمالُوكُوس»، فارتأى اليسوعيّون – بعد العديد من التجارب – أن يقوموا بزراعة تلك النبتة في الحقول القريبة من «الحواضر». ولئن كانت العشبة المزروعة هٰذه أقلَّ جودةً من التي تنبت عفويًّا، إلاّ أنّها لم تكن دونها رواجًا. وكانت تُستهلك في «الحواضر» وتُصَدَّر بكمّيّات كبيرة إلى نواحي الريو ده لا پلاتا؛ ويَستعمل الگواراني حصيلة المبيع لدفع الضريبة التي فرضتها المملكة، ولشراء الأدوات الضروريّة لاقتصادهم ممّا يعجزهم صنعه في قراهم.

١٦٤ وإلى جانب الزراعة بالمعنى الحصريّ ازدهرت تربية المواشي ازدهارًا مرموقًا بحيث بلغت رؤوس الأبقار والأغنام والجياد مئات الآلاف، كما لقيت تربية النحل إقبالاً عظيمًا.

١٦٥ أمّا بالنسبة إلى الطابع الجماعيّ الاشتراكيّ في معالجة الگواراني شؤون الزراعة، وبالتالي في اقتصادهم عامّةً، فقد كثُرت الدراسات والمجادلات. وذرَّ قرنُ الأهواء في المناقشات لأنّ البعض رأوا في اليسوعيّين ممهّدي الطريق للشيوعيّة المسيحيّة أو أناسًا مثاليّين أرادوا تحقيق ملكوت الله في الأرض باستئصالهم دواعي الطمع في الخيرات المادّيّة بين رعاياهم. وقد أخطأ الذين استرسلوا في هٰذا الاتّجاه وما يرافقه من إطراء، كما أخطأ معارِضوهم إذ أنكروا على اليسوعيّين أفضالهم؛ فكِلا الفريقين نظر إلى «حواضر» الگواراني بمنظار الأوروبيّين غيرَ منتبه إلى الظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة السائدة آنذاك في البرَگواي. ولئن اردنا فَهْمَ هٰذه المسألة بالحدّ الأدنى من الموضوعيّة، وجب

٣٨. كلمة «يربا» الإسبانيّة تعني العشبة (الناقل).

علينا الرجوع قبل كلّ شيء إلى النظام الاقتصاديّ الراهن عند القبائل الگواراني قبل مجيء الأوروبيّين. فثمّة لا مجال للالتباس، وجميع شهادات علماء التاريخ والاجتماع حول أهمّيّة الأرض لدى هنود الريو ده لا پلاتا وجنوب غرب البرازيل، وحول حالة الزراعة عند هٰذه الجماعات، تتّفق على أنّ الشؤون الزراعيّة كانت تتّسم دومًا في نظرها بطابع الاحتياط بالنسبة إلى نشاطاتها الأخرى كالقنص وصيد الأسماك. فإنّها لم تزرع الأرض بشكل منتظم، وكادت تجهل تدجين الحيوانات باستثناء الدجاج. ومن ثمَّ كان اقتصادها مبنيًّا بنوع خاصّ على جميع ما تُقدّمه الطبيعة بصورة عفويّة، وفي بعض الأحيان كانت عمليّة الجمع هٰذه تتمّ بشكل بدائيّ للغاية عن طريق إتلاف الأشجار المثمرة وسائر النباتات. أمّا العمليّات الزراعيّة، النادرة وغير المنتظمة، فكانت ذات طابع جماعيّ، والأراضي المزروعة تُعتَبَر مُلكًا للعشيرة أو لرئيسها؛ وكان مفهوم المُلكيّة الخاصّة والفرديّة للأرض أمرًا جديدًا على الگواراني وغامضًا.

١٦٦ فلمّا وصل المرسَلون إلى البرگواي، لم يكن الهنود يعرفون لا الملكيّة الفرديّة للأرض ولا ملكيّة العقارات؛ إلاّ أنّه كان لديهم مفهوم واضح للملكيّة الجماعيّة للأراضي إذ كانوا، في حياتهم القريبة للبداوة وخلال توقّفهم بين تجوال وتجوال، يحرثون قطعة من الأرض هنا وقطعة هناك. فكيف تصرّف اليسوعيّون في هٰذه الأوضاع؟ هل تبنَّوا الأُطُر الاقتصاديّة والاجتماعيّة القائمة آنذاك، أم حاولوا، على العكس، إدخال نظام جديد؟ لا بدّ من التدقيق في الوثائق الخطّيّة بمنتهى الحذر، لأنّ بعض المؤلّفين، المعاصرين «للحواضر»، حاولوا تسخير الحقيقة لغايات خاصّة كأن يرفعوا من شأن منجزات الرهبانيّة اليسوعيّة أوْ يحطّوا منه، أو ليُشيدوا «بالشيوعيّة المسيحيّة» في «الحواضر» أو ليندّدوا بها. وعليه فأُولى الأخبار التي رواها المرسَلون عن نشاطهم في البرگواي تشير بوضوح إلى أنّهم حاولوا إدخال العوائد والأعراف الأوروبّيّة، بما فيها الملكيّة، أَو أقلّه الاقتناء الفرديّ للمسكن والأرض. ومن الشهادات على ذٰلك كلام رُوكّه گونثالِث المذكور آنفًا[٣٩]، وما دوّنه الأب پيدْرُو أُنْياتِه

٣٩. أطلب المقطع ١٤٣، الحاشية ٢٨.

Pedro Oñate، الرئيس الإقليميّ للپرگواي، في تقريره لعامَي ١٦١٨ – ١٦١٩ ، حيث وصف ما قام به اليسوعيّون في « حواضر » اليَرَنا مركّزًا على أنّ « الهنود هم من البربريّة بحيث لا بيوت لهم ولا حقول » ، وأنّ المرسَلين كانوا شديدي الحرص على « أن يوفّروا لهم البيت والحقل وينتقلوا بهم إلى عيشة الحَضَر » . وذُكر توزيع الحقول على العائلات بمفردها في شهادات تَرقَى إلى السنوات الأولى من العمل في « الحواضر » ؛ منها ما خطّه قلم الرئيس الإقليميّ الأب نقولاس مَسْتِرلّي دُوران في تقريرٍ له لعامَي ١٦٢٦ – ١٦٢٧ حيث قال : « وهٰكذا صار لكلّ أُسرة بستانُها على بُعد مِيلٍ أو ميلين من القرية » ؛ ومنها رسالةٌ بعث بها الأب ريپاريو A. Ripario سنة ١٦٣٧ ضمّنها ما يلي : « وهٰكذا أضحى لكلّ أُسرة أرضها ومؤونتها على بُعد أربعة أميال أو ستّة من الحاضرة » .

١٦٧ ولم يُطلِق المرسَلون يد الهنود في استعمال قِطع الأرض الخاصّة هٰذه دون شيءٍ من المراقبة ؛ فقد سبق وقلنا إنّ الگواراني لم يميلوا إلى العمل في الحقول بصورة منتظمة ، ممّا دفع المرسَلين إلى مراقبتهم ليتثبّتوا أنّهم يزرعون ويحصدون ويجمعون الغلال . وكانت المحافظة بشكلٍ علميّ منظّم على هٰذه الغلال تخضع هي أيضًا للمراقبة : فلم يحتفظ الهنود في بيوتهم من نتاج أرضهم إلاّ بكمّيّات محدودة تكفي استهلاك العائلة لمدّة أيامٍ قليلة ؛ أمّا الباقي فكان يُودع في مخازن عامّة ضمنَ أكياسٍ خاصّة بكلّ أُسرة ، وكلّما نفدت مؤونة أحدهم ذهب إلى المخزن العامّ وأخذ مرّةً بعد مرّة من أكياسه كمّيّات أُخرى ضئيلة. فممّا لا شكّ فيه أنّ مِثل هٰذا النظام من المراقبة في سائر مراحل الإنتاج هو بذاته تحديدٌ واضح لاستقلاليّة الإدارة لدى الأفراد، وهو يطابق النظام الأبويّ السائد في « الحواضر » خيرَ مطابقة ؛ وكان المرسَلون يبرّرونه بضرورة استدراك عدم فطنة الهنود الوراثيّ الذي يدفعهم إلى استهلاكٍ سريع لما لديهم دون الاهتمام بالمستقبل.

١٦٨ وعلى الرغم من هٰذه الأساليب ، فقد برهنت خبرة السنوات الأُولى أنّ الگواراني ، بانتقالهم المفاجئ من حياة القنص والصيد إلى حياة الزراعة ، لم يستطيعوا إنتاج الطعام بكمّيّات تكفي لسدّ حاجات أُسَرِهم . ذٰلك

بأنّ مردودهم في النشاط الزراعيّ كان متدنيًا جدًّا بسبب عدم مؤالَفتهم للعمل المنظَّم في الأرض، وخاصّةً لأنّهم كانوا ينفرون منه فيُحجمون عنه إذا ما شعروا بتهاون في مراقبتهم. ولم يندر بينهم مَن لم يكترث لأرضه فلا يقيسها ولا يحدّد تخومها، مكتفيًا بزراعة جزء صغير منها. وقد جاء على ذكر هٰذا الواقع المرسَل الإيطاليّ أنطونيو ريپاريو في كتاب بعث به إلى ميلانو سنة ١٦٣٧، قال: «لا بدّ من توفير الطعام لكلّ واحد منهم، وتوزيع الأراضي لبذر الحبّ فيها، والتردّد عليهم للتثبّت من أنّهم بذروا ما فيه الكفاية واعتنوا بالزرع وقطفوا الثمار في حينها». وبعد نحو قرن من ذٰلك التاريخ، روى كاهن «حاضرة» ياپيو، الأب خوسيه كَرْدِيِيل، ما لا يختلف في جوهره عن الخبر نفسه، مضيفًا إليه المزيد من التفاصيل الطريفة. قال: «قد تكفي، لزراعة هٰذه الحقول، أربع أسابيع، كما أثبتَه أنشطُهم في العمل، ولأنّ الأرض في غاية الخصب؛ إلاّ أنّه لا بدّ من ستّة أشهر أو أكثر بسبب خمول الهنود. وينبغي على المرسَل أن يسعى بكلّ قواه وبمزيد العناية ليؤمّن القوت لسائر العائلات. كما أنّه من الضروريّ، لحمل الكثيرين على العمل، أن يُضرَبوا بالعصا، علمًا أنّ حصيلة العمل هٰذا لا تعود إلى الجماعة بل إلى من ينتجها».

١٦٩ هٰذه الشهادات، لا سيّما شهادة أنطونيو ريپاريو التي تعود إلى أولى سِنِي «الحواضر»، مهمّة لسببين. أوّلها لأنّها تكذيب للمؤلّفين الذين قالوا بوجود فترة بدايات كانت فيها الشيوعيّة المطلقة هي القاعدة للحياة الاقتصاديّة ضمن «الحواضر». ثمّ لأنّها تتيح لنا أن نفهم لماذا اضطُرّ المرسلون الأوائل، على الرغم ممّا ألِفوه من نمط الحياة الإسبانيّة، إلى القبول بأن تكون في «الحواضر»، إلى جانب الأملاك التي تخصّ الأفراد، أراضٍ تملكها الجماعة. فالأراضي الموكلة إلى الأفراد لم تنتج إيرادًا كافيًا لإطعام سكّان «الحواضر»، وهو أمرٌ منتظَر من أناس انتُزعوا بصورة فجائيّة من حياة البداوة وأُدخِلوا في عالم الحَضَر فاضطُرّوا إلى العيش على نحوٍ لا يتجاوب مع تقاليدهم وطبيعتهم. وقد ذكرنا منذ قليل أنّ الملكيّة الجماعيّة للأرض، وإن بشكل مؤقّت، كانت معروفةً لدى الهنود في منطقة الريو ده لا پلاتا؛ لذا، فلمّا أراد المرسَلون تحويل الزراعة عند الگواراني من نشاط ثانويّ وغير اعتياديّ إلى عمل

أوّليّ دائم ، رأوا أنّه من الأسهل اللجوء الى الأساليب التي تتناسب مع تقاليد الگواراني ، أي النظام الجماعيّ.

١٧٠ كانت الأرض الخاصّة بالجماعة تدعى «تُوپا مْبايه» Tupa-Mbaè أي مِلك الله. وكان يزرعها بشكل دوريّ بعض سكّان «الحواضر» من ذوي الكفاية فيتقاضون لقاء هذا العمل أجرًا عينيًّا ؛ كما يعمل فيها أيّام الاثنين والسبت نحوُ جميع أهل الإرساليّة الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخمسين. أمّا إنتاج هذه الأراضي فيعود إلى سدّ حاجات الجماعة ، ودفع الضريبة للملك ، وإعالة المرسَلين والمرضى والأرامل واليتامى وغير القادرين على العمل ؛ كما يُستعمل لتأمين البذار لكلٍّ من الأُسر ولمساعدة سكّان القرى المجاورة إذا ما وقعوا في حاجة طارئة.

١٧١ وقد أصدر الملك فيليبّس الخامس ، في ٢٨ كانون الأوّل ١٧٤٣ ، قرارًا نظّم بصورة نهائيّة علاقات «الحواضر» بالمملكة ، فنصّت الفقرة الرابعة على كيفيّة استعمال إيرادات الأملاك العامّة : ثُلثها الأوّل يعود إلى «الخزينة الملكيّة» (وكانت تَدْفع قسمًا منه إلى المرسَلين في إطار مساعدة العاهل لهم) ، وثلثها الثاني يخصَّص لصيانة دُور العبادة ، والثلث الأخير يُستعمل لسدّ حاجات الجماعات.

١٧٢ ومن جملة الأملاك العامّة كان ثمّة الحراج والمراعي لقطعان الأبقار والجياد والغنم. وظلّت تربية المواشي عمليّةً جماعيّة واستُعمل إنتاجها لصالح القرية كلّها ؛ ومن ذلك أنّ اللحم كان يوزّع على سائر سكّان «الحواضر» مرّتين في الأسبوع. ولمّا لم يكن لجميع القرى ما يكفيها من المراعي ، فقد خُصِّص لصالح «الحواضر» الثلاثين مرعيان هما «لاڤاكِريّا دِل مار» و «لا ڤاكِريّا دِه لُوس پنارِس». ولم يكن وضع هذين المرعَيين القانونيّ واضحًا ، فأرضها لا يملكها أحد ، وكذلك القطعان فيها لم تكن وقفًا على صاحبٍ مُعيَّن ، فتعيش حرَّةً في الطبيعة. وإذا نقصت اللحوم في إحدى «الحواضر» أُرسل إلى هذين المرعَيين خمسون أوستّون راعيًا ليعودوا بعد أسابيع قليلة ومعهم بضعة آلاف من الأبقار. وتجدر الإشارة إلى أنّه لم يندر أن جُعِل في تصرُّف الأفراد أزواجٌ من الثيران للحراثة وأبقارٌ حلاّبة ، إلاّ أنّ الأكثريّة

الساحقة من الگواراني لم تُبدِ أيّ اهتمام بالمواشي ممّا حصر تربيتها دومًا بالقطاع العامّ. واليكم مرّةً أخرى ما رواه خُوسِيه كَرْدِيِل :

١٧٣ «لا يربّي الهنود إلاّ الدجاج ، وكثيرًا ما حاولنا أن نحثّهم على تربية حيوانات أضخم فذهبت جهودنا سدًى. وإن أعطيناهم حصانًا تركوه يموت جوعًا لأنّهم لا يطعمونه ولا يقودونه إلى المرعى. أمّا تربية الحمار فأسهل عليهم ، إلاّ أنّهم إذا أخذوه يرعى ، يشقّ عليهم قطع المسافة إليه كلّ يوم لإعادته ، فيتركونه مربوطًا بحبلةٍ يومين أو ثلاثة دون أن يناولوه ما يأكل. وإن أعطيناهم زوجًا من البقر مع أحد العجول ليستطيعوا الحصول على شيء من الحليب ، فهم من فرط بخلهم لا يحتلبون ، وقد يأكلون العجل ! ولا يندر أن ينال البقر النصيب عينه... لذا تُترك هذه الحيوانات في عهدة الجماعة ، وكذلك المراعي ، فتُشرِف عليها السلطات ويزورها كاهن القرية مرّتين في السنة»[٤٠].

* * *

١٧٤ ساد إذًا في «الحواضر» نظامٌ زراعيٌّ مختلَط ، يقوم فيه التملّك الفرديّ والاستعمال الفرديّ لقِطَع الأرض إلى جانب الملكيّة العامّة والاستعمال الجماعيّ للأراضي ، ورجحت كفّة النوع الثاني. ومردّ ذلك ، من جهةٍ إلى كون مجتمع الگواراني مجتمعًا بسيطًا غلَبَ فيه منذ القِدم استثمار الأرض بشكل جماعيّ على استثمارها بصورة فرديّة ، ممّا يتناسب مع نوعيّة الحسّ الاجتماعيّ لدى سكّان «الحواضر» ؛ ومن جهة ثانية لأنّ مراقبة العمل الجماعيّ كانت أسهل على المرسلين[٤١].

١٧٥ إلاّ أنّ مسألة تحديد حقّ الگواراني بأراضيهم لم تخلُ من إثارة بعض الجدل. فالأراضي الجماعيّة كانت ملكًا للـ«حواضر» – لكلّ

---

٤٠. ممّا ذكره الرواة كثيرًا أنّ أحد الگواراني ذَبح خفيةً ثورًا جُعل في تصرّفه لحراثة حقله الخاصّ. فرأى من المنطق أن يقطّع النير إرْبًا إربًا ويُشعل فيه النار لشيّ الذبيحة !

٤١. تتّصف جماعات ما قبل التاريخ (وكان الگواراني، بالنسبة إلى مستواهم الثقافيّ، من أهل العصر الحجريّ) ، بأنّ ملكيّتها للأراضي جماعيّةٌ ، ولعلّه من الأفضل التكلّم في شأنها عن «الامتلاك» لا عن الملكيّة ، إذ إنّ العبارة الأولى تشير إلى الواقع ، في حين تشير الثانية إلى الشرع.

«حاضرة» أراضيها – إذ كان الگواراني في البدايات يحسبونها أراضي العشيرة أو أراضي الرؤساء. ولمّا كانت ملكيّة العقارات غير معروفة لدى هنود البرگواي قبل إنشاء «الحواضر» – إذ كانوا في الأصل من البدو الرحّل ولا تتملّك عشائرهم الأراضي إلاّ بصورة مؤقّتة – فأساس حقّ الملكيّة عندهم كان أسبقيّة التملّك عن طريق وضع اليد. ولئن عُدّ وجود هٰذا الحقّ من ثمار اجتهادات العلماء الأوروبيّين على مرّ السنين وبعد قيام «الحواضر»، فإنّه على كلّ حال كان أمرًا مقبولاً وَرَدَ ذكره في النصوص السياسيّة والدبلوماسيّة خلال القرن الثامن عشر. من ذٰلك أنّ «معاهدة الحدود» الّتي تمّ توقيعها في مدريد يومَ ١٣ كانون الثاني ١٧٥٠ بين إسبانيا والبرتغال لتحديد تخوم مستعمرات البلدين في أميركا الجنوبيّة، قد نصّت على تنازل إسبانيا للبرتغال عن قسم من «دولة» اليسوعيّين، وبالتحديد عن الأراضي الممتدّة إلى شرق نهر الأوروگواي، بما فيها سبع «حواضر». وذُكر في البندين ١٥ و١٦ من المعاهدة أنّ الگواراني في «الحواضر» السبع المعنيَّة سوف يُنقَلون إلى مناطق ما زالت تحت الحكم الإسبانيّ، حاملين معهم «ما يمتلكونه من سلاح وبارود وذخيرة»، متخلّين عن «قُراهم لصالح مملكة البرتغال، تاركين جميع بيوتهم وكنائسهم ومبانيهم **وملكيّة الأرض وامتلاكها**». وأُعطِيَت كلٌّ من «الحواضر» مبلغًا مقطوعًا قدره أربعة آلاف پيزُو، تعويضًا من الاستملاك.

١٧٦ أمّا مسألة حقّ الگواراني، أفرادًا، بالأراضي التي في تصرّفهم، فهي أشدّ تعقيدًا؛ وما مِن مؤلِّفٍ من مؤلِّفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، أي مِن معاصري «الحواضر»، ترك لنا تحديدًا واضحًا. لذا توجّب علينا اللجوء إلى الاستقراء، جاعلين نصب أعيننا التشريع الإسبانيّ السائد في المستعمرات، مستعينين بما يوفّره عِلْما الاجتماع والأجناس البشريّة من معطيات. وقبل كلّ شيء ينبغي الأخذ بالاعتبار أنّ نظام الملكيّة والامتلاك لدى الشعوب البدائيّة يختلف اختلافًا جذريًّا عمّا هو في قوانيننا. ذٰلك بأنّه من غير الممكن، بالنسبة إلى مثل هٰذه المجتمعات، التكلّم على الحقّ بملكيّة الأراضي، بل على الامتلاك فقط، وهو نوع من الأمر الواقع. وجاء في أحد الكتب، الموسوم بـ *Handbook of South American Indians*، التوضيح

التالي لتلك الظاهرة : «الملكيّة الجماعيّة لوسائل الانتاج والأرزاق معروفة لديهم ؛ وإنْ عُرفتْ الملكيّة الفرديّة أيضًا من الوجهة النظريّة ، فهي تأتي في الدرجة الثانية بسبب ما يُفرَض على أصحابها مِن إشراك الأهل والجيران فيها . ومن جهة أخرى ثمّة أمور ، تبدو لنا عديمة النفع ، يركّز عليها الهنود كلّ التركيز لإرساء قواعد مختلف الثروات» .

١٧٧ يُضاف إلى ذلك أنّ حقّ الوراثة لم يكن معروفًا لدى اكثريّة القبائل . فعند وفاة ربّ العائلة كان أقاربه يهجرون منزله – إن كان له منزل – أو يهدمونه ، ويتلفون سائر أملاكه المنقولة كالزورق وما إليه ؛ وبذلك يُعيد الموتُ حقوقَ الملكيّة إلى نقطة الصفر. ويبدو أيضًا أنّه لم يتمّ عندهم «بين الأحياء» تبادل أملاكٍ ثابتة من بيوت أو أرضٍ .

١٧٨ فوالحالة هذه لكان من الغباوة لو أدخَل المرسَلون إلى «الحواضر» نظام المُلكيّة الخاصّة للأرض بشكله الشرعيّ ؛ ومِثْلُ تلك البادرة لمِمّا يناقض المفاهيم الاجتماعيّة لدى الگواراني . فلا شكّ أنّ المرسَلين الأوّلين ، لمّا وَزّعوا الأراضي للأفراد ، لم يطرحوا قَطْعًا على أنفسهم مسألة طبيعة الحقوق التي قد ينالها مَن خُصّص لهم حقول . فجلّ همّهم كان ، بعد إعفاء الهنود من فريضة العمل للإسبانيّين ، وبالتالي بعد حرمانهم ، ولو جزئيًّا ، ممارسةَ القنص والصيد ، أن يُتاح لرعاياهم زراعة الأرض ليحصلوا منها على قُوْتهم وليتحاشوا مساوئ البطالة الاضطراريّة. ولو تغلّب الگواراني على الصدمة النفسيّة التي أصابتهم من جرّاء تحوُّل نظام حياتهم ، ولو انصرفوا بحماسة إلى العمل في الحقول واهتمّوا بتحسين أراضيهم لزيادة انتاجهم ، لكان من الممكن أن يتحوّل نظامهم البدائيّ إلى نظام يعتمد الحقّ بالملكيّة. إلاّ أنّ الگواراني ، باستثناء قلّة منهم ، لم ينصرفوا إلى الزراعة ، وقد بقيت الأرض بالنسبة إليهم شيئًا لا قيمة له . لذا فالقول بأن الملكيّة الخاصّة كانت معروفةً في «الحواضر» هو إقرارٌ غير صحيح وغير معقول ، والأراضي الخاصّة لم تكن بالحقيقة إلاّ «في تصرّف» الأفراد ، وهم لم يملكوها قطّ من الناحية القانونيّة .

١٧٩ ذكرت بعض المصادر اليسوعيّة وجود الملكيّة الفرديّة في «الحواضر». إلاّ أنّ اثنين من تلك المراجع يعودان إلى ما بعد طرد

اليسوعيّين من البرگواي ، فيشتمّ فيها بالتالي نيّاتٌ دفاعيّة ، فضلاً عن كونها لم يعالجا إلاّ العموميّات . فقد أكّد دُومِنْگو مُورِيال Domingo Muriel ، في معرض كلامه عن إرساليّات البِركواي ، أنّ «الاشتراكيّة الإيجابيّة كانت سائدةً في جمهوريّة الگواراني ، إلاّ أنّها كانت مختَلَطةً يعدِّل من حدّتها شيءٌ من الملكيّة الفرديّة». وأوضح خُوسِيه مانُوِيل پراماس José Manuel Peramás بقوله : «بعض الأملاك لدى الگواراني مشترَك ، وبعضها لا . فالأفراد يعطَون حقلاً يتيح لربّ العائلة أن يزرعه حنطةً له ولذويه» . وثمّة مصدر ثالث يبدو أقرب الى الواقع : فقد روى الأب أنْطُونِيوساپّ A. Sepp عام ١٦٩٨ كيف ارتحل قسم من أهالي «حاضرة» سان ميگال ، المزدحمة بالسكّان ، إلى «حاضرة» سان خُوان باوتِسْتا الجديدة ، المؤسّسة على بعد عشرين كيلومترًا من الأولى ؛ وذكر توزيع الأراضي بين أرباب الأُسر في الجماعة المستحدَثة ، وأخبر أنّه ، بعد انتهائه من تخصيص القِطع المفرزَة ، أُلقى على الگواراني عظةً دعا فيها كلّ فرد إلى التمسّك بملكيّة حصّته واحترام حقل جاره ، لأنّ حقّ كلّ فرد بملكيّة أرضه غير قابل للمناقشة ، لا يمكن لأيٍّ كان الطعن فيه . غير أنّه يبدو من كلام ساپ أنّه أخطأ في استعمال عبارة «ملكيّة حصّته» ، لأنّ ما جرى للگواراني المنتقلين من «حاضرة» سان ميگال دليلٌ واضح على عدم ثبات ملكيّتهم للأرض . والواقع أنّهم نُقلوا بموجب قرار السلطة العليا إلى «حاضرة» سان خُوان ، فجُرِّدوا من حقوقهم ومُنحوا غيرها في قريتهم الجديدة . ولم يأتِ ساپ على أيٍّ ذكرٍ لتعويضات نالها المهاجرون لما طرأ عليهم من استملاك أو لتحسيناتٍ أجروها في حقولهم ؛ بل إنّ روايته تركّز على المظاهر الجماعيّة في عمليّة الانتقال : فالرجال ارتحلوا قبل سواهم لتهيئة «الحاضرة» الجديدة وبناء المنازل فيها والأبنية العامّة والرسميّة ؛ أمّا النساء والأطفال فقد بقوا في سان ميگال ، تعيلهم الجماعة ، بانتظار ان يلحق كلٌّ واحد بربّ عائلته ؛ وأمّنت الجماعات المجاورة البقر والخيل ، والمؤونة والبذار ، وسائر أدوات العمل .

* * *

١٨٠ وثمّة عنصران آخران لا يَبعثان على القبول بأنّ الگواراني عَرفوا الملكيّة الفرديّة. فالتشريع الإسبانيّ في أميركا، وإنْ اعترف للهنود بحقّ اقتناء الأملاك غير المنقولة، إلاّ أنّه وضع حدودًا للتصرّف بها تصرّفًا حرًّا. ذٰلك بأنّ الهنود كانوا، بالنسبة إلى القانون الإسبانيّ، قاصرين بحاجةٍ إلى وصاية، فيحرَّم عليهم التصرّف، عن طريق العقود، بالأملاك الثابتة، ما لم ينالوا إذْنَ «حاميهم» والحاكم الإسباني. وهٰذا الحدّ مِن حقّ الهنود بالملكيّة، أبرزَه، بالعودة إلى الكثير من المراجع الخاصّة والرصينة، العلاّمة خوسيه م. أوتس كَپْدِكي José M. Ots Capdequí [٤٢].

١٨١ وعليه، ولمّا كان المرسَلون في «الحواضر» «حُماةَ» الگواراني، وجب أن يوافقوا على كلّ عقدِ شراءٍ وبَيع يُجريه الهنود. غير أنّه لم يُعثَر، في أيٍّ من الوثائق، على موافقة من هٰذا النوع: فقد كان محذّرًا على الأوروبيّين دخول «الحواضر»، والشواذات القليلة التي سُمِح بها أُعطيت لفترات قصيرة، ممّا يُبعد كلّ احتمال لشرائهم الأملاك مثل الأراضي والبيوت؛ كما أنّ نقل الأملاك بين الهنود لم يكن له من داعٍ لأنّ «الحواضر» لم تعوزها الأراضي، وكان بوسع الگواراني، إذا ما ابتغى أحدهم بستانًا جديدًا، الحصول عليه من الإدارة المحلّيّة، ولا حاجة له بشرائه من المواطنين.

١٨٢ أضف إلى ذٰلك كلّه أنّ «الدولة» اليسوعيّة لم تعرف السيولة النقديّة، فكانت المبادلات تتمّ بواسطة المقايضة، ممّا يعزّز عدم إمكانيّة بيع الأراضي وشرائها في «الحواضر».

١٨٣ ولٰكن ما القول في إمكانيّة نقل الأملاك عن طريق الإرث؟ الواقع أنّه ليس هنالك ما ينصّ على تحريم التركات والمواريث في «الحواضر»، لا بل لا أثر ثمّة لأيّ وثيقة تتكلّم على المواريث، ولا عجب: فالنظام الاقتصاديّ والاجتماعيّ في الإرساليّات قام بكلّيّته على أُسُسٍ انتفت معها الدواعي إلى وجود الإرث والتركات. فسُبُل العيش ومظاهره في «الحواضر» اقتصِرت على ما هو ضروريّ، وحُرِّم التبرّجُ والثياب غير المألوفة،

---

٤٢. J.M. Ots Capdequí, *Manual de historia del derecho español en las Indias*, Buenos Aires, 1945

وأُسنِدت التجارة الخارجيّة إلى المرسَلين، ممّا لم يَدَع أيّ مجالٍ لتجميع الرساميل بين أيدي الأفراد. أضف إلى ذٰلك أنّه ما إن يتزوّج الشابّ الگواراني حتّى تعطيه الجماعة حقلاً يكفيه للقيام بأود أُسرته الجديدة، ولئن يُتوفّى والده قبل زواجه، تهتمّ به الجماعة وتأويه في دار الأيتام. وعلى النحو ذاته كانت الأرملة تلجأ بعد وفاة زوجها إلى دار الأرامل حيث تعيلها الجماعة، أو تعود إلى بيت أهلها.

١٨٤ من الواضح أنّ هٰذا النظام لم يثبت على الزمن إلاّ لأنّ عدد سكّان «الحواضر» بقي على حاله سنين بعد سنين. وحتّى يومَ ازداد هٰذا العدد ازديادًا ملحوظًا في أواخر القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر، كان مِن سعة مساحة الأراضي ما وفّر الإمكانيّة لتأسيس جماعات أُخرى قائمة بذاتها. ولن يُعطى لنا أن نعرف كيفيّة مواجهة المرسَلين لمشكلة «الانفجار» السكّانيّ لدى الگواراني، لأنّ اليسوعيّين اضطُرّوا إلى التخلّي عن «دولتهم» قبل أن تتحقّق تلك الحال، ولا جدوى هنا من الفرضيّات والتكهّنات.

وختامًا نقول: إنّ حقّ كلّ فرد من الگواراني في أرضه وبيته لا يدخل في باب حقّ الملكيّة؛ كما أنّه لا يمكن أن نقرّ، في هذا المجال، بوضعٍ راهن – هو التملّك –، لأنّ استعمال الحقل الخاصّ والبيت الخاصّ كانت تعترف به الجماعة وتحميه. لذا يبدو أقربَ إلى الصواب والمنطق أن نتكلّم عن حقٍّ في الاستعمال يدوم أغلبَ الأحيان مدى الحياة وتعطيه الجماعة للأفراد. وهٰذا ما نخاله أكثر توافقًا مع النظام الاقتصاديّ والواقع الاجتماعيّ في «الحواضر».

ب – الصناعة والحِرَف

١٨٥ لئن كانت الزراعة أهمّ النشاطات الاقتصاديّة في «الحواضر» بلا مراء، فالصناعة أيضًا والأعمال الحِرفيّة كان لها دور في ازدهار الإرساليّات. ذٰلك بأنّ الأراضي ثمّة كانت غنيّةً بالصلصال وحجارة البناء والحديد. ولمّا كانت الحاجة تدعو إلى إنتاج أكبر عددٍ ممكن من اللوازم الخاصّة بالاستهلاك الداخليّ – في حين كادت أن تُعدَم وسائل التزوّد في الخارج نظرًا إلى طول المسافات وخطورة سبل الاتّصال – فقد سعى المرسَلون

إلى السير «بالحواضر» نحو شيء من الاكتفاء الذاتيّ في ميدان التصنيع. لذا أُنشئت المعامل في سائر القرى ودُرِّب الگواراني على مختلف الفنون والصنائع. وكانت هٰذه المعامل – وهي من الأملاك الجماعيّة – بإشراف اليسوعيّين المباشر، يعاونهم في إدارتها بعض الگواراني المكلّفين بالشؤون الاقتصاديّة. وتشير وثائق الرهبانيّة اليسوعيّة والجرود التي قامت بها السلطات الإسبانيّة في أثناء طرد أبناء القدّيس إغناطيوس من البرِكواي، إلى وجود تعامل لصهر المعادن ومعالجة الأخشاب، وأفرانٍ لِشيٍّ الآجرّ وأواني الطعام، ومؤسّسات للغزل والنسيج. وإلى جانب تلك الإنجازات ذات الطابع الصناعيّ، أُنشئت مؤسَّسات حرفيّة لإنتاج القبّعات والآلات الموسيقيّة وغيرها من الأدوات التي تُستعمَل في الحياة العاديّة. وخير دليل على التقدّم المادّيّ في «الحواضر» هو تطوّر الطباعة فيها، ممّا سيأتي الكلام عليه لاحقًا. أمّا العاملون في المصانع، فيختارهم المرسَلون ومسؤولو القرى مِن بين الشبّان والشابّات الذين ثبتت لديهم القدرة على خوض ميدان الفنون والصنائع. وبعد فترة التدرّب ينصرف الگواراني إلى العمل على أساس أسبوعٍ من أصل اثنين، ويتقاضون رواتبهم قِيَمًا عينيّةً توفّرها لهم الجماعة. أمّا الأسابيع التي لا يداومون خلالها في المصانع، فهي للعمل في الحقول الخاصّة.

١٨٦ كانت صناعة النسيج في غاية الأهمّيّة. ولقد جرت باديءَ الأمر محاولاتٌ لزراعة الكتّان لم يُكتَب لها النجاح: فإنّ هٰذه النبتة الحسّاسة تستدعي من الرعاية الخاصّة والعمل الدؤوب والانتباه المستمرّ ما لم يُفطَر عليه الگواراني. ثمّ صار التحوُّل إلى القطن، وزراعته أشدُّ توافقًا مع أوضاع «الحواضر». وكان، بعد تحصيله من الحقول الجماعيّة، يوزَّع في القرى على النساء ليغزلنه، ثمّ يسلَّم المغزول إلى العمّال المتخصّصين لحياكته؛ ويراقِب انتظامَ هٰذه العمليّات «القضاةُ»، فيرفعون عنها تقريرًا خطّيًّا مفصَّلاً إلى كاهن الرعيّة. وكانت الأنسجة تُستعمل لِكَسْو المرسَلين والأطفال، لمكافأة الفلاّحين المتخصّصين العاملين لصالح الجماعة، لمساعدة الأرامل والشيوخ والعاجزين؛ كما أنّ قسمًا منها كان يقدَّم تعويضًا للعمّال، لا سيّما الحاكة أنفسهم. وما تبقّى يُصدَّر إلى مراكز الإسبانيّين في المنطقة.

١٨٧ قطاف القطن في الحقول الخاصّة كان، على وجهٍ عامّ، من شؤون النساء. وكُنّ، بعد فراغهنّ من غزله، يَحملْنَه إلى «قيِّم» «الحاضرة» فيوزّعه بين الحاكة، وإذا ما فرغوا من معالجة القطن الخاصّ بالجماعة، سُمح لهم العمل فيما يعود إليهم. وكان الأفراد يدفعون للحاكة، مقابلَ ما يعملونه لهم، موادَّ غذائيّةً أو مصنّعاتٍ صغيرة، نظرًا إلى انعدام النقود المعدنيّة في «الحواضر» كما سبق ورأينا وكما سوف نراه لاحقًا. وكان نساءُ الگواراني، لدى قطفهنّ القطن من حقولهنّ، يكتفين بتحصيل الكمّيّة التي تفي بحاجات العائلة ويُهملنَ ما فضل، فتعمد إذ ذاك إدارة «الحاضرة» إلى أولاد المدرسة وترسلهم، برفقة معلّميهم، لجمع القطن الباقي، وتضيفه إلى ما نتج عن الحقول الجماعيّة.

١٨٨ ولم تقتصر صناعة النسيج على معالجة الخيوط النباتيّة، بل شملت الصوف أيضًا. وكان الصوف هذا يُجمَع من القطعان التي تُربّى في المراعي المشتركَة، وهو بالتالي ملك الجماعة. وكانت عمليّتا الغزل والنسج تتمّان على النحو المتّبع بالنسبة إلى القطن، كما أنّ الصوف أيضًا كان سلعةً يُتاجَر بها بين مختلف «الحواضر» ومع المدن الإسبانيّة في المنطقة. أمّا الكمّيّة المنتَجَة فكانت لا بأس بها وتُعدُّ خاصّةً للتصدير، لأنّ فصل الشتاء في تلك الأصقاع القريبة من خطّ الاستواء قصير ومعتدلُ الحرارة، ممّا يدفع إلى تفضيل الأنسجة القطنيّة على سواها. ومن الأسباب التي ساهمت في زيادة تصدير سائر تلك الأنسجة، سعرُ مبيعها المتهاود وجودةٌ في النوع تفوق، بما لا جدال فيه، جميع الأنواع المنتَجَة في المستعمرات الأخرى.

١٨٩ ولا بدّ، لاستكمال لوحة النشاط الصناعيّ في الإرساليات، من ذكر الورشات لبناء الزوارق المعدَّة للمواصلات النهريّة، فضلاً عن المعامل لصبّ المعادن. فقد اكتشف الأب ساپ Sepp، عام ١٧٠٠، مناجمَ للحديد شِبهَ بارزةٍ على وجه الأرض، وعلّم الگواراني كيفيّة استخراج هذا المعدن وتصنيعه. إلاّ أنّ افتقار البرگواي إلى الفحم لم يوفّر لمعامل الحديد من المحروقات سوى الخشب، ممّا حال دون توسّعها وأبقاها على مستوًى بدائيّ متواضع. وتشير الوثائق التي خلّفها اليسوعيّون عن الحياة الاقتصاديّة في

«الحواضر» أنّ قسمًا كبيرًا من الأواني المعدنيّة التي استعملها الگواراني لم يُصنَع محلّيًّا بل استُورد من أوروبّا. ولقد سَرت إشاعات في تلك الأيّام مفادها أنّ لليسوعيّين في البرگواي معامل لصنع الأسلحة والذخيرة بكمّيّات كبيرة، بغيةَ التحضير لثورة على الإسبانيّين وإقامة دولة مستقلّة. إنّ تلك الأخبار مُجحفة بحقّ هؤلاء الرهبان، إذ لم يدُر في خَلَدهم قطعًا التحرُّرُ من السلطة الإسبانيّة وهي بالنسبة إليهم خيرُ ضامنٍ لبقاء «الحواضر» على الرغم من مطامع المستعمرين الأوروبّيّين الدائمة؛ كما أنّ إنتاج الأسلحة في الإرساليّات كان محدودًا، لم يتعدَّ كونَه عَمَلَ حِرفيّين لا صناعيّين. أضف إلى ذلك إستحالة إنتاج البارود على نطاقٍ واسع لانعدام الموادّ الأوليّة اللازمة كالفحم والكبريت. لذا تركّز عمل تلك «المصانع العسكريّة»، قبل كلّ شيء، على صيانة أسلحة «الحواضر» وإبقائها جاهزةً للاستعمال.

١٩٠ وقد سرت، خلال القرنيْن السابع عشر والثامن عشر، إشاعات أخرى أشدّ خطورةً حول وجود مناجم للذهب والفضّة راح اليسوعيّون يستغلّونها، مستعبِدين لذلك الشعبَ الگواراني. وإنّها بالحقيقة ادّعاءات خاطئة مغرضة، إذ أكّدت أحدثُ التنقيبات عدمَ وجود مناجم لأيٍّ من المعادن الثمينة في مناطق «الحواضر»؛ وفي أيّام «الدولة» اليسوعيّة طاش سهم أصحاب الإشاعات المذكورة، على إثر ما قامت به السلطات الإسبانيّة نفسها من تحقيقات. وأوّل تحرٍّ دقيق من هذا القبيل، أجراه حاكم بوينس آيرس خَثِنْتُو دِه لَرِيث، الذي دامت ولايته على منطقة الريو دِه لا پلاتا من ١٦٤٦ حتى ١٦٥٣: وكانت النتيجة أنّ مناجم الذهب والفضّة لم يكن لها من وجود إلاّ في مخيّلات الوُشاة؛ كما ظهرت مثلُ هذه النتائج في التقرير الختاميّ الصادر عن مجلس الشؤون الهنديّة. إلاّ أنّ أصوات المتّهمين لم تخفت، ممّا دفع البلاط الإسبانيّ، بعد نحو عشر سنوات، إلى القيام بتحقيق جديد وُكل أمره إلى القاضي المفتّش أندرِس گرَفِيتو ده لِيُون Andrés Garavito de León، فكان منه أن بُرِّئَت ساحة اليسوعيّين ووُجِّه إلى الوشاة تهمة النميمة فأُدينوا بحُكمٍ صَدَر في ١٩ تمّوز ١٦٥١. وهدأت الأمور مدّةً من الزمن، ثمّ عادت الحملة بعنف في منتصف القرن الثامن عشر لمّا اشتدّت التهجّمات

على الرهبانيّة اليسوعيّة في أوروبّا ، فوُزِّعت عدّة مناشير في هٰذا الصدد وأضيف إلى المآخذ السابقة اتّهام الرهبان باستعباد الهنود في الأعمال الزراعيّة أيضًا.

١٩١ وبحسب أصحاب المناشير المذكورة ، فاليسوعيّون حوّلوا «الحواضر» إلى معسكراتِ عملٍ ضخمة ، يحتشد فيها ثلثمائة ألفٍ من الگواراني الأرقّاء يكدّون في الحقول ، ممّا يتيح للرهبان تجميع الثروات الطائلة. وروّجوا أنّ الملايين من البِيسُو كانت تُحصَّل كلَّ سنة من «الحواضر» فترسَل إلى صندوق الرهبانيّة. ولم يتّسع الوقت – إذا صحّ القول – أمام اليسوعيّين للردّ على تلك الافتراءات ، لأنّ طردهم من البرگواي جاء في أعقاب الحملة عليهم. ومهما يكن من الأمر ، فقد أثبتت بيانات المصادَرة ، التي حرّرتها السلطات الإسبانيّة آنذاك ، زَيْغَ هٰذه الادّعاءات وبطلانها.

ج – التجارة

١٩٢ كانت المبادلات التجاريّة الناشطة المستمرَّة بين «الحواضر» أمرًا ضروريًّا ، على الرغم من سعي كلٍّ من الإرساليّات إلى الاكتفاء الذاتيّ من جهة الاقتصاد. ذٰلك بأنّ الظروف والبيئة كانت تختلف بين مكان وآخر : فبعض «الحواضر» ، مثل يابِيُو وسان بُورْخا وسان مِيگال ، تصدّر إلى سواها الأبقار ، في حين تصدّر لا كُرُوث وسان تُومه ويابيو وسان بورخا الأغنام ، كما تصدّر غيرها القطن وعشبة الماتِه. وكانت هٰذه المبادلات تتمّ بالمقايضة ، على أساس أنّه لم يكن للسيولة النقديّة من وجود في «الحواضر». ولمّا كان لا بدّ من تثمين المنتوجات داخل الإرساليّات ، فقد لجأ اليسوعيّون إلى وحدةٍ نقديّة وهميّة هي «البِيسُو الفارغ» ، تُقدَّر بموجبها سائر البضائع[43] ؛ علمًا أنّ الثمن كان متساويًا في جميع «الحواضر» ويُسجَّل على لائحة تُجعَل في متناول كلٍّ من الكهنة المسؤولين في الرعايا. إلاّ أنّه كان يؤخذ بعين الاعتبار «عامل

٤٣. أمّا وحدة الوزن فكانت «الأرُّوبا» وتساوي نحو ١١.٥٠ كيلوغرامًا ؛ ووحدة قياس الطول «الڤارا» ومقدارها ٠,٨٣ من المتر.

المسافة» ، فيُرْفَع ، على سبيل المثال ، سعر المتِه في المناطق الجنوبيّة .

١٩٣ وجرت القاعدة نفسها على المبادلات بين الأفراد ، وهي في الواقع لم تصل أرقامها إلى مستوًى يُذكَر ، نظرًا إلى متطلّبات الگواراني المحدودة وضعف إمكانيّاتهم في مجال الإنتاج . وكانت عائلاتهم ، في أغلب الأحيان ، لا يتوفّر لديها أيُّ فائض للبيع ، لا بل كان يُعوزها الضروريّ لتقوم بأودها أو لتأمين عمليّة البذر ، فتلجأ إلى معونة الجماعة . إلاّ أنّه لم يندر – بحسب ما رواه بعض المرسَلين في مذكّراتهم – أن استطاع عدد من الحرفيّين النشيطين الاستفادةَ من أوقات فراغهم لتحقيق إنتاجٍ خاصّ بهم ، ممّا أتاح لهم الحصول ، عن طريق المقايضة ، على عشبة المتِه والتبغ والعسل والمنسوجات والذرة .

١٩٤ بيد أنّ التجارة الأهمّ ، والأهمّ بكثير ، كانت التجارة بالجملة بين «الحواضر» والمدن الإسبانيّة ، لا سيّما سانتافِيه وبوينس آيرس . كانت عمليّاتها محصورة وتُجرى لحساب الجماعة ، فتُحمَل منتَجات القرى بشكلٍ منتظم على ظهر الأرماث إلى المدينتين المذكورتين . ولدى بلوغ الحمولة وحامليها إلى الهدف المنشود ، يستقبل الكلَّ أحدُ اليسوعيّين – وهو المدبِّر – فيؤمّن الضيافة للحمَلَة ، وبيعَ البضاعة إلى التجّار المحلّيّين . ويُستَعْمَل ريع المبيع في عدّة مجالات : أوّلاً لدفع الضريبة إلى ملك إسبانيا ؛ وقد ذكرنا سابقًا أنّه كان على جميع الهنود الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٥٠ سنة تقديم خدمات لصالح المملكة الإسبانيّة ، كأن يعملوا بضعةَ أشهرٍ كلَّ سنةٍ في المناجم ، أو في المشاريع العامّة الكبرى ، أو في حقول الدولة . وهٰذا ما كانوا يسمّونه «الدَور» . أمّا بالنسبة إلى الگواراني سكّان «الحواضر» ، فقد استَبدَلت الحكومة فريضة «الدور» هٰذه ، على إثر اقتراح قدَّمه الأب رُويث مُونْتويا ، بدفع إتاوةٍ سنويّةٍ قدرها پيسُو واحدٌ ذَهَبٌ عن جميع الگواراني الذين هم بين الثامنة عشرة والخمسين . واستُثني من ذٰلك «الكاسيك» ، فقد أُعفُوا بفضل تدبيرٍ عامٍّ نصَّ عليه الشرع الإسبانيّ ، كما استُثني أيضًا ، لفترةٍ محدودة ، المهتدون الجدد إلى الإيمان المسيحيّ في «الحواضر» ، فأُعفُوا لمدّة عشر سنوات ، ثمّ مُدّدت الفترة إلى عشرين سنة .

١٩٥ أمّا بقيّة مداخيل الصادرات فكان قسمٌ منها يُخصّص – كما سبق القول – لشراء موادّ وآلات لا يمكن إنتاجها في الإرساليّات ، والقسم الآخر يُمنح لمساعدة مدرسة اليسوعيّين في أسونثيون حيث يتعلّم ، فيمن يتعلّم ، الرهبان الذين يستعدّون للخدمة في « الحواضر » .

١٩٦ ولقد حاول المرسَلون بادئ الأمر أن يوكلوا إلى الگوارانى شؤون التجارة الخارجيّة في « الحواضر » ، خشيةً منهم أن يخالفوا القوانين الكنسيّة التي تحذّر على الرهبان الانصراف إلى نشاطات ممنوعة كالتجارة بهدف جني الأرباح . إلاّ أنّ الهنود كانوا معتادين على المقايضة ، لا يعرفون سواها لمبادلاتهم التجاريّة ؛ فعوض أن يقبضوا ثمن متاعهم بالنقد الشرعيّ ، كانوا يقبلون أن يُدْفعَ لهم أيُّ شيءٍ برّاق يستهوي أنظارهم ، ويعودون إلى « الحواضر » محمَّلين بآلات الزَمر والأجراس والمرايا والأقمشة المقصّبة ، في حين يغتني التجّار الأوروبيّون على حسابهم . لذا اضطُرَّ اليسوعيّون إلى اعتماد تنظيمٍ آخر : فعيّنوا من بين كهنتهم مدبِّرَيْن تجاريَّين « للحواضر » ، مركز أحدهما في بوينس آيرس والثاني في سانتافِيه ، وكان عليهما الاهتمام ببيع منتجات الإرساليّات ، وتوزيع ريعها بين الضريبة للخزينة الملكيّة وشراء ما تحتاجه « الحواضر » والمدرسة في أسونثيون . إلاّ أنّ نشاط الرهبان هٰذا ما لبث أن أثار الحسد والاحتجاجات ، لا سيّما من جهة المنتجين الإسبانيّين ، وقد ساءهم تغلّب هؤلاء المزاحمين عليهم . والحقّ أنّ اليسوعيّين ، على الرغم من قولهم بالتزام جانب الاعتدال ومراعاة أحكام الضرورة المذكورة أعلاه ، قد انصرفوا في أعمالهم التجاريّة إلى مدًى بعيدٍ ملحوظ .

١٩٧ ففي تاريخ ٢٠ تشرين الأوّل ١٦٧٧ كتب حاكم البرگواي ، فِلِبيّه ده رِيخا كُورڤالان Felipe de Reja Corvalán ، إلى الملك ، وبواسطته إلى مجلس الشؤون الهنديّة ، يشير إلى شكاوى منتجي الماتِه في أسونثيون وقد أزعجهم إشباعُ سوق سانتافيه وأسونثيون بما تنتجه « الحواضر » ، وهو جيّد النوع وأدنى سعرًا من سواه نظرًا إلى رخص اليد العاملة الگوارانيّ . فاتّخذت الحكومة في مدريد عام ١٦٧٩ تدبيرًا يقضي بمنع اليسوعيّين من تصدير عشبة الماتِه إلاّ بكمّيّةٍ معلومة تكفي لدفع الضريبة للملك ولشراء ما تحتاج إليه

الرهبانيّة في البرگواي. وحُدّدت هٰذه الكمّيّة باثني عشر ألف «أرُّوبا» من المائة في السنة: فكان مجموع ما يُرسَل إلى سانتافيه يتراوح بين ٦٠٠٠ و ٩٠٠٠ «أرُّوبا» في العام الواحد، في حين يصعب ضبط الحجم الصحيح للتجارة مع بوينس آيرس. ويمكن أن نستنتج من محاضر المفتّشين الذين أرسلتهم السلطات الإسبانيّة لدى مدبّري اليسوعيّين في تلك المدينة، أنّ الكمّيّة السنويّة المصدَّرة إليها كانت في حدود العشرة آلاف «أرُّوبا». ولقد ذكر المؤرّخ اليسوعيّ أ. أسْتراين A. Astrain أنّ نشاط المرسَلين التجاريّ وصل إلى منعطف خطير، بحيث اضطُرَّ رؤساء الرهبانيّة العامّون إلى التدخّل: فراجَع الأب گوسفِين نيكِل Goswin Nickel، عامَي ١٦٥٢ و ١٦٦٠، والأب تِيرْسِه گونْثالِث Tirse González عام ١٦٨٧ رؤساء إقليم البرگواي بشكلٍ صريح في شأن تجارة «الحواضر»، وطلبا إنزال العقوبات المناسبة – إذا دعت الحاجة – في حقّ كلّ مَن خالف القوانين الكنسيّة في هٰذا الصدد. وأردف أستراين يقول إنّه لا يمكنه التأكيد أنّ جميع رؤساء المدرسة في بوينس آيرس، أو رؤساء «الحواضر»، هم براءٌ من ذنب الموافقة على النشاطات التي انجرف بها المدبّرون، على الرغم من أنّ مثل هٰذه الالتزامات كانت بدافعٍ من أشرف النوايا، كرَفع مستوى معيشة أهل «الحواضر»، والتقدّم العامّ في اقتصاد المنطقة، والدفاع المسلّح عن الإرساليّات، وتجميل الكنائس، مع الابتعاد كلَّ البعد عن السعي وراء الإثراء الشخصيّ.

١٩٨ والواقع أنّ «الحواضر» لم تنعم، أقلّه في بداياتها، بمستوًى من الرفاهية يُذكَر. فقد ورد، في وثيقةٍ رسميّة أُرسلت إلى أسقف لاپلاتا، وصفٌ للحياة الخاملة في «الحواضر» الأربع عشرة الناشطة آنذاك، وذُكر أنّ الگوارانيّ الثلاثين ألفًا القاطنين فيها كانوا على جانبٍ ملحوظ من الفقر، يصعب عليهم الحصول على لباس بسيط، وذٰلك بسبب نقص الواردات في الإرساليّات. وحتّى المطران برنَردِينُو ده كاردِنَس، المعروف بمخاصمته اليسوعيّين، كتب في ٦ آذار ١٦٤٤ أنّ إرساليّاتهم بين الگوارانيّ فقيرة وبحاجةٍ ماسّة إلى مساعدة الملك.

١٩٩ بيد أنّ المرسَلين استطاعوا، بمرور الزمن ومع استتباب الأوضاع

العامّة ، تحسين المستوى الاقتصاديّ في « الحواضر » بصورة واضحة . ففي سنة ١٦٨٣ قامت السلطات الاسبانيّة ، الدينيّة والمدنيّة ، بتحقيقين للتثبّت من الغنى الراهن في « الحواضر » ، فجاءت نتائج كليهما تؤكّد أنّ أهل الإرساليّات يعيشون دون بحبوحة ولٰكن باكتفاءٍ ذاتيّ لائق. وكان مدخولهم يُستعمل لتأدية الضريبة للمملكة ، ولتزويد « الحواضر » بالحاجات الضروريّة لها ، ولتعليم الذين يتهيّؤون للإرساليّات في مدرسة أسونثيون. ولدينا شهادتان أخريان صدرتا بعد نصف قرن ، لا تختلفان عمّا سبق في حكمها على الحياة الاقتصاديّة ضمن « الحواضر ». فإنّ خُوان ڤاسِكث ده أگوارُو Juan Vasquez de Agüero ركّز ، في تقريرٍ منه إلى الملك فيليبّس الخامس ، على « حرص الآباء واهتمامهم » ، ممّا يتيح لهم إنتاجًا يكفي لدفع الإتاوة للمملكة. كما أنّ مطران بوينس آيرس ، خوسِه أنطونيو پرَلْتا ، أرسل إلى فيليبّس الخامس في كانون الثاني ١٧٤٣ بعض التفاصيل عن واردات بيع عشبة الماتِه من قِبَل اليسوعيّين : فقد صُرفت لدفع الإتاوة ، والتعويض للعمّال المتخصّصين ، وشراء وإصلاح الأسلحة الناريّة للدفاع ، واقتناء وإدارة وسائل الإنتاج والنقل. وانتهى الأسقف إلى القول إنّه لذٰلك السبب لا يلحّ للحصول من المرسَلين على دفع العُشر أو سواه من المساهمات لصالح إبرشيّته.

٢٠٠ وثمّة حُكمٌ آخر أشدُّ وضوحًا بتبيانه صعوبةَ الإدارة الذاتيّة في « الحواضر » ، وقد أصدره بعد عدد من السنين الراهب الفرنسيسيّ تَمَخُونْكُوسا Tamajuncosa المسؤول عن إدارة إرساليّات تارِيخا Tarija في البيرو الأعلى ، حيث حلّ الفرنسيسيّون محلّ اليسوعيّين بعد طردهم من هناك. قال : « لو أخذنا بعين الاعتبار سائر ما يتوجّب إنفاقه في كلٍّ من الإرساليّات ، لأدركنا بسهولة أنّ ما تنتجه هو دومًا دون المطلوب لسدّ احتياجاتها ». هٰذا بالحقيقة تقريظ غير مباشر لما قامت به الرهبانيّة اليسوعيّة من مبادرات.

* * *

٢٠١ وإلى جانب التجارة الخارجيّة بالجملة لصالح الجماعة ، كان ثمّة تجارة صغيرة بالتجزئة ، يقوم بها الگواراني مع التجّار الإسبانيّين ، سواءٌ في

مناسبة القيام بأعمال السُخرة في سانتافيه وبوينس آيرس ، أو عندما يُسمَح لبعض هؤلاء التجّار المجيء إلى « الحواضر » ، أو خلال الاتّصالات التي ظلّت قائمةً بين الگواراني والقبائل الهنديّة غير الخاضعة للإسبان. وكانت جميع هذه الأعمال تتمّ بمراقبة المرسَلين وموافقتهم. كما إنّه جرى ، في المناسبات وبصورة غير شرعيّة ، مبادلاتٌ تجاريّة بين هنود « الحواضر » والبرتغاليّين المتمركزين في قلاع بَنَوها على ضفاف الريو ده لاپلاتا ؛ فلمّا كان الإسبانيّون يهاجمون هذه القلاع حينًا بعد حين ، كان أنصارهم الگواراني يغتنمون الفرصة متّصلين بالعدو للمقايضة ، فيقدّمون الموادّ الغذائيّة مقابل التبغ والكحول.

د - الحياة اليوميّة

٢٠٢-٢٠٣ رعى المرسَلون الحياة العائليّة والاجتماعيّة في «الحواضر» رعايةً خاصّة ، وأرادوها مطابقةً ، ما أمكنهم ذلك ، للمثال المسيحيّ والأوروبّي. فشنّوا في هذا الصدد حملةً دؤوبة ، لا تعرف الكلل ، على تعدّد الزوجات ، وكانت تلك العادة هي القاعدة العامّة في قبائل الگواراني قبل مجيء اليسوعيّين. فقد يتّخذ الرجل ، لاسيّما بين « الكاسيك » ، ما يقارب العشرين امرأةً ، زوجاتٍ كُنَّ أو سراريّ ، وهُنّ مرتبطاتٍ بواجب الأمانة لبعولهنّ تحت طائلة العقاب الصارم بما فيه الموت ؛ وعلى العكس كان يحقّ للرجل تطليق نسائه بحسب هواه. - أمّا الأخلاق المسيحيّة التي كان على اليسوعيّين التبشير بها وإدخالها في المجتمع الگواراني ، فإنّها تحرّم تعدّد الزوجات والطلاق. إلاّ أنّ الرهبان ما لبثوا أن أدركوا ما سوف يواجهونه من صعوبات لو أرادوا أن يستأصلوا في وقتٍ وجيز عوائدَ محلّيّةً رسَخَت منذ أجيالٍ وأجيال : فبالإضافة إلى العواقب على صعيد الأفراد ، لكانوا تسبّبوا باضطرابات لها تأثيرها على التوازن الاجتماعيّ والديموغرافيّ الراهن. لذا اتّبعوا سياسة مراعاة العامل الزمنيّ («أعطِ الوقتَ للوقت») ، فركّزوا على الشبيبة ، وتركوا للقدامى عوائدهم مكتفين بمنحهم العماد عند المات فقط[٤٤].

---

٤٤. لمّا حاول المرسَلون الأوائل إقناع الگواراني بالاكتفاء بزوجةٍ واحدة للرجل الواحد ، واجهتهم صعوبتان : ←

٢٠٤ وإذ سيطر المرسَلون على تعليم الأحداث وتربيتهم، استطاعوا، في غضون عقودٍ معدودة، إدخالَ الزواج الأحاديّ في المجتمع الگواراني، وجعلوا منه، دونما عواقب تُذْكَر، النموذج الوحيد للرباط الزوجيّ. وفي إطار هٰذه السياسة عمد اليسوعيّون إلى تشكيل أكبر عددٍ ممكن من الأُسَر المسيحيّة في أقصر وقت، فشجّعوا الشبّان على الزواج في السابعة عشرة من عمرهم والشابّات في الخامسة عشرة، مراعين في الوقت نفسه الغريزة الطبيعيّة فيهم والعوائد المحلّيّة.

٢٠٥ وكانت الزواجات «تُدَبَّر». ويبدو أنّ المرسَلين استحدثوا هٰذه العادة مقتفِين بذٰلك المثالَ الأوروبّيّ السائد آنذاك. فكان كاهن الرعيّة يستدعي الوالدِين الذين بلغ أولادهم سنّ الزواج ويَطلب إليهم أن يجدوا لهم أزواجًا أو زوجات. وحالما يتمّ الاختيار، يَستدعي المقبلين على الزواج، كلاًّ بمفرده، ويتحقّق قبولَهم الحرّ بالأمر لئلاّ يبطل القران شرعًا. وبعد ثبوت الموافقة يُصار إلى الخطبة، فيليها بعد فترةٍ وجيزة حفلةُ العرس. وجرت العادة أن يتمّ هٰذا الاحتفال بصورةٍ جماعيّة يومَ الأحد، في إطار من الأُبّهة يلفت الأنظار، بغيةَ تنبيه الهنود إلى تفوّق الزواج المسيحيّ على ما سبقه من طُرق اتّحاد الرجل بالمرأة. وكان الأزواج الجدد ينالون من إدارة الجماعة بيتًا وحقلاً في جوار البلدة. ولم يُسْمَع قطّ أنْ عانت إحدى القرى مِن نقصٍ في البيوت أو الحقول، وذٰلك لعدد من الأسباب: منها ارتفاع معدّل الوفيات لا سيّما بين الأطفال، سواء في «الحواضر» أو في سائر أنحاء البلاد، من جرّاء الأمراض الوبائيّة وتفشّي الإدمان على الكحول رغم مكافحة المرسَلين له؛ ومنها الهجمات المتواترة التي يشنّها البولُسيّون والقبائل المعادية، ممّا يودي بحياة الكثيرين؛ ومنها قلّة الإنجاب لدى الگواراني. ومرّةً واحدةً واجه المرسَلون حالةً من الضيق في هٰذا الصَدد، سرعان ما عالجوها: كان ذٰلك في آخر القرن السابع عشر

– مقاومة الهنود فكرة التخلّي عن نسائهم أو سراريّهم اللواتي علقت بهنّ قلوبهم. فلم يندر أن آثر الگواراني إذ ذاك هجر «الحواضر».

– عدم إمكانيّة تحديد المرأة الشرعيّة بموجب الحقّ الكنسيّ: فكيف السبيل إلى ذٰلك بين سائر النسوة التابعات للرجل الواحد؟ ولقد استشار اليسوعيّون روما، إلاّ أنّ البابا أُوربانوس الثامن ترك لرئيس الرهبان في البرگواي أمر التصرّف بحسب ما يمليه الضمير.

وأوائل الثامن عشر، خلال عصر «الحواضر» الذهبيّ، فاضطُرَّ الرهبان إلى ترحيل قِسمٍ من سكّان القرى المزدحمة إلى أرضٍ عذراء، ليؤسّسوا فيها جماعاتٍ جديدةً، على نحو ما كان يفعله الگواراني قبل مجيء اليسوعيّين.

٢٠٦ ولقد أَولى الرهبانُ تربية الأولاد اهتمامًا بالغًا، فكانت هٰذه التربية تدوم من الطفولة، في السادسة أو السابعة، حتّى عتبة الزواج. وكان مردُّ هٰذا الاهتمام إلى ضرورة تنشئة الأجيال الصاعدة تنشئةً مسيحيّة، فضلاً عن أنّه يتيح الفرصة للتأثير على نفوس البالغين، وهُم شديدو التحسُّس لكلٍّ ما يمتّ إلى معاملة أبنائهم. ولمّا كان اليسوعيّون يعيشون ويعملون بين أُناس بدائيّين. فإنّهم عمدوا إلى سائر أنواع الحِيَل البريئة ليكتسبوا عطفهم وثقتهم. ولئن كان بوسع التفاتاتٍ بسيطةٍ أن تأتي بأروع النتائج، فإنّ هفواتٍ صغيرةً كانت، على العكس، تجرُّ مآسي أليمة، كما حَصَل لمّا تمرّد الگواراني في «حاضرة» سانتا ماريا دِه فِيه على إثر حجز الرهبان عصا القيادة عن أحد الكاسيك المتّهم بسوء السلوك. فاليسوعيّون عملوا، طوال سنوات عديدة، وكأنّهم على كفّ عفريت. ذٰلك بأنّ أبناء الجيل القديم كانوا يرتابون في أمر هؤلاء «السَحَرَة» الجدد الذين راحوا يحلّون محلّ الأقدمين ويعلّمون الگواراني أمورًا مستوردةً ونمطًا من العيش مستحدثًا. ولم تكن «الحواضر» دومًا ذٰلك الفردوس الأرضيّ الآهل بـ «المتوحّشين الطيّبين» على نحو ما تخيّله جان جاك رُوسّو J.J. Rousseau، فإنّها كانت، لا سيّما في بداياتها، مراكزَ متقدّمةً حسّاسةً على حدودٍ نائية حيث يُحتَمَل وقوعُ كلّ ما ليس بالحسبان[٤٥]. وكانت

٤٥ ممّا رُوي في هذا الشأن أنّ جماعةً من الكاسيك المؤيّدين للمرسَلين في بادئ الأمر ثمّ المعادين لهم، تشاجروا مع جماعة أخرى من الكاسيك المعادين أوّلاً ثم المؤيّدين! ومثلُ هٰذا الاضطراب غيرُ مستغرَب لدى سكّان «الحواضر» فهُم قبلوا «البِيض» القادمين إليهم بأغصان الزيتون (أي المرسَلين)، وإذا بأُناسٍ «بِيضٍ» آخرين (أي البولسيّين و «المحصّلين») يوافونهم بالاستعباد والتدمير والموت. فكيف يمكنهم الثقة بهؤلاء «البِيض»، وخاصّةً كيف التمييز بينهم؟

ورُويتْ أيضًا، على ذمّة مصادر المرسلين في تلك الأيّام، حوادث اتّخذت تارةً طابع الطرافة وتارةً أخرى طابع المأساة. فقد لقي أحد الآباء يومًا رجلاً من الگواراني في حالة السُكَر وأنّبه على ذٰلك، فما كان من الرجل إلاّ أن أجابه لتوّه: «لِمَ لا نشرب النبيذ، ما دام يسوع نفسه فيه (مشيرًا بكلامه إلى خمر ذبيحة القدّاس)؟» وكانت النتيجة أن انفجر الهنود الحاضرون بالضحك، فيما اعترى المرسَل الذهول والوجوم. ←

الأعمال المستهجَنة تحصل بين الفينة والفينة ، مِن أكلٍ للّحوم البشريّة ، واغتيالات ، ومشاجرات ، وسُكرٍ قاتل ؛ وكان على المرسَلين أن يَعْمدوا إلى المزيد من اللباقة والصبر والحيلة للوصول إلى أهدافهم ، علمًا أنّه كانت أتفهُ الأسباب أو أبسط التوبيخات التي يتوجّه بها المرسَلون كافيةً لتدفع عشائرَ بأسرها إلى التمرّد والعودة إلى الحياة في الغابات. وكانت عداوة السحرة والقُدامى المتمسّكين بالتقاليد الموروثة تهدّد حياة المرسلين، وقد اغتيل فعلاً لهٰذا السبب الأب رُوكّه گونثالث ورفيقه ألونسو رودريگسِ – على ما ذكرناه آنفًا . ولم تكن مواقف الإسبانيّين الساكنين في المنطقة لِتُحسِّن الأوضاع ، لا بل كان هؤلاء ، في علاقاتهم مع سكّان « الحواضر » يزيدون في الطين بلّة[٤٦] .

٢٠٧ فمن هٰذا المنطَلق ، وعلى أساس تلك الأوضاع المعقّدة ، كان لأُولى مراحل تربية الشبيبة ، وهي التنشئة الدينيّة ، أهميّة لا تقدَّر للتأثير بشكل غير مباشر على البالغين. فكان المرسَلون ينظّمون في كلّ الأعياد احتفالاتٍ مهيبة على قدر ما تسمح به الظروف ؛ وكان صغار الگواراني يقومون خلالها بدور أساسيّ كمرتّلين وخَدَمَة للطقوس ، ممّا له أعظم الأثر على والِدِيهم ، إذ يرون أبناءهم يرتدون الألبسة الزاهية الألوان ، وقد درّبهم الرهبان على التراتيل والإلقاء الحسن ، وطوّروا شخصيّاتهم دون المساس بخصوصيّاتها. وخلاصة القول إنّ المرسلين شقّوا ، من خلال الأولاد ، طريقًا نافذًا مباشرًا إلى قلوب الهنود .

وجاء عن أحد الكاسيك أنّه رفض كلّ اتصال باليسوعيّين إلى حين رأى ابنه مرتديًا زيّ وُصَفاء الملوك ؛ فلمّا بدت له أناقة الثوب انتشى لها وهتف قال : « الآن علمتُ أنّ المرسَل يقدّرني ، فهو يحبّ ولدي » ؛ واهتدى إلى المسيحيّة !

ولم يندر أن لجأ الآباء إلى التعزيم لطرد الأرواح الشرّيرة ، وعمدوا إلى استمطار اللعنات على من يستوجبها في نظرهم ، فكانت تلك الوسائل تصيب هدفها أحيانًا فيرتعد لها الگواراني ويرعوون تائبين ؛ وأحيانًا أخرى يصنع الشيوخ والسحرة تعاويذ لدرء خطر المرسَلين الناقضين لقيمهم التقليديّة ، وأحيانًا أخرى يرفض الشبّان تعاليم الديانة الجديدة وممثّليها .

٤٦. ذكر هوبير Haubert في كتابه ...*La vie quotidienne* ، ص ١٢٥ ، أنّ المستعمرين الإسبان ، بغيةً منهم في صرف الهنود عن التنصّر ، كانوا يؤكّدون لهم أنّه بإمكانهم البقاء في « الحواضر » دون الاهتداء ، لأنّ الملك يدفع المال للمرسلين لا لتنصير الگواراني ، بل لجمعهم في القرى وحسب.

٢٠٨ أمّا نظام التربية العامّة الذي أنشأه اليسوعيّون فلم يجد ما يعترض سبيله ، وذلك لافتقار الگوارانى إلى تقاليدَ تربويّةٍ حقيقيّة خاصّةٍ بهم . وكانت العشيرة ، لا الأسرة ، هي التي توفّر فعلاً للشبّان تعليم فنون القنص والصيد والحرب ، وللشابّات التدريب على الشؤون المنزليّة . وعلى كلّ حال ، لمّا أدخل المرسلون نظامهم التربويّ الجديد ، لم يتعدّوا على دور الأسرة التقليديّ . إلاّ أنّ الواقع الجديد فرض نفسه وسرعان ما شرعت الأجيال الصاعدة تنظر بعين النقد إلى نمط عيش القدامى ، وتوبّخ بشكل علنيّ في بعض الأحيان البالغين الشاذّين عن القوانين الجديدة التي وضعها المرسلون . ويمكن تصوُّر ما وصل إليه التعليم في « الحواضر » آنذاك ، من عدد التلاميذ : فعلى سبيل المثال كان في كلٍّ من قريَتي سان إنْياثِيُو مِني ولُوريتُو ، سنة ١٦٣١ ، أربعمائة تلميذ لعددٍ من السكّان يقارب الستّة آلاف ، وهو رقم قياسيّ في تلك الحقبة وتلك المناطق ، لا بل إذا ما قُورِن بما كان عليه الوضع من هذا القبيل في أوروبّا خلال القرن السابع عشر .

٢٠٩ وكان النشاط المدرسيّ يستغرق عمليًّا وقت سائر الأولاد حتّى المساء . ففي الرابعة صباحًا – أو الخامسة إبّان الفصل البارد – يستيقظ الجميع على قرع الطبول ، وبعد قليل يطوف بعض الموظّفين الگوارانى الموثوق بهم وذوي الأخلاق الحميدة ، فيجمعون الطلاّب من بيوتهم ويقودونهم إلى الكنيسة حيث يُتْلى الفرض وتُنْشَد التراتيل ، ثم يلي الاحتفال بالقدّاس ، فالمزيد من الصلوات . ويحضر إلى الكنيسة قسم من البالغين أيضًا ، يدفعهم قليلٌ من العبادة وقليلٌ من الرغبة في التمتّع بمشاهدة أبنائهم يصلّون ويرتّلون . وبعد ذلك يتناولون طعام الإفطار ، الذكور في المدرسة والإناث خارجًا بالقرب من المدافن . ثمّ يبدأ التعليم بالذات ، مع التركيز على الأمور العمليّة ، لا سيّما في البدايات لمّا أُدخِلت إلى « الحواضر » فنون وصنائع جديدة كالحياكة والنجارة[٤٧] . إلاّ أنّه لم تُهمَل القراءة والكتابة باللغة الگوارانى[٤٨] ،

---

٤٧. كان الگوارانى ، قبل مجيء المرسلين ، لا يرتدون أيّ لباس ، فأدخل الرهبان زراعة القطن وعلّموا الهنود الحياكة والخياطة ممّا أتاح لهم صنع الأقمشة والألبسة .

٤٨. لقد تمكّن الأب رُويث مُونتويا من لسان الگوارانى بحيث استطاع تصنيف معجم لهذه اللغة .

وكذلك المحاسبة ، لأنّ تنظيم «الحواضر» من الناحيتين الاجتماعيّة والاقتصاديّة كان يتطلّب وجود محاسبين ومراقبين وأمناء مخازن. أمّا توجيه الطلاّب نحو هذه الصنعة أو تلك ، فكان من شأن المرسلين يُجرونه استنادًا إلى مؤهّلات الأفراد. وبالنسبة إلى الشبّان الموجَّهين نحو العمل في المكاتب والدواوين – كالإداريّين والموظّفين والمراقبين – ، فكانوا يُختارون على أساس ميولهم ، علمًا أن أولاد الكاسيك ينعمون ببعض المراعاة الخاصّة. وكانت هذه النخبة تتعلّم أيضًا اللغتين اللاتينيّة والإسبانيّة.

٢١٠ وحظي الغناء والموسيقى باهتمامٍ خاصّ في نظام «الحواضر» التربويّ. وكان المدرِّبون في البدء هم المرسلون أنفسهم ، إلاّ أنّ عناصر من الگواراني راحوا يَخْلِفونهم شيئًا فشيئًا. وعليه ظلّ اللسانُ المحلّيّ ، لسانُ الگواراني ، اللغةَ الرسميّة ولغةَ التداول في «الحواضر». ودُرِّست الإسبانيّة وكذلك اللاتينيّة ، إلاّ أنّ استعمالها اقتصر على التلاوة الاحتفاليّة للتعليم المسيحيّ والصلوات. أمّا النصّ المتداول لتدريس العقائد المسيحيّة فقد ألّفه الراهب الفرنسيسيّ بُولانِيُوس Bolaños باللغة الگواراني[٤٩]. وكان اليسوعيّون يقدّرون جدًّا هذه اللغة لما تتميّز به من متانة في البنية ووضوح في التفصيل وغنى في المفردات وحسن وقع في السمع ، حتّى إنّ أحد لغويّيهم ، إنْياثيو تْشُومِه – Ignacio Chomé – (١٦٩٦ – ١٧٦٨) أبدى يومًا ، في تقريرٍ رفعه إلى رؤسائه ، شديد دهشته لاكتشافه في الغابات العذراء لغةً في غاية التطوّر بمفرداتها وقواعدها. وسوف نرى فيما بعد أنّ رهبان القدّيس إغناطيوس اهتمّوا بالمحافظة على هذا اللسان وأمّنوا تطوّره.

٢١١ وكانت الجماعة تهتمّ أيضًا بتربية الفتيات. فشأنهنّ شأن الفتيان ، يتلقّين التعليم في المدرسة بحيث يُجِدْنَ القراءة والكتابة ويتدرّبنَ مهنيًّا وعمليًّا لا سيّما في مجالات الطبخ والخياطة والتطريز. وكان معلّموهنّ ، أو قُل معلّماتهنّ ، من الگواراني أيضًا ، يتمُّ اختيارهنّ بموجب اعتبارات السنّ والأخلاق. وتدوم فترات الدراسة إلى بعد الظهر مع توقّف للطعام في وسط

---

٤٩. وقد وافق عليه مجمع ليما سنة ١٥٨٣.

النهار، ثمّ يذهب التلامذة إلى الكنيسة لتلاوة السبحة وفَرْض المساء وطلبة القدّيسين؛ ويعود الجميع بعد ذلك إلى منازلهم حيث يمضون ما تبقّى من الوقت في الراحة، مستمتعين بحدّ أدنى من الحياة العائليّة.

٢١٢ وكانت تربية الجنسين تتمّ على نحو ما كان سائدًا في أوروبّا آنذاك، أي بالفصل التامّ بينهما. ففي الكنائس أنفسها مدخلان مختلفان ومجلسان مختلفان للنساء والرجال؛ وحتى في المقبرة كان للذكور والإناث، كبارًا أو صغارًا، مدافن خاصّة منفصلة...

* * *

بالنسبة إلى البالغين، كان نهارهم منظّمًا بدقّة، نظّمه المرسَلون[٥٠]. فيبدأ في الرابعة صباحًا وينتهي في السادسة مساءً. وخلافًا لما يتبادر إلى الذهن لدى مطالعة الكثير ممّا كتبه المرسَلون، لم يكن النشاط الزراعيّ معدومًا في الماضي لدى الگوارانى: فإنّهم عمِلوا لصالح الكاسيك – الذين كانوا، بحسب التقاليد، أصحاب أراضي العشيرة –، وإذا ما توفّر لهم وقتٌ إضافيّ وبعضُ الهمّة، عملوا لأنفسهم. إلاّ أنّ الانتقال الى الحياة في «الحواضر» نقل الزراعة أيضًا من كونها نشاطًا هامشيًّا إلى شغلٍ أوّليّ يفترض أساليب جديدةً وأوقاتًا للعمل. فحياة العشيرة إبّان طور البداوة لم يكن فيها متطلّبات تُذكَر، في حين أنّ الحياة المنظّمة داخل «الحواضر» كانت تضاعِف تلك المتطلّبات، لا سيّما أنّ قسمًا لا يُستهان به من السكّان كان ملتزمًا في مرافق «الخدمات»، وبالتالي لم يمكنه المساهمة المباشرة في الإنتاج.

٢١٣ أوّل المنطلقين في العمل مع طلوع النهار هم موظّفو الخدمات الصحيّة. فيأخذ المعاونون الصحيّون، وهم أربعة أو ستّة من الگوارانى لكلّ «حاضرة»، يطوفون من بيت إلى بيت للاطمئنان عن صحّة الجميع. ثمّ يخبرون المرسَلين إن كان ثمّة حاجة إلى منح الأسرار لمن هم في خطر، أو إن لاحظوا بعض الأمراض ليسعوا إلى مداواتها. وفي حال وجود أمراض مريبة،

٥٠. ألّف اليسوعيّون لهذه الغاية كتيّبًا أسموه «حُسن استعمال الوقت».

يُعزَل المصابون في أكواخ خارج «الحاضرة» أو في مستشفى ضمن القرية. وأولى اليسوعيّون الشؤونَ الصحّيّة بالغ اهتمامهم: فالگواراني، شأنهم شأن سائر الهنود في أميركا، كانوا، بسبب حياتهم في أحضان الطبيعة، مَوفُوري الصحّة، لا وجود يُذكر بينهم للأمراض المميتة سوى أمراض الطفولة، بالإضافة إلى... الشيخوخة؛ بيد أنّهم كانوا دون مناعة في وجه الأمراض التي استوردها الأوروبّيّون. وعلى سبيل المثال، فَتَكَ بهم انصرافُهم إلى أكل لحم البقر، لا بل إدمانُهم إيّاه، فتكًا ذريعًا لِما جَرَّ معه مِن أمراض في الأمعاء. ومن الأوبئة التي حملها الأوروبّيّون معهم أيضًا الجدريّ والحصبة.

٢١٤ وكان المرسَلون يقومون بدور الأطبّاء قدرَ المستطاع. فممّا رُوي من هٰذا القبيل أنّه في سنة ١٦١٦ صنع الأب خُوان ده سُولاس Juan de Solas شرابًا شفى سكّان سان إنْياثِيُو گُواثُو المصابين بداءٍ وبائيّ تفشّى بينهم في مجاري التنفّس. وفي منتصف القرن السابع عشر أنشأ الأب كرِيسْتُوبال أَلْتامِيرانُو Cristobal Altamirano في كَنْدِلَرِيا صيدليّةً تؤمّن الأدوية لسائر «الحواضر». كما أنّ ثلاثة إخوة مساعدين، دِييگُو بَسُّوارِي Diego Bassuari وأنطونيو رُودْرِيگث Antonio Rodriguez في أسونثيون، وفرَنْثِيسْكُو كُوتُو Fr. Couto في سان إنياثيو گواثو، قاموا خلال النصف الأوّل من القرن السابع عشر بدور الأطبّاء المتنقّلين بين مختلف «الحواضر». فإنّهم، وإن لم يكونوا أطبّاء رسميّين يحملون الشهادة المختصّة، إلاّ أنّهم كانوا ممرِّضين متمرّسين. أمّا في النصف الثاني من القرن السابع عشر، فقد كان للإرساليّات أطبّاء حقيقيّون، أوّلهم الأخ المساعد خُوان ده مُونْتِس Juan de Montes وهو جرّاح ممتاز. وعُرِف طبيب يسوعيّ آخر هو الأخ دُومِنْگو تُورِّس Domingo Torres، وكان إلى ذٰلك عالمًا بالأعشاب.

٢١٥ في أواخر القرن السابع عشر صار «للحواضر» إدارة صحّيّة متكاملة تعتمد على ثلاثة نطاسيّين: أحدهم يقيم في كَنْدِلَرِيا، والثاني في سان نِقُولاس، والأخير قليلاً إلى الشمال في «حواضر» التشيكِيتُوس. وكان الطبيب الثالث هٰذا، طوال سنوات عديدة، أخًا إيطاليًّا من مِيلانُو يُدعى إنْرِيكُو آدَمي Enrico Adami. ولقد حدث في الواقع أنّ المسؤولين عن الشؤون

الطبيّة في «الحواضر» كانوا في أغلبيّتهم الساحقة – باستثناء الأوائل، وهم إسبانيّون – من إيطاليا أو من بلاد أوروبّا الوسطى[٥١]. ثمّ أخذ أطبّاء الإرساليّات يعلّمون معاونيهم من الگواراني ويدرّبونهم على فنون التمريض بحيث يسهرون على الصحّة العامّة ويؤمّنون نوعًا من المساعدة في الحالات البسيطة. وفي سنة ١٧٢٥ نشر الأخ پيدْرُو مُونْتِينِيگْرُو P. Montenegro نصوصًا موجّهةً إلى المعنيّين بالصحّة العامّة، تعالِج شؤون الطبّ والجراحة والأدوية والنباتات، وطُبع جزء من هذه المنشورات بالإسبانيّة والجزء الآخر بلغة الگواراني. وفي كلٍّ من «حاضرتَي» ياپيو وكندلريا أُنشئَ مستشفًى بكلّ معنى الكلمة لإيواء المرضى في أزمنة الأوبئة، على الرغم من معارضة الگواراني لعمليّة الإيواء هذه، إذ كانوا، عند تفشّي الوباء، يؤثرون الرحيل إلى الأرياف لئلاّ يُصابوا بالعدوى إن كانوا أصحّاء، أو لتحاشي نقلَ المرض إلى سواهم إنْ كانوا مصابين، فتبْني كلُّ أسرةٍ ملجأً لها مؤقّتًا تهجره ثمّ تحرقه كلّما توفّي مريض.

٢١٦ كلمةٌ أُخرى عن الاحتياطات الصحيّة في «الحواضر»: لقد جُعِلت المقابر خارج الكنائس ودُفن اليسوعيّون أنفسُهم فيها خلافًا لعادة تلك الأيّام حيث كان الرهبان يُدفَنون داخل أماكن العبادة.

٢١٧ ونعود إلى البرنامج اليوميّ. فبعد زيارة موظّفي الصحّة، يذهب الرجال إلى أعمالهم في الحقول أو في المحترفات والمصانع، كلٌّ بحسب اختصاصه. فالمزارعون، تعاونهم النساء، يعملون في حقولهم الخاصّة ليستحصلوا منها ما يُعيلون به ذويهم؛ والعمّال والحرفيّون يعملون في «المنطقة الصناعيّة» ويقبضون أُجرتهم من الجماعة. ويومين في الأسبوع، يقدّم الجميعُ عملهم لزراعة الحقول المشتركة التي عليها المعوَّل لتأمين احتياجات «الحواضر». وهذه الأشغال الزراعيّة سواء في الحقول الفرديّة أو في الجماعيّة، خضعت بادئَ الأمر

---

٥١. في عام ١٦٣٢ طلب رئيس «الحواضر» أن يُرسَل إليه أربعة إخوة مساعِدين متنقّلين، متخصّصين «في الزراعة والخياطة والرسم، وآخر له إلمام بالنباتات والطبّ والحجامة والتمريض». وفي سنة ١٧٠٧ عُيِّن «طبيب عامّ» لـ «حواضر» البرَنَا و «طبيب عامّ» آخر لـ «حواضر» الأوروگواي الأعلى.

لمراقبة المرسَلين الشخصيّة والمباشرة، ثمّ أخَذَ الموظَّفون الهنود يحلّون شيئًا فشيئًا محلّ اليسوعيّين. وممّا يُستنتَج من أخبار الرهبان ورواياتهم أنّ الگواراني لم تجذبهم النشاطات الزراعيّة، ولم ينصرفوا إليها إلاّ مكرَهِين مراقَبين. وتلك اللامبالاة بالعمل الزراعيّ المنظّم مَردّها إلى كون اقتصاد الگواراني التقليديّ مركّزًا بشكلٍ أساسيّ على القطاف والصيد والقنص، اللّهمَّ باستثناء بعض المزروعات الموسميّة. لذا لم يكن في الإمكان حَمْل الهنود على القبول، خلال فترةٍ زمنيّة قصيرة، بنمطٍ من العيش جديد، وبواقعٍ اقتصاديّ مستحدَث يتطلّب التزامًا دائمًا بالأرض. إلاّ أنّ ثمّة عمليّةً زراعيّة كانت تلاقي إقبالاً لدى أهلِ «الحواضر» هي قطاف عشبة الماتِه، وكانت تنمو بصورةٍ عفويّة في المنطقة وتُستَعمل، كما رأينا سابقًا، لتحضير مشروبٍ كثيرِ الرواج، كما أنّها كانت مادّةَ التصدير الأساسيّة من «الحواضر» إلى سائر مستعمرات جنوب أميركا.

٢١٨ ولئن صعب على الگواراني التكيّف مع شؤون الزراعة، فسرعان ما انسجموا مع أمور الصنائع والفنون، وذلك بفضل ميولهم الطبيعيّة وبراعتهم، ولأنّه بوسع أصحاب الحِرَف أن يَروا لِتوِّهم ثمرةَ أعمالهم، في حين يعمل المزارعون على المدى الطويل. وكانت النسوة، بعد انصرافهنّ إلى الشؤون المنزليّة ومساعدة رجالهنّ في زراعة أراضي الأسرة، يجدنَ متّسعًا من الوقت للحياكة، وذلك لأنّ النظام التربويّ في «الحواضر» كان، على ما رأينا آنفًا، يُبعد الأولاد عن البيت طوال جزء كبير من النهار. وفي الأيّام المخصّصة للأعمال الجماعيّة، أو في مناسبة الاحتفالات والأعياد، كانوا يتناولون الطعام معًا على موائد مشتركة تضمّ سائر الأهلين. وعليه كانت الفترة المتاحة للحياة العائليّة تقتصر على ساعات المساء، كما هي الحال اليومَ في المجتمعات المصنَّعة.

* * *

٢١٩ وكان جميع سكّان «الحواضر» مدعوّين بإلحاح إلى حضور القدّاس، وأصبحت هذه الدعوة شبهَ فرضٍ لمّا اكتملت عمليّة التنصير. وكان القدّاس احتفاليًّا في الصباح، يليه قدّاس آخر أبسط مخصّصٌ بالدرجة

الأولى للمرضى. ثمّ تُعقَد الاجتماعات في الساحة العامّة، غالبًا ما تَناقَش فيها قضايا الجماعة، وتقام الألعاب، لا سيّما اللعب بالكرة حيث يُظهر الگواراني لباقةً ومهارة. وفي تلك المناسبات يجيش في الهنود هيامهم العريق بالرقص، فيَسمح لهم المرسلون بذلك، وإنْ على مضض، ليتاح لهم التعبير عن حيويّتهم على إيقاع الأغاني والموسيقى. وقد احترم المرسَلون، طوال بقائهم مع الهنود، هذه المظاهر من الثقافة المحلّيّة المتجلّية بالموسيقى وما يواكبها طبيعيًّا من الرقص المنتظم. وذهب اليسوعيّون إلى حدّ توفير دروسٍ أسبوعيّة في الرقص يتلقّاها الشباب والصغار على يد المتمرّسين فيتدرّبون للمشاركة، أيّامَ الأعياد، في رقصاتٍ تصويريّة ورمزيّة فنّيّة سعى الرهبان من خلالها إلى ضبط حيويّة الگواراني الفيّاضة. ولم تنظَّم مظاهر التسلية تلك بشيءٍ من الشدّة إلاّ عامَ ١٦٨٩ مع إعلان النظام العامّ الثاني «للحواضر»، فحُدِّدت الرقصات المسموح بها في كلّ يومِ عيدبأربعِ فقط، ومُنِع التنكُّر في الملابس واختلاطُ الجنسين.

٢٢٠ وأُقيمت في «الحواضر» الكثير من التمثيليّات. ولم يكن ثمّة مسارح ثابتة، بل كانوا ينشئونها في المناسبات، ثمّ يزيلونها. ويجلس في الصفوف الأماميّة على الكراسيّ المرسَلون والأعيان، في حين يقعد المشاهدون الآخرون على الأرض. وتبدأ العروض بتمثيليّات هادفة تقويّة مِن وحي سِيَر القدّيسين، يليها الهزليّات الخفيفة. وكانت اللغة المستعملة على المسرح لغة الگواراني؛ أمّا المؤلّفون، فالمرسلون. وممّا يؤسَف له أنّه لم يصلنا من تلك المسرحيّات سوى جزء مِن واحدةٍ بعنوان «مأساة آدم» تَناقَله مشافهةً أبناءُ سكّان «الحواضر» ودوَّنه في القرن التاسع عشر احد أرباب العلم والسياسة في البرگواي، دُون ميگال كُونْدرا Miguel Condra. والمسرحيّة المذكورة تروي سقوط آدم في الخطيئة الأصليّة، مع مداخلاتٍ لله والشيطان والملائكة وآدم وحوّاء، مشفوعةٍ بحوارٍ لا يخلو من الحيويّة يدور معظمه بلغة الگواراني، إضافةً إلى بعض الجُمَل والعبارات باللاتينيّة والإسبانيّة.

٢٢١ وكانت الأعياد الكبيرة مناسباتٍ لإقامة طقوس دينيّة وتطوافات احتفاليّة تمتاز بالأُبّهة وحسن التنظيم، ممّا يعشقه الگواراني. وأهمّ تلك

المناسبات خميس الجسد والأسبوع العظيم وعيد القدّيس شفيع «الحاضرة». إلى جانب ذلك كان ثمّة أعيادُ سائر الجمعيّات والأخويّات، التي حرص المرسَلون على تأسيسها لإذكاء روح التقوى، ولإنشاء فئاتٍ اجتماعيّةٍ بديلةٍ للعشائر، ولخَلق مراكز وجاهةٍ للذين «يستحقّونها» ولم يُتَح لهم الدخول في عداد الموظّفين الرسميّين. أمّا أكثر الأخويّات انتشارًا وشعبيّةً فالأخويّة المريميّة وأخويّة القدّيس ميخائيل، والثانية هذه خاصّة بالشبيبة. ومن الجمعيّات الكثيرة الانتشار جمعيّة السيّدة العذراء، التي تُعنى بالمرضى، وجمعيّة «الميتة الصالحة»، التي من مهامّها إحياء الطقوس الاحتفاليّة في المآتم ممّا يُعلي شأن الموت لدى الهنود، وكانوا بالحقيقة يأنفون جدًّا من التفكّر في الموت وما إليه.

٢٢٢ وتجدر الإشارة في الختام إلى أنّ مغارة الميلاد كانت مناسَبةً مميَّزة لاجتذاب الجماعة بأسرها وحثّها على التقوى.

وخلاصة القول فإنّ المرسَلين سعوا إلى تغليب الناحية الجماعيّة على الفرديّة، لا في الشؤون الاقتصاديّة فقط، بل في استعمال أوقات الفراغ أيضًا.

* * *

٢٢٣ ولم يكن الرهبان أنفسهم أقلَّ انشغالاً من سواهم. ينصرفون باكرًا إلى التأمّل والقدّاس وسماع الاعترافات، ثمّ يُعطُون توجيهاتهم الخاصّة للموظّفين في ما يؤول إلى نشاطهم اليوميّ، ويوزِّعون عشيّةً الماتِه على أرباب العائلات؛ وكانوا شديدي الحرص على نشر استعمال هذا الشراب ليستأصلوا بذلك معاقرة الهنود لمشروب «الشيشا» الكثير الكحول والمضرّ في صحّة الناس والنظام. وبعد ذلك يعودون المرضى لمساعدتهم على الصعيدَين الجسديّ والروحيّ، ويشرفون على التعليم الدينيّ، ويراقبون سير الأعمال اليوميّة، ويحلّون المشاكل الطارئة. وبعد الغداء يخصّص المرسَلون بعض الوقت ليناقشوا فيما بينهم قضايا «الحاضرة»، ثمّ يقومون بقراءاتٍ روحيّة ويحرِّرون التقارير التي يُطلَب منهم رفعها بشكلٍ دوريّ إلى رؤساء الإرساليّات. وفي المساء تقام شعائرُ دينيّةٌ أُخرى كتلاوة السبحة الورديّة وصلاة الفرض وطلبة القدّيسين، ثمّ توزَّع الماتِه مرّةً ثانية، وفي بعض أيّام الأسبوع توزّع اللحوم.

٢٢٤ وكان المرسَلون خاضعين لنظامٍ صارم، يراقِب أحدهم الآخر فيوجّه إليه الملاحظات عند الضرورة أو يرفع الأمر إلى الرئيس[٥٢]. والرئيس مفروضٌ عليه أن يزور «الحواضر» أقلّه مرّةً في السنة، يرافقه معاونوه «المستشارون». والمراقبة كانت على الغالب في الشؤون الأخلاقيّة والمسلكيّة: فعلى سبيل المثال، العلاقات مع النساء مقتصرة على الحدّ الأدنى الضروريّ، ولا يمكن المرسَل أن يستقبلهنّ إلاّ في الكنيسة وبحضور موظّف من الگواراني يقوم على مسافةٍ تتيح له رؤية ما يجري، دون السماع. ولم تنحصر هذه المراقبة في ميدان الأخلاقيّات، بل امتدّت إلى صعيدِ سائرِ العلاقات مع الگواراني. فلم يندر أن تمّ نقْلُ بعض الرهبان بشكلٍ مفاجئ لأنّهم حُسِبوا غيرَ قادرين على إقامة العلاقات المناسبة مع الهنود.

* * *

٢٢٥ آناءَ الليل يسود مَنعُ التجوّل ولا يجوز لأحدٍ الخروجِ من «الحاضرة» ولا حتّى من داره. وتجوب الدوريّات الليليّة أزقّة القرى وتوقف المخالِفين، ثمّ يَرفع المسؤولون عن الأمن تقريرهم إلى كاهن الرعيّة ملفتين انتباهه بسرعةٍ حالما يبدو لهم أيّ مظهر غير عاديّ أو أيّة بادرة اضطراب. وتُقرع الطبول على دفعاتٍ ثلاثٍ في أوقاتٍ محدَّدة من الليل ليستطيع أصحاب بعض الوظائف التنبّه ومعرفة الساعة. ولقد ذهب بعض مروّجي الأخبار المستغرَبة إلى أنّ تلك العمليّة إنّما درّجها المرسَلون لتذكير الگواراني

---

٥٢. إنّ في هذا القول من التبسيط ما يُفضي إلى التحريف. والواقع غير ذلك. فقد ورد في الفقرتين التاسعة والعاشرة من «مختصَر القوانين الأساسيّة» للرهبانيّة اليسوعيّة ما نصّه:

«٩ – يجب على كلّ واحد أن يرتضي، في سبيل تقدّمه في الفضيلة ولا سيّما في الخضوع والتواضع، بأن تُكشَف للرؤساء، على يد أيّ شخصٍ كان، كلُّ زلاّته وهفواته وكلّ ما بدا منه ممّا عُرِف خارج الإعتراف.

١٠ – لِيَستحسِن الجميع أن يُصلحهم غيرُهم وأن يساعدوا الآخرين على إصلاح ذواتهم. فَلْيكونوا إذن مستعدّين لأن يُطلع بعضُهم بعضًا على دخائل نفوسهم، ويعاملوهم بالمحبّة والمؤاخاة سعيًا وراء تقدّمهم الروحيّ ولا سيّما حينما يأمرهم بذلك أو يسألهم إيّاه الرئيس الموكول إليه أمرُهُم، لمجد الله الأعظم» (المعرِّب).

بواجباتهم الزوجيّة فيتكاثروا. وإنّها لعمري مَقُولَة لا تقوم على أساس ولا تستند إلى برهان.

هـ - سياسة الانعزال

٢٢٦ مِنْ نُظُم «الحواضر» التي كثُر حولَها النقاش وحَمِيَ الجدال، ما عاشت فيه تلك القرى مِن انعزالٍ شبهِ تامٍّ عن سائر المستعمرات في أميركا الجنوبيّة. هٰذا الانعزال وُجد، على ما رأينا سابقًا، قبل تأسيس إرساليّات البرگواي، بيد أنّه طُبِّق هنا بشكل أشدّ صرامةً منه في الأماكن الأخرى، سواء على أثر العزلة الجغرافيّة أو بسبب ما يتطلّبه واقع «الحواضر» من دفاع عن الذات. ففي سنة ١٥٢٩ أشار مطران مدينة مكسيكو، خُوان دِه ثُومارّگا Juan de Zumárraga، على الملك أن يمنع الإسبانيّين من البقاء في قرى الهنود ما يزيد على نهارٍ واحد، خشيةَ أن يُلحقوا بسكّانها ضررًا أو يسوموهم المعاكسات والمضايقات، وفي الوقت نفسه لتَحاشي أسباب الشغب والعصيان. وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٥٣٦ صدرت مذكِّراتٌ تحظِّر على الإسبانيّين النزول في قرى الهنود مدّةً تتعدّى اليومين، تحت طائلة دفع غرامةٍ قدرها ٥٠ پِسُوسًا ذهبًا عن كلّ يومِ مخالفة. وصدرت عام ١٥٣٩ تعليمَاتٌ مماثلة بإيعاز من نائب الملك في المكسيك أنطُونيُو ده مِنْدُوثا A. de Mendoza. ثمّ ثُبِّتت هٰذه التدابير بقرار ملكيّ سنةَ ١٦٠٠، مع اختلافٍ بسيط تُرفَع بموجبه مدّةُ الإقامة المسموح بها من يومين إلى ثلاثة أيّام. وأُدرجت هٰذه القرارات في «مجموعة قوانين البلاد الهنديّة» الصادرة عام ١٦٨٠. - أمّا بالنسبة إلى البرگواي. فقد وَضَعت مذكِّراتُ ألفارو، سنةَ ١٦١١، قيودًا على دخول الإسبانيّين إلى «الحواضر» عامّةً وعلى «حواضر» الرهبانيّة اليسوعيّة بنوع خاصّ.

٢٢٧ وجاءت تدابير اليسوعيّين تُضاف إلى قرارات السلطات المدنيّة. ففي سنة ١٦٠٩ كتب الأب دييگو ده تُورِّس بُولْيُو، أوّل رئيس لإقليم البرگواي، إلى المرسَلَين في الگوايرا، الأبوين كَتَلْدِيني ومَشِتّي، يقول: «يجب أخذ الإجراءات اللازمة لئلاّ يدخل الإسبانيّون القرية، وإن هم دخلوها فلا يُلحقوا بالهنود أذًى وليخرجوا بسرعة». وفي السنة التالية بعث

الرئيس المذكور إلى إرساليّات الگوايْرا والپَرَنا والگوايْكُورُوس تعليماتٍ مشابهة. وازدادت احتياطات اليسوعيّين بازدياد عدد «الحواضر» وأهميّتها، إضافةً إلى القضايا الأمنيّة. ففي سنة ١٦٩٧ أذاع رئيس إقليم البرگواي، الأب سِيمُون دِه لِيُون Simon de León، أوامر من الرئيس العامّ تِيرْسِه گُونْثالِث تقضي بألاّ يربو مُكوث الأجانب في «الحواضر» على ثلاثة أيّام؛ ثمّ قرّرت الرهبانيّة سنة ١٧٠٠ منع سائر الأجانب من الدخول إطلاقًا إلى «الحواضر». وجُدِّد هذا القرار عامَي ١٧٢٢ و ١٧٢٤، ولم يُسمَح بالشواذات إلاّ بعد إذنٍ خاصّ من رئيس الإقليم.

٢٢٨ ومن هذه الاستثناءات استضافة أعضاء الرهبانيّات الأخرى، واستقبال الرؤساء الكنسيّين والموظّفين الإسبانيّين ذوي المهمّات الرسميّة، والفنّيّين المدعوّين للقيام بأعمالٍ لصالح الإرساليّات. وسُمح بالإقامة المستمرّة لبعض الاختصاصيّين في تربية المواشي. وهنا لا بدّ من ذكرٍ خاصّ لما سُمّي بـ «القرى السُفلى»: سان إنْياثيو گُواثُو، وسانتا ماريا دِه فِيه، وسانتا رُوسا، وسانتياگو، بالإضافة إلى سان كُوسمِه وإيتاپُوا. فقد كانت هذه «الحواضر» أقرب القرى إلى المراكز الإسبانيّة في البرگواي. وتمتدّ على طول الطريق الذي يسلكه التجّار للدخول إلى البلاد أو الخروج منها باتّجاه الريو ده لاپلاتا. وكانت هذه الإرساليّات مزدهرةَ التجارة، لا سيّما تجارة عشبة الماتِه والمواشي والمنسوجات، ممّا فَرَض على اليسوعيّين التساهل في إقامة الباعة، خاصّةً وأنّهم كانوا يواجهون مضاربة المنتِجين في فِلْيا رِيكا Villa Rica وفي «حاضرتَيْ» الفرنسيسيّين يُوتِي وكاآپا القريبتين.

٢٢٩ وكان اليسوعيّون يخشون اختلاط الاسبانيّين والگواراني المستمرّ، لِما يجرّ معه من إفساد لعوائد التقشّف التي كانوا يسعون إلى إدخالها في «دولتهم»، ولِما يتبع ذلك من اضطراب في النظام العامّ. وكانوا يخافون بنوع خاصّ من إمكانيّة تَحرُّش الأجانب بالنساء الگواراني، ممّا يؤدّي إلى ردّات فعل عنيفة من قِبَل الهنود. ولقد شاطَرَ اليسوعيّين همومَهم هذه، السلطاتُ الكنسيّة لا سيّما في بوينس آيرس. فإنّ أسقف المدينة المذكورة، پيدرو فَخارْدُو Pedro Fajardo أرسل إلى ملك إسبانيا في ٢٠ أيّار ١٧٢٤ تقريرًا

لاحظ فيه أنّ تديّن الكواراني في «القرى السُفلى» أقلُّ منه في «حواضر» الداخل، وأنّ النظام فيها أقلّ صرامة. ذلك بأنّ الاتّصالات على المدى الطويل، في الأمور التجاريّة وسواها، بين الإسبانيّين والهنود، كانت تؤثّر على هؤلاء وتقلّل من طواعيّتهم وإذعانهم للمرسلين، على نحو ما كان يحصل لدى خروج الگواراني من «حواضرهم» للمشاركة في عمليّات حربيّة إلى جانب الإسبانيّين: فإنّهم كانوا يعودون إلى قراهم وقد سرى إليهم عامل التبدّل، وتدنّى في سلوكهم مستوى الانضباط.

٢٣٠ وفي أزمنةٍ لاحقة متأخّرة، حوالى منتصف القرن التاسع عشر، زار أحد الرحّالة الفرنسيّين، ألْسِيد دُورْبِينْيِي Alcide d'Orbigny، ما سبق وكان إرساليّة اليسوعيّين لدى التشيكيتوس في البيرو الأعلى، فلاحظ ما يلي: «ممّا يؤسف له أنّ تردّي الأخلاق بلغ هنا الدرك الأسفل. ويبدو أنّ الأمور لم تكن على هذه الحال في أيّام اليسوعيّين؛ إلاّ أنّ المكان أصبح بعد طرد الرهبان مقرًّا لجنود الإسبان، فأدخلوا فيه الخلاعة والتهتّك وأسوأ العادات، ولا أثر بعدُ للحشمة واحترام الذات، بل تجاوزت قلّةُ الحياء كلَّ الحدود». فلِحَصْر العلاقات بين الگواراني والأجانب، شُيِّدت في «القرى السفليّة» فنادقُ لنزول التجّار، يحلّون فيها ضيوفًا على الجماعة. وكان «القيّمون» يتّصلون بهم هناك ويعقدون معهم الصفقات لحساب «الحواضر»، كما كان الأفراد أيضًا يتاجرون معهم، بعد نيل الإذن من كاهن الرعيّة. وكان الضيوف ملزَمين باحترام الفترة المحدّدة لإقامتهم، وهي ثلاثة أيّام على أقصى حدّ، ويسهر «القضاة» على منع التجاوزات.

٢٣١ وثمّة سببٌ آخر دفع اليسوعيّين إلى التشدّد في تطبيق سياسة الانعزال، هو خوفهم من «المحصول»، وكان المستعمرون يسعون دومًا إلى فرضه على هنود «الحواضر»[٥٣]. فلو أُدخِل هذا النظام إلى قرى الگواراني، لَعَنَى ذلك نَقْضَ عَهدٍ رسميّ قُطع لأهل «الحواضر» في أوائل القرن السابع

٥٣. نذكر على سبيل المثال أنّه صدر في الأوّل من نيسان ١٦٥٤ عن المجلس البلديّ في أسونثيون قرار يقضي بفرض نظام «المحصول» على الگواراني. فيعاملوا مثل سائر الجماعات الهنديّة؛ وفي ذلك استخفاف واضح بما قدّمته السلطة الملكيّة من ضمانات.

عشر وأُعيد تثبيته باستمرار ، ولَتسبَّب بردّات فِعلٍ عنيفة من جهة الهنود ، ولأدّى إلى خراب « الحواضر » على الصعيد الاقتصاديّ . ولدينا أمثلة بليغة عمّا جلبه « المحصول » من عواقب وخيمة على جماعاتٍ هنديّة أُخرى في البرگواي ؛ منها ما ذكره مطران بوينس آيرس ، خوسِه أنطونيو بِرلْتا ، في كتابٍ بعث به إلى الملك فيليبّس الخامس في ٨ كانون الثاني ١٧٤٣ فيقول إنّ « المحصول » يُفقر الجماعات الهنديّة بشكل رهيب ، ويحرمهم الحدّ الأدنى من القوّة على العمل ، ويصيبهم بالعقم الروحيّ . ثم يقارن الأسقف بين « حواضر » اليسوعيّين و « حواضر » الفرنسيسيّين فيشير إلى أنّ هٰذه أفقر من تلك وأقلّ سكّانًا ، والسبب بحسب رأيه هو « أنّ الهنود في « الحواضر » الفقيرة يَخضَعون للمحصِّلين الذين يبعدونهم عن ممارسة الشعائر الدينيّة ولا يتركون لهم الوقت لزراعة حقولهم الخاصّة » . وعليه فمن الطبيعيّ أن يكون اليسوعيّون قد اجتهدوا ، ما استطاعوا ، في تقليص علاقاتٍ هي خطرٌ ممكن على متانة ما شيّدوه في مجالَي الدين والسياسة .

* * *

٢٣٢ إنّ سياسة عزل الجماعات الحديثة التنصُّر ، سواء عن غير المؤمنين أو عن الأوروبّيّين ، لم تكن مقصورةً على أميركا اللاتينيّة . فهي ، وإن وافقت الظروف الخاصّة بتلك القارّة ، إلاّ أنّها كانت تنبع من مفهومٍ أوسع للحَجْر الروحيّ . ذٰلك بأنّ سكّان البلدان الحديثة الاحتلال كانوا يواجهون الموت الجسديّ لو نَقَل إليهم المستعمِرون الأمراض التي حملوها معهم من وراء البحار . ثمّ إنّ الشعوب المنتسِبة إلى المسيحيّة منذ وقت قصير ، بدافع من تأثيراتٍ جماعيّةٍ خارجيّة لا عن قناعات واهتداءات فرديّة ، كانت معرّضةً لتبديل خطّتها على أثر خبرات سلبيّة تعود إلى علاقاتهم بجماعاتٍ محلّيّة بقيت على سابق معتقداتها ، أو إلى اتّصالهم بالأوروبّيّين أصحاب فرض ضريبة « الخدمة الشخصيّة » الذميمة . وبعبارةٍ أُخرى ، كان المرسَلون يحسبون الجماعات الحديثة العهد بالمسيحيّة أشبهَ بنبتاتٍ سريعة العطب ينبغي حمايتها وتنميتها في بيوتٍ من زجاج .

٢٣٣ مِن البلدان التي مارس فيها المرسَلون سياسةَ العزل هٰذه ، جُزرُ الفيليبّين حيث نَصَّ الشرعُ الإسبانيّ على فرزٍ بين السكّان شبيهٍ بما حُقِّق في أميركا ؛ وكذٰلك الهند حيث كان للبرتغاليّين بعض الممتلكات في منطقة گُوا Goa وبُومباي ، ما عتّم المرسَلون أن وصلوا إليها . فقد أسّس اليسوعيّون قرب بومباي إرساليّةً أسموها «قرية الثالوث» ، وأصبحت فيما بعد مدينة پُوڤاي Povai . وروت تواريخ الرهبانيّة اليسوعيّة أنّه «في ١٥٥٧ امتلك الأب گُونْثالُو رُودْرِيگِس Gonçalo Rodriguez ، بموافقة العاهل المحلّيّ ، غابةً وحقولاً بُورًا قابلةً للزراعة . وجاء من بلدةٍ قريبة بمسيحيّين حديثي الاهتداء ، فوزّع عليهم الأراضي ليستطيعوا ، بمحصولها وبالأسماك التي يصطادونها في نهرٍ غير بعيد ، إعالة أُسَرهم» فضلاً عن الجيران العاجزين عن العمل ، ممّا يُدخل إلى أذهانهم مفهوم التضامن . «ثمّ اشتُريتْ الثيران والمحاريث وسواها من آلات الزراعة ، وكلّها صار في ملكيّة الجماعة [...] . وازدهرت المستوطنة الجديدة ازدهارًا جعل عدد سكّانها يزداد ، في أقلّ من سنةٍ واحدة ، من خمسين إلى خمسمائة . وبلغ بَعدَ سنواتٍ معدودة الثلاثة آلاف . وكانوا جميعهم من المتنصّرين المهتدين ، ويعيشون جميعهم من عملهم ولا مكان عندهم للعاطلين الكسالى [...] . وظلّ عدد السكّان يزداد على مرّ السنين ، فدعت الحاجة إلى إقامة القضاة وإصدار القوانين [...] . ولمّا كان الهدف الأهمّ لتلك المؤسّسة هو تكوين جماعةٍ مسيحيّة خالية من كلّ ما يشوب نقاوة الإيمان وطهارة السِيرة ، فقد واجه المرسلون متاعب كثيرةً لتعليم رعاياهم حقائق الدين ووصايا الله والكنيسة ، ولحثّهم على السعي وراء خلاص نفوسهم . وكانوا كلّ يوم ، في ساعة معيَّنة ، يعلّمون الأولاد مبادئ الديانة ، ثم يعلّمون النساء والرجال ، كلُّ فئةٍ على حدة . وعند غروب الشمس تجتمع سائر الأُسر ، فتُتلى العقائد المسيحيّة بصوتٍ عالٍ ، ويبرِّز في ذٰلك الأولاد ، ويقومون بتعليم والدِيهم [...] . وكان هؤلاء المسيحيّون يعيشون على مستوًى من الاتّحاد رفيع ، بينهم مِن التلاحم ما يدفع إلى الظنّ أنّ القرية كلّها أُسرة واحدة وبيت واحد . كلّ شيءٍ ثمّة كان يشعّ البراءة والبساطة ، ولم يكن للتجارة أو الثروة من أثر ، ولم يسمحوا لأحدٍ منهم أن يعيش إلاّ من عمله . كما أنّه لم يكن

هنالك مَن سَبَقهم إلى المسيحيّة ليكون لهم حَجَر عثرةٍ في سبيلهم إلى إطاعة وصايا المسيح». وقد ازدهرت «قرية الثالوث» حتّى سنة ١٧٤٠ حيث اجتاحها المَهَراتا وأزالوا من منطقة بومباي كلّ أثرٍ للبرتغاليّين. وإنّ أوجه الشبه لَكثيرةٌ بين التجربة التي أُجريتْ في «قرية الثالوث» وأساليب التبشير التي اتّبعها اليسوعيّون في البرگواي: مِن توجيه التعليم الدينيّ إلى الأولاد في الدرجة الأُولى، وتبدية العمل الجماعيّ على سواه، والتركيز على التضامن، وعزل الرعيّة عن العالم الخارجيّ.

٢٣٤ لا مراء أنّ اليسوعيّين استفادوا من خبراتٍ عديدة لهم في المستعمرات الإسبانيّة والبرتغاليّة فحرصوا، قدر المستطاع، على توحيد أساليب تبشير غير المؤمنين، مفرغين جهودهم على تأسيس جماعاتٍ مستحدَثة حيث يعيش الناس بحسب روح المسيحيّة المثلى، وتتقدّم الحياة الإجتماعيّة على الحياة الفرديّة، ويتأصّل الإيمان الجديد في النفوس بعيدًا عن التأثيرات الخارجيّة السلبيّة. ولقد كان للعنصر الأخير أهمّيّةٌ خاصّةٌ في نظر اليسوعيّين، بسبب محاولةٍ مُنِيَت بالإخفاق في جنوب الهند. فإنّ القدّيس فرنسيس كَسَفارِيُوس (فرنْثِيسكُو خَفِير)، رسول تلك الجهات، سبق له وعمّد بين عامَي ١٥٤٢ و١٥٤٩ عشرات الآلاف من الهنود، انطلاقًا من اهتداءاتٍ ناتجةٍ عن مؤثّرات جماعيّة؛ فكان أنّ الجماعات المسيحيّة الفتيّة الجديدة لم تستطع الصمود أمام ردّة فعل الهندوسيّة التي بقي عليها السكّان المجاورون.

كلُّ ذلك يفسِّر لماذا اجتهد اليسوعيّون، في البيرو والبرگواي، لعزل أهل «حواضرهم» لا عن الإسبانيّين وحدهم – وهو ما نصّ عليه الشرع في المستعمرات – بل عن القبائل التي لم تهتدِ بعدُ إلى الإنجيل، أيضًا.

و – الثقافة

٢٣٥ كانت اللغتان الرسميّتان في «الحواضر» الإسبانيّة والگوارانيّة؛ وكانت الثانية، عمليًّا، هي اللغة الوحيدة الشائعة.

أحد أهمّ المشاكل التي واجهها أسيادُ أميركا الجدد كان تردُّدهم بين أن يحاولوا استئصال اللغات القديمة ليستبدلوها عنوةً بالاسبانيّة، وبين أن يقبلوا

بالأمر الواقع ويستعملوا اللغات المحلّيّة جاعلين منها بالتالي أداة نفاذٍ سياسيٍّ ودينيّ. ذٰلك بأنّه كان للتداخل الوثيق بين الدين والسياسة دورٌ في حلّ هٰذه المشكلة، على ما رأينا في الفصل الأوّل من هٰذا الكتاب. فالسلطة الكنسيّة قرّرت دون إبطاء استعمال اللغات الهنديّة لتسهيل نشر المسيحيّة، وعزمت على تطعيمها بمفردات ملائمة. وقد أثّر هٰذا الاتّجاه على تصرّف السلطة السياسيّة، التي مالت في البدء إلى غير ذٰلك. فكارلوس الخامس ودَّ لو يفرض الإسبانيّة على الهنود، وبعث بتوجيهات في هٰذا الصدد إلى نائبيه في المكسيك والپيرو سنة ١٥٥٠، وهو بصفة كونه إمبراطورًا، أي مَلِكًا عالميًّا، لم يكن ليرى في فرضه اللغة الإسبانيّة على الهنود ضغطًا جائرًا أو غير مناسب، بل وسيلة لرفعهم إلى كرامة المواطنين في الإمبراطوريّة. وجاء فيليبّس الثاني فحوّل الاتّجاه الأوّل لعدّة أسباب: أوّلها أنّ هٰذا العاهل لم يكن على ما كان عليه سابقه مِن تحسُّسٍ لشموليّة مُلكه وعالميّته؛ وثانيها أنّ الرهبان كانوا يناضلون في سبيل احترام شخصيّة الهنود وثقافتهم؛ وأخيرًا لأنّ الفئات القائدة الصاعدة في المستعمَرات كانت تحبّذ المحافظة على اللغات المحلّيّة بين الهنود، لتأكيد الاختلاف الطبقيّ بين الناطقين بالإسبانيّة وباقي السكّان، ولذا لم تُشدِّد على تطبيق مقرّرات كارلوس الخامس. وفي ١٥٧٨ و١٥٨٠ و١٥٩٦ تبلّغت السلطات المحلّيّة في أميركا تعليماتٍ تقضي بألاّ يُفْرَض على الهنود تعلُّم الإسبانيّة، بل يَدرُسها من يشاء فقط. وهٰكذا ثبّت القرنان السادس عشر والسابع عشر، بالنسبة إلى السياسة اللغويّة في أميركا، انتصار رجال الكنيسة على ذوي السياسة والقانون؛ وأُرجِئَ تحوُّل الجماهير إلى الإسبانيّة إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وخاصّةً إلى فترة ما بعد حصول بلدان أميركا اللاتينيّة على استقلالها.

٢٣٦ كانت أوسع اللغات انتشارًا في منطقة البرگواي لدى وصول الإسبانيّين لغة الگواراني. وقد ساهم إلى حدٍّ بعيد، في إعاقة انتشار الإسبانيّة، عدمُ وجود تجمّعات إنسانيّة كبيرة يَسهُل فيها تعدُّدُ العلاقات، وبالتالي استعمالُ لغةِ الفاتحين أداةَ اتّصالٍ بين الناس. وفي السنوات الأُولى لمجيء الإسبانيّين أخذ الكهنةُ القليلون الجهلة الموجودون في البرگواي يتسابقون

على تعميد الهنود ، فأتى نشاطهم سطحيًّا ، ولم يُتِح لهم قليلُ معرفتهم للّغات المحلّيّة من توفير تعليم دينيّ حقيقيّ ، واعتَبر الهنودُ المعموديّة التي قَبلوها أقربَ شيءٍ إلى عمليّة سحريّة. فوالحالة هٰذه ، اتّصفت العلاقات الأُولى بين الإسبانيّين والگواراني بالفوضى اللغويّة والفوضى الدينيّة.

٢٣٧ ولمّا وصل اليسوعيّون إلى البرگواي ، ساعد في استشراء البلبلة مشابهةٌ بين بعض التعاليم المسيحيّة والمعتقدات الگواراني (ممّا لا ندري إنْ كان أصيلاً أو هجينًا) كالإلٰه الخالق العالمَ والبشرَ ، والإلٰه الطفل ، وأُمّ الله ، ومكان النعيم ، والطوفان ؛ وقام بين الگواراني أنبياء ، يتّصفون بالغرابة ، وصَلَنا اسم أحدهم ويُدعى أوبِرا Oberà ، كانوا يبشّرون بمزيجٍ عجيب من المبادئ المسيحيّة والأساطير المحلّيّة ويحتفلون بطقوسٍ سحريّة يتخلّلها الرقص والأغاني. وكان الگواراني يُطلقون تسمية « پاي » (وتعني « أب ») على المرسَلين المسيحيّين والسَحَرة وقدامى القبائل بلا تمييز ، وذٰلك حتّى فترةٍ متأخّرة ، ممّا يشير إلى الفوضى الدينيّة والثقافيّة المتفشّية في تلك السنين والتي بقي لها بعض الأثر في الأزمنة اللاحقة.

٢٣٨ ولم يبدأ نشر تعاليم الإنجيل بشكل جدّيّ إلاّ مع استتباب الأوضاع السياسيّة شيئًا فشيئًا ، ومع قدوم المرسَلين بأعدادٍ مكثّفة ، ومِن أنشطهم الرهبان الفرنسيسيّون. فقد أدرك هؤلاء أنّهم لن يستطيعوا إيصال الرسالة المسيحيّة إلى الهنود إلاّ إذا أتقنوا اللغات المحلّيّة ؛ وشاطرَتْهم هٰذا الرأيَ سلطاتُ الكنيسة ، فالتأم في ليما سنة ١٥٦٧ مجمع كنسيّ أوصى المرسَلين بدرس لغات السكّان الأصليّين درسًا معمّقًا ، ممّا يعني الدخول إلى روح الثقافة الهنديّة قبل الشروع بعمل التبشير. إلاّ أنّ تطبيق هٰذا الأسلوب الجديد الجدّيّ في العمل الرسوليّ لم ينطلق عمليًّا إلاّ سنة ١٥٧٥ ، لمّا بدأ الراهبان الفرنسيسيّان لويس ده بولانيوس وألونسو ده سان بوينا ڤنتورا إلقاء المواعظ بشكلٍ منظّم في « الحواضر » الأُولى التي أسّساها في منطقة أسونثيون ، وذٰلك بعد أن تضلّعا من لغة الگواراني ، ونظّماها من جهة النحو ، وأدخلا عليها تعابير ومفردات مسيحيّة.

٢٣٩ وبعد تأليف معجمٍ أوّل وكتاب أوّل لقواعد اللسان الگواراني، صدرت ترجماتٌ لنصوصٍ دينيّة ومدنيّة، وترجمة «التعليم المسيحيّ»، وكانت عبارة النصّ الأخير في منتهى البساطة بحيث يستطيع فهمَه الكبارُ والصغار على حدٍّ سواء[٥٤]. وصادق على هٰذا الكتاب، وقد أُطلِق عليه عنوان «التعليم المسيحيّ المختصر»، المجمعُ الكنسيّ المنعقد في ليما سنة ١٥٨٣، مشدّدًا على ضرورة إعلان الإنجيل باللغة المحلّيّة بدلاً من الإسبانيّة، وذٰلك خلافًا لموقف رجال السياسة والقانون الإسبانيّين[٥٥]. وطُبع الكتاب سنة ١٥٨٤ وتمّ نشره بين الهنود.

٢٤٠ وفي سنة ١٦٠٣ التأم بمدينة أسونثيون مجمعٌ كنسيّ دَرَس الأوضاع الدينيّة والاجتماعيّة والقوميّة واللغويّة في البرگواي والريو ده لاپلاتا. وأُعيد في تلك المناسبة تذكير كهنة الرعايا الهنديّة بضرورة المعرفة الكافية للّغات المحلّيّة، كما ذُكِّر بقرار مجمع ليمَا القاضي بتلاوة التعليم المسيحيّ في الرعايا الهنديّة كلّ يوم أحد، وبتأمين ساعتين يوميًّا من التعليم الدينيّ للأولاد. وجاء في ختام إحدى الوثائق: «تُسَجَّل الغيابات ويعاقَب المتخلّفون عقابًا معتدلاً». وطلَبتْ توصيةٌ أُخرى من توصيات المجمع «تحضير» الهنود في قرًى منفصلة، بموجب القانون الإسبانيّ في المستعمرات، «حتّى لو أَضرَّ ذٰلك بالمحصِّلين»، وقد اعتُبِر هؤلاء عناصرَ مشبوهةً من الناحية الأخلاقيّة، على غرار التجّار ومنظِّمِي التجريدات لسبْي الرقيق.

٢٤١ تلك القرارات، التي أحياها مجمعٌ آخر عُقد في أسونثيون أيضًا عام ١٦٣١ هي ذات أهمّيّة لأنّها تؤكّد أنّ عمل اليسوعيّين في «الحواضر» التابعة لهم، كان على توافقٍ مع التوجيهات العامّة التي أصدرتها السلطات الكنسيّة. ومع مرور الزمن وتقدّم «حواضر» اليسوعيّين بالتدرّج على

٥٤. وجديرٌ بالذكر أنّ بولانيوس اقتفى بذٰلك أثر راهب فرنسيسي آخر، يُدعى أَلونسُو ده مِدِينَة Alonso de Medina، قد ألّف في مكسيكو قبل نحو عشر سنوات كتابًا للتعليم المسيحيّ خاصًّا بالهنود.

٥٥. كان رجال القانون يهتمّون بالناحية النظريّة من المشكلة، أي باستعمال لغةِ تداولٍ واحدة، هي الإسبانيّة. أمّا الرهبان فكانوا ينظرون قبل كلّ شيء إلى الناحية العمليّة، مدركين ضرورة حمل البشارة إلى جميع الهنود أينما وُجدوا، بحيث يتفهّمونها وترسخ في أذهانهم وقلوبهم.

«حواضر» الفرنسيسيّين، حَلَّ أبناءُ القدّيس إغناطيوس محلّ رهبان القدّيس فرنسيس في عمليّة دعم لغة الگواراني وإبرازها. وأصدر الأب رُويث مُونتُويا عامَيّ ١٦٣٩ و ١٦٤٠ كتابين صارا مرجعين ثابتين لمعرفة ثقافة هؤلاء القوم، وهما: «كنز اللسان الگواراني» *Tesoro de la Lengua Guaranì* و «مبادئ اللسان الگوارنيّ ومفرداته» *Arte y Vocabulario de la Lengua Guaranì*.

٢٤٢ كانت «حواضر» الگواراني التابعة لإدارة اليسوعيّين تمتدُّ على مساحةٍ واسعةٍ جدًّا، في شبه مربَّعٍ طولُ كلٍّ من جوانبه بضع مئاتٍ من الكيلومترات، وفي هذه البقعة عددٌ كبيرٌ من القبائل والعشائر. فلمّا عزَلَ المرسَلون الشعبَ الگواراني عن الخارج وحاولوا صهرَ الجماعات القبليّة في الداخل، ساعدوا في تكوين لسانٍ گوارانيّ جديدٍ جامع، وحّدَ بين اللهجات الراهنة المبعثرة. وهذا التطوّر اللغويّ، الذي تطلّب تحقيقُه الكامل وقتًا طويلاً، أدّى إلى ولادة ونموّ لسانٍ گوارانيّ متداوَلٍ أثّر على لهجات القبائل الهنديّة المتاخمة ولهجات الگواراني المختلطين بالإسبانيّين، وقد امتصّها واحتواها جميعها. ومن العناصر الهامّة الجديدة التي أدخلها اليسوعيّون على لغة الگواراني وثقافتهم، الأعداد. فلم يكن لهؤلاء الهنود في لسانهم مِن كلماتٍ تَدلّ على الأرقام سوى إلى الأربعة. وعمليًّا كان باستطاعتهم التعبير عن الأرقام حتّى العشرين، أي إلى ما يساوي مجموع أصابع اليدين والرجلين! فأحدثَ اليسوعيّون ثورةً في ثقافة الگواراني إذ أدخلوا إلى لغتهم سلسلة الأعداد الكاملة مع كلّ ما يعني ذلك من تطويرٍ في التفكير. وبغيةَ تبسيط الأمور وتسهيلها، استُعمِلَت للتعبير عن الأعداد الكلماتُ الإسبانيّة.

٢٤٣ وعليه يمكن القول إنّ اليسوعيّين، بعملهم الثقافيّ، أثّروا إلى مدى أجيالٍ وأجيال على حقيقة البرگواي، وذلك لسببين. من جهةٍ أُولى كانت القبائل الهنديّة، بانصهارها شيئًا فشيئًا في نظام «الحواضر»، تتحوّل إلى المسيحيّة و «الگوارانيّة» في آنٍ معًا، فتُطابق ظاهرةُ التوسّع الثقافيّ ظاهرةَ التبشير الدينيّ. ومن جهةٍ ثانية كان المولَّدون، وعددهم يزداد بسرعة، يتشرّبون هم أيضًا لغة الگواراني وثقافتهم المرتبطَيْن بـ «الدولة» اليسوعيّة. وهنا

تبرز أهمّيّة ظاهرة المولّدين في البرگواي : كان هٰذا البلد ولايةً حدوديّة ، تتّسم عمليًّا بالطابع العسكريّ ، لا تشجّع السلطاتُ هجرةَ النساء الإسبانيّات إليها ؛ لذا سعى المستعمِرون إلى أن يتّخذوا لهم زوجات - أو سراريّ - من بين الهنديّات . ولمّا كانت النسوةُ القيّمَاتِ على الحياة العائليّة ، إذا بالأولاد يتشرّبون لغة الگواراني بواسطة أمّهاتهم أكثرَ منهم الإسبانيّة عن طريق آبائهم . وقد حُفِظ لسان الگواراني ، وضُبطت قواعده ، وانتشر في البرگواي على يد المرسَلين - اليسوعيّين والفرنسيسيّين - ، وما زال حتّى اليوم ، إلى جانب الإسبانيّة ، لغةَ البلاد الرسميّة ، واللغةَ المستعملَة في الحياة العاديّة سواء في المدن أو في الأرياف .

* * *

٢٤٤ لقد نتج عن التعليم المنظَّم الذي وفّره اليسوعيّون باللسان الگواراني ولادةُ طبقةٍ مثقّفة بين الهنود . وثمّة أديبٌ واحد على الأقلّ ، ممّن لهم بعض القيمة ، ذاع له صيت كبير . إنّه دونْ نقولاس ياپوگاي Don Nicolás Yapuguay ، أحد « مقدّمي » «حاضرة» سانْتا ماريا لامَيُور ، وصاحب كتابين ألّفهما في الثلث الأوّل من القرن الثامن عشر : أوّلهما « تفسير التعليم المسيحيّ » على شكل حوار ، صدر عام ١٧٤٢ عن مطبعة سانتا ماريا لامَيور ، والثاني مجموعة « مواعظ وأمثال » ، أصدرته سنة ١٧٢٧ مطبعة « حاضرة » سان خفْير . كلا المؤلّفين محرَّر بأسلوبٍ سهل قريب المنال ، عميق الفكر على وضوحٍ في شرح المفاهيم . وصاحب الكتابين ، بحسب ما وصَفَه اليسوعيّون ، لرجلٌ مثقّف ، فَهِمٌ ، عارفٌ بدقائق لغته ، بليغٌ فصيح شأنَ خيرة « المقدَّمين » ، وباختصارٍ مفيد : أديبٌ إنسانيّ بكلّ ما في ذٰلك من معنى . كما أنّه وصَلَنا كتاباتٌ سياسيّة لا تخلو من فائدة ألّفها بعضُ الگواراني ، وقد حرّروها في معظمها إبّان الحرب التي خاضها شعبهم بين عامي ١٧٥٠ و ١٧٥٦ ، وتنمّ جميعها عن نُضج أصحابها الفكريّ . ومن أعظم تلك التحارير شأنًا المذكّراتُ التي بَعث بها إلى حاكم بوينس آيرس ، خوسيه ده أَندُونايگي José de Andonaegui ، « المُصلِحُ » والمجلسُ البلديّ في

EXPLICACION
DE EL
CATECHISMO
EN LENGUA GUARANI
POR NICOLAS YAPUGUAI
CON DIRECCION
DEL P. PAULO RESTIVO
DE LA COMPAÑIA
DE
JESUS



En el Pueblo de S. MARIA La Mayor.
AÑO DE MDCCXXIV

الصفحة الأولى من «شرح التعليم المسيحيّ» بلغة الگواراني، بقلم المقدَّم نقولاس ياپوگاي، وقد طبع في حاضرة سانتا ماريا لا مايور سنة ١٧٢٤.

«حاضرة» سان نقولاس المركزِ الثقافيّ الأهمّ في «دولة» الگواراني؛ وكذٰلك ما أرسله إلى الحاكم المذكور «مصلحٌ» «حاضرة» كونثبثيون، نقولاس نِينْگِرُو N. Neenguirù، سَمِيُّ القائد العام في إمبُورُورِه ولعلّه من سلالته.

٢٤٥ ولئن أمَّن اليسوعيّون التعليم الأساسيّ لجميع الناشئين، على ما سبق ورأيناه في المقطع المخصّص للحياة اليوميّة في «الحواضر»، فإنّهم وفّروا بلا شكّ تربيةً أرفع مستوًى، إلى حدٍّ معيّن، لأبناء الأشراف. وهٰذا الأمر يتّفق كلّ الاتّفاق مع السياسة التقليديّة في رهبانيّتهم، الهادفة إلى الاهتمام البالغ بتربية أبناء الأُسر النبيلة، والاستئثار بها قدر المستطاع، ممّا يتيح لها تنشئةَ مَن سيتولّون في المستقبل شؤون السياسة والإدارة[٥٦]. كما أنّ هٰذا الاهتمام بالنخبة

٥٦. لقد زلّ هنا قلم المؤلف، وألصق باليسوعيّين دون تروٍّ تهمةً لعلّه ساقها متأثّرًا ببعض الشعارات. فلا ذكر البتّة في وثائق الرهبانيّة اليسوعيّة، على مدى تاريخها، لما يُستشَفّ منه «الاستئثار» بتربية أبناء ←

يؤكّد أنّ اليسوعيّين، وإن ساوَوا إلى حدٍّ بعيد بين الجميع من جهة الحياة المادّيّة في «الحواضر»، إلاّ أنّهم حافظوا على النُظُم الاجتماعيّة القبليّة القديمة، أو قُلْ تساهلوا معها. فلماذا تولّى المرسَلون نظامًا تربويًّا من هٰذا النمط، يَتْرُك المجال مفتوحًا أمام المحاباة والمحسوبيّة؟ الجواب أنّ «الكاسيك»، على الرغم من زوال سلطتهم وتأثيرهم بشكلٍ تدريجيّ، كانوا العنصُرَ الرابط الجامع في «الحواضر»، فيحُولون دون وقوع العشائر في تجربة الانفصال عن المجموعة، وكان على المرسلين اللجوء إليهم لشدّ الأواصر وتدعيم الأساسات في بناء «الدولة».

٢٤٦ ومع ارتفاع المستوى الثقافيّ بين الگواراني، ازدهر نشر الكتب في «الحواضر» وشرعت المطابع تُصدر المؤلّفات بكثرة، وهي في أغلبيّتها من كُتُب التعليم المسيحيّ والعبادات واللغة والنحو والتقنيّات. ويبدو أنّ الطباعة أُدخِلت إلى «الحواضر» سنة ١٦٩٥ وسرعان ما ازدهرت فيها؛ ونذكّر، للمقارنة، بأنّ مدينة بوينس آيرس بقيت دون مطبعة حتّى عام ١٧٨٠. أمّا النصوص المطبوعة في «الحواضر» فكانت تتميَّز بجلاء حروفها وجمال تصفيفها، فضلاً عمّا يتخلّلها من رسوم مفيدة – وإن تميّزتْ بالسذاجة – وكلُّها مِن عَمَل فنّانين گواراني.

٢٤٧ وبالنسبة إلى اللغات المستعمَلة، تجدر الإشارة إلى أنّ الإسبانيّة واللاتينيّة كانتا محدودتَي الانتشار في «الحواضر». فالسواد الأعظم من الگواراني يُنشدون التراتيل في الكنائس باللغتين المذكورتين، إلاّ أنّ ذٰلك لا يعني أنّهم يتكلّمون بهما ولا أنّ أغلبيّة المؤمنين تَفهم ما ترتّله فهمًا حرفيًّا. والواقع أنّ المرسَلين شجّعوا الگواراني فتمسّكوا بلغتهم تمسّكًا شديدًا كانوا يَشعرون معه أنّهم أرقى مَرْتبةً من الشعوب الهنديّة الأخرى في المنطقة. ولَئِنْ كان ثمّة تعليمٌ معمَّق للإسبانيّة، فقد ظلّ وقفًا على نفرٍ قليل، وبقيتْ تلك اللغةُ لغةً أجنبيّة لا تُستعمَل إلاّ في المعاملات الرسميّة، غيرِ المنتظمة، مع السلطات المدنيّة في ولايتَي أسونثيون وبوينس آيرس.

الأشراف. وهي لم تسعَ قطّ إلى ذٰلك لما فيه من منافاةٍ للروح المسيحيّة والرهبانيّة. وهبْ أنّها أرادت ذٰلك، فأنّى لها السلطان لمنع سواها؟ (الناقل).

٢٤٨ بالنسبة إلى الصنائع والفنون، تجلّت مواهب الگواراني بأبهى المظاهر سواء في زخرفة الخشب والفخّار، أو نحت الحجارة، أو معالجة المعادن، أو نسيج القطن والصوف. وقد شجّع المرسَلون تلك المواهب وأحسنوا تنميتها وتوجيهها، غيرَ غافلين عن منافعها في الحقل الاقتصاديّ. وخلّف لنا الفنّانون الگواراني من نتاجهم الكثيرَ الثمينَ ممّا حفظَته المتاحف في جنوب أميركا، لا سيّما في الأرجنتين والبرازيل والبرگواي. فثمّة رسومٌ قيّمة، ومنحوتَات من الخشب الملوّن، وتماثيلُ من الآجرّ متعدّدة الألوان كانت تزدان بها كنائس «الحواضر». وممّا تميّزتْ به هٰذه الأعمال مهارةُ الفنّانين صُنّاعِها في إبراز أعمق العواطف تتجلّى على الوجوه، وتناسُقِ الأجسام، وأناقة النقوش، ودقّتِها، وجميعُه يشهد على كفايتهم اليدويّة، ورهافة شعورهم، وخاصّةً على مدى اهتمام اليسوعيّين بتنمية أبناء رعيّتهم وتثبيت شخصيّتهم، تاركين للاختلافات أن تأخذ مجراها تنوّعًا، ولتواقيع الفنّانين أن تبرز على ما صنعت أيديهم.

٢٤٩ ولقد سبق لنا وذَكَرْنا أنّ الغناء والرقص والموسيقى كانت خيرَ ما يقضي به الگواراني أوقاتَ راحتهم وأيّامَ أعيادهم. هٰذا النوع من التسلية كان من صميم تقاليدهم، وقد سعى المرسَلون، في دعمهم إيّاه، إلى التوفيق بين الثقافة المحلّيّة القديمة والثقافة الجديدة القادمة على يد المسيحيّة والأوروبيّين. وكان لا بدّ من هٰذه التسوية للمحافظة على حدٍّ أدنى من التوازن في بُنيةٍ سريعةِ العطب لشعبٍ اهتدى إلى المسيحيّة بشكلٍ جماعيّ، ويواجِه بصورةٍ مفاجئة طُرُقَ عيشٍ تختلف كلّ الاختلاف عن تقاليده الخاصّة. وعليه، احتلّ الغناء والموسيقى مكانةً بالغة الأهمّيّة في نظام اليسوعيّين التربويّ. وكان الگواراني في الواقع على معرفةٍ بالموسيقى، يتحسّسون لها تحسُّسًا خاصًّا ويميلون إليها بالفطرة؛ وكان سُلَّمُهم الموسيقيّ يتألّف من خمس نوطات، ويَستعملون آلات النفخ والنقر فضلاً عن الآلات الوتريّة. فأدخل اليسوعيّون، إلى جانب الموسيقى المحلّيّة، الموسيقى الأوروبيّة، وكانت ياپيُو «الحاضرةَ» التي تخرِّج أمهر الموسيقيّين الگواراني مِن النافخين في البوق والعازفين على الكمان والأُرغن وسواهما من الآلات الأوروبيّة والمحلّيّة. ويُذكَر من هؤلاء الفنّانين العازف

المنفرد پْلاثِدو أثوركا Plácido Azurica الذي عمل مع أوركسترا المعهد البلديّ في بوينس آيرس ؛ وفي أُولى السنوات التي تلت طرد اليسوعيّين (عام ١٧٦٨)، برز أحد تلامذتهم، المدعو كريستوبَل پرِيُوبي Cristóbal Piriobi ، وكان من أعظم العازفين المنفردين في تاريخ منطقة الريو ده لا پلاتا الموسيقيّ، يتضمّن برنامج أدائه أعمالاً لِبُوكِّريني Boccherini وكْلِمِنتِي Clementi وهايدِن Haydn . وفي ياپيو أيضًا أُنشئ، إلى جانب المعهد الموسيقيّ، معملٌ لآلات العزف الثمينة على أنواعها، بما فيها الأرغن.

٢٥٠ أمّا نوعيّة الموسيقى الدارجة في «الحواضر» فكانت في معظمها نغميّةً منتظمةَ الإيقاع، إلاّ أنّ الگواراني كانوا يستحسنون أيضًا الألحان الخفيفة المرحة تؤدّيها أجواق المغنّين بمؤازرة الأوركسترا، ممّا يُضفي على الأعياد جوًّا من البهجة والسرور. كما أنّ الموسيقى الدينيّة احتلّت في ثقافة «الحواضر» مركزًا مرموقًا فساهمتْ، مع الاحتفالات الطقسيّة، في اجتذاب الهنود.

٢٥١ والكلام على الموسيقى يقودنا إلى الكلام على الرقص، وهو فنٌّ طالما تجاوب معه الگواراني، على نحو ما ذكرناه سابقًا. فاليسوعيّون، في بادئ الأمر، وقفوا من الرقص، أيًّا كان، موقف الحذر الشديد، لِرَبْطِهم إيّاه ربطًا وثيقًا بالطقوس والممارسات السحريّة، التي شرعوا باستئصالها منذ مجيئهم إلى البرَگواي، عملاً بتوجيهات الأب تُورِّس بوليو سنةَ ١٦٠٩. إلاّ أنّهم سرعان ما أدركوا صعوبة القضاء على تلك الهواية. وإذا بهم يحوّلونها بمهارة ولباقة إلى ما يخدم قضيّتهم، أي إلى الدين: فاستحالت حفلات الرقص شيئًا فشيئًا إلى مسرحيّاتٍ إيمائيّة وتمثيليّات رمزيّة تعالج مواضيعَ... تقويّةً كصراع الملاك ميخائيل والتنّين، وحربِ الإسبانيّين والمسلمين، وزيارةِ المجوس إلى مغارة الطفل يسوع.

٢٥٢ وكما حصل على صعيد تنمية الفنّ المعماريّ في «الحواضر»، حيث قام اليسوعيّون الإيطاليّون بالخطوات الأُولى، كانت الريادة، في دفع عجلة الفنّ الموسيقيّ وتوجيهه، من نصيب أحد الإخوة الإيطاليّين أيضًا، على الرغم من أنّه لم يذهب بنفسه إلى «الحواضر». كان هذا الراهب، ويُدعى

دُومِينكُو تسيپُولِي Domenico Zipoli ، من مدينة پراتُو في توسكانا ، وبعد مزاولة الموسيقى في بلاده مؤلِّفًا ومعلِّمًا ناجحًا في المعهد الرومانيّ ، أُرسل إلى بوينس آيرس ، ومن ثمَّ إلى كُورْدُبا ملتحِقًا بمدرسة اليسوعيّين. وطارت شهرته حتّى بلغت مسامع نائب الملك في ليما ، فطلب أن تُعْزَف بعض مؤلّفاته الموسيقيّة في الپيرو ؛ كما أُوكِل إلى تسيپولي تنشئة عددٍ من الشبّان الگواراني ليصبحوا أساتذةً في العزف على الأرغن لصالح الإرساليّات. ومن الگواراني المتخرّجين على يده عازفٌ على الأرغن يُدعى خُوسِيه ، من «حاضرة» ياپيو ، درس في كوردبا ثمّ عُيّن في قريته مسؤولاً عن مدرسةٍ للموسيقى خاصّةٍ بالإرساليّات لدى الگواراني. ورُوي عن كاهن «حاضرة» سانتياگو أنّه أَمر بأن «تتّخذ الإجراءات اللازمة ليدرُس بعضُهم موسيقى الأخ تسيپولي ويتدرّبوا عليها ، لأنّها من أجود ما عُرف في ذٰلك الباب». وحذت «حواضر» أُخرى حذو سانتياگو ، فأضحت تلك الموسيقى واسعة الرواج ، بالغة الشعبيّة في الإرساليّات ، بحيث ظلّت بضعةَ عقودٍ بعد وفاة صاحبها – وقد مات في الثامنة والثلاثين عامَ ١٧٢٦ – تُستَعمل في «الحواضر». من ذٰلك أنّ المرسَلين استعانوا بها خلال الرقصات والمسرحيّات التي جرت سنة ١٧٦٠ في «حواضر» ترينيداد ومارتِرِس وسانتو تُومِه للاحتفال بجلوس الملك كارلوس الثالث على عرش إسبانيا.

٤ الذروة والزوال

١) عود على بدء: أهداف «الحواضر» وتوجّهاتها

٢٥٣ أشرنا في المقدّمة إلى أنّ «حواضر» الرهبانيّة اليسوعيّة في البرگواي، بما تمتّعتْ به مِن إدارةٍ ذاتيّة، وتميّزت به من تنظيمٍ اجتماعيّ واقتصاديّ، لفتتْ أنظار العلماء والباحثين فاندفعوا يؤوّلون أعمال المرسَلين تآويلَ شتّى، ناسبين خاصّةً إلى اليسوعيّين الرغبة في تطبيق مبادئ الفلاسفة الأقدمين والمحدَثين على واقعٍ معيَّنٍ حيٍّ وفاعل. إلاّ أنّنا، بعد دراستنا لنشوء «الحواضر» وتطوّر نُظُمها وتوجّهاتها، جزمنا بالعكس. فلم يَقُم المرسَلون قطّ بتجارب على حساب الگواراني، ولم يختبروا في قراهم بالبرگواي مشاريعَ وُلدت خارج الواقع، بل إنّهم شيّدوا ما سمّي «بِدَولتهم» ضمن السياسة الاستعماريّة الإسبانيّة وقوانينها (وقد كان لتلك السياسة وتلك القوانين دورها في التأثير على الأوضاع المحلّيّة وتوجيهها)، وانطلاقًا من خبرات أُخذتْ معالمُها تتبلور شيئًا فشيئًا. وظلّ اليسوعيّون على مرّ السنين يسعَون إلى إقامة التوازن بين عمليّة نقل البشارة الإنجيليّة، وهي هدف رهبانيّتهم الأوّل، ومراعاة مصالح الدولة الإسبانيّة صاحبة الدعم لتلك العمليّة.

٢٥٤ فكيف برزتْ إذًا التآويل الخاطئة؟ لقد ذكرنا سالفًا أنّ لُودُوڤيكُو أنطونيو مُوراتُوري وخُوسِيه مانُويل پراماس أثّرا بالغَ التأثير على مَن خَلَفَها من الكتّابِ، وهذا تفسيرٌ أوّل ومجزوء. والتفسير الثاني أنّه، حتى السنوات الأخيرة، كنّا نفتقر إلى مجموعةٍ منسَّقة من الوثائق والمصادر الأصليّة تُمكّننا من كتابة تاريخ «دولة» الگواراني دون الانصراف إلى التخيّلات والتقديرات. والواقع أنّ التجميع المنظَّم لتلك الوثائق الأصليّة لم يتمّ إلاّ في

مطلع القرن العشرين، بهمّة بعض العلماء من إسبانيا وأميركا اللاتينيّة. فاليسوعيّ پابْلو إرْنانْدِث Pablo Hernandez أصدر سنة ١٩١٣ أوّل عملٍ موثّقٍ علميّ عن تاريخ «دولة» الگواراني وتنظيمها[٥٧]. وجَمَع يسوعيٌّ آخر، هو الأب پابلو پاسْتِلْس Pablo Pastells، في مؤلَّفٍ ضخم بثماني مجلّدات (١٩١٢ – ١٩٥٢)، عددًا كبيرًا من الوثائق تنمّ عن سعة معرفةٍ ودقّةٍ في البحث نادرتين[٥٨]. وأصدر يسوعيٌّ ثالث يُدعى الأب كارلوس لِيُونْهارْدت C. Leonhardt، ما بين ١٩٢٧ و١٩٢٩ «الرسائل (أي التقارير) السنويّة» الخاصّة بيسوعيّي الپرگواي. وهي مَصدرٌ آخر عن «الحواضر» بالغُ الأهمّيّة. وبين عامَي ١٩٥١ و١٩٦٩ نشر مؤرّخٌ برازيليّ لامع يُدعى جايْمِه كُورْتِساو Jaime Cortesão عددًا كبيرًا من المخطوطات هي كنايةٌ عن وثائقَ هامّةٍ تروي ما جرى في منطقة الريو ده لاپلاتا بين ١٥٩٤ و١٨٠٢[٥٩]؛ وقد تابع المؤرّخ إيلِيُو ڤِيانا Helio Viana عمليّة النشر هذه. وأوّل تأريخ منظّم تطرّق لحياة «الحواضر» ونظامها الاقتصاديّ هو كتابٌ لا يرقى إلاّ إلى سنة ١٩٥٣، كتبه العالم الأسوجيّ ماگْنُوس مُورنِر، إلاّ أنّه اقتصر على القرن السابع عشر[٦٠].

٢٥٥ فمَن تفحّص الوثائق المتوفّرة اليوم بين أيدينا بشكلٍ منسّق، تأكّد له أنّ النظام الاقتصاديّ والإداريّ في «الحواضر» لم يتطوّر بموجب إيديولوجيّةٍ مجرّدة، ولٰكنْ في إطار السياسة الإسبانيّة وقوانينها، وقد خضعت هي أيضًا لتطوّرٍ مستمرّ؛ وساهم في ذٰلك ما أفادت منه الرهبانيّة اليسوعيّة من خبراتٍ عامّة وخاصّة اختمرت سواءً في الپرگواي أو في غيرها من الجهات؛ كما أنّ وجود «الحواضر» في منطقةٍ معيَّنة لها خواصّها، كان له أثرٌ مميَّز على نظامها وتوجّهاتها.

---

٥٧. *Organización social de las doctrinas guaranies de la Compañia de Jesús*

٥٨. *Historia de la Compañia de Jesús en la Provincia del Paraguay según los documentos originales del Archivo de Indias*

٥٩. *Manuscritos de Coleção De Angelis*

٦٠. *The political and economic activities of the Jesuits in the La Plata Region*

٢٥٦ فلمّا أسّس اليسوعيّون أولى «حواضرهم»، كان قد مضى على «اكتشاف» أميركا ما ينيف على المائة سنة، وكانت تعثّراتُ البدايات وتردّد المسؤولين حول خير الأساليب لاستعمار البلاد الجديدة وإداراتها، آخذةً في التبدّد والزوال. فقد كان ثمّة نظامٌ قانونيّ متكامل، أساسه القرارات المَلَكيّة، يبيّن بوضوحٍ الأسس التي ينبغي الانطلاق منها لإدارة الجماعات الهنديّة؛ كما كان هنالك تنظيمٌ إداريّ للمستعمرات مرتبطٌ «بمجلس الشؤون الهنديّة» ونائب الملك والحكّام، وكلُّهم حريصٌ شديدُ الحرص على صلاحيّاته وسلطاته الخاصّة. ولقد اجتهد اليسوعيّون في تطبيق تلك القوانين والنُظُم في «حواضرهم»، مستجيرين عند الضرورة بنائب الملك أو الحكّام. وممّا طبّقوا فيه القانونَ الإسبانيّ: تجميعُ البدو في مراكزَ سكنيّةٍ ثابتة، وعزلُ الهنود عن عالم المستعمِرين لا سيّما «المحصّلين»، ومراقبة التجارة...؛ أمّا تنظيم الحياة في «الحواضر» – بالنسبة الى الشؤون التي لا تمتّ إلى الدين – فطُبِّقت فيه قوانين المستعمرات.

٢٥٧ ولقد ساعد على تكوين أُطُر النظام في «الحواضر» ما اكتسبته الرهبانيّة اليسوعيّة من خبرة في أُولى إرساليّاتها شرقَ آسيا أو في أميركا، كمِثْل ما خَبَرَته في «حاضرة» خُولِي بالبيرو. فالتعليمات التي وجّهها الرئيس العامّ الأب أكواڤيڤا إلى مدبّر إقليم البرَكواي. الأب خُوان رُومِيُو J. Romeo، في الأوّل من أيّار سنة ١٦٠٩، كانت هي نفسها التي بَعث بها قبل خمس سنوات لمعالجة شؤون جزر الفيليبّين ومملكة «غرناطة الجديدة». وعلى مرّ السنين راح واقعُ البرَكواي يكيِّف تنظيمَ «الحواضر» مع الحاجات المحلّيّة: فإلى ثوابت التبشير، و «تحضير» القبائل البادية، وعزل السكّان الأصليّين وحمايتهم من «المحصّلين»، وإعفائهم من الضرائب، وبناء الكنائس والمدارس والمستشفيات، وتفويض مراقبة المناطق إلى رئيس محلّيّ (وجميع ذلك من العناصر الموجودة في تنظيم إرساليّات الفيليبّين ومملكة «غرناطة الجديدة»)، أُضيفَ في البرَكواي، تولّي المرسَلين مسؤوليّاتٍ رعويّة، وارتباطُ الجماعات الگواراني ارتباطًا مباشرًا بملك إسبانيا، والتنظيم المركزيّ للتجارة عن طريق «مدبرِيَّتَي» سانْتافيه وبوينس آيرس، والمؤسّسةُ العسكريّة، والهيئة

الإداريّة. ومن الصعب القول بأنّ الفضل في إدخال وتنمية النظام الإداريّ أو الاقتصاديّ أو الاجتماعيّ في دولة «الحواضر» يعود إلى هٰذا اليسوعيّ أو ذاك: فتورّس بُولِيُو ولُورِنْثانا وكَتَلْدِينِي ومَشِتّي ورُويث مُونْتويا ورُوكه كُونثالِث وسواهم ممّن ساهم في تأسيس إرساليّات البرَكواي، لم يكونوا إلاّ الروّاد، وقد كان، مِن تضافُر خبراتهم الشخصيّة وخبرات خلفائهم، ما أتاح لهٰذا النظام أن يتطوّر بشكلٍ طبيعيّ وبطريقةٍ عمليّة لا تتعثّر بقيود النظريّات المجرّدة. وتلك الخبرات كانت تُسَجَّل، يُسجِّلها رؤساء «الحواضر» المقيمون في كَنْدِلَرِيا، وفيما بعد الرؤساءُ الإقليميّون المتمركزون في كُوردُبا، ويرسلونها إلى روما بصورةِ تقاريرَ عامّةٍ سنويّةٍ (هي «الرسائل السنويّة»)، أو بشكلِ مذكّراتٍ حول مواضيع محدَّدة. وعلى أساس تلك التقارير، واستنادًا إلى خبرة الرهبانيّة في سائر أنحاء العالم، كان الرؤساء العامّون – وخاصّةً كلاوْدِيُو أكْواڤيڤا (١٥٨١ – ١٦١٥) ومُوتْسِيُو ڤِيتِلّسْكي (١٦١٥ – ١٦٤٥) وتِيرْسِه گونْثالِث (١٦٨٧ – ١٧٠٥) – يُرسلون إلى البرَكواي تعليماتهم العامّة، بها يصوِّرون تنظيم حياة «الحواضر» ويوجّهونه.

٢٥٨ وقام أيضًا بدورٍ فعّال في تكوين «دولة» الگواراني رؤساءُ إقليم البرَكواي ورؤساء «الحواضر» وحتّى المرسَلون العاديّون – خاصّةً في البدايات –. فإلى الأب دِيِيگو تُورّس بُولِيُو وإلى الأب (القدّيس) رُوكه گُونْثالِث يعود الفضل في توجيه أُولى التوصيات لتخطيط «الحواضر» العمرانيّ، وتنظيمها الإداريّ، وتعليم الجماعات فيها، وتسيير أعمالها، وحمايتها من ادّعاءات «المحصِّلين». وإلى الأب رُويث مُونْتويا ونشاطه الدبلوماسيّ الدؤوب يعود الفضل في سماح السلطات الإسبانيّة «لدولة» الگواراني بتكوين قوّةٍ عسكريّةٍ مجهَّزة بالمعدّات الحديثة.

٢٥٩ وقد تَركت قوانينُ الرهبانيّة اليسوعيّة وتقاليدُها المجالَ واسعًا أمام مرسَليها ليختاروا الأساليب المناسِبة لتنصير الهنود. وهنا يتبادر إلى الذهن ما قام به القدّيس فرنسيس كَسَفارِيُوس والأبوان متّيو رِيتْشي ورُوبِرْتو دِه نُوبِلِي، والجدال الشهير حول الطقوس الشرقيّة حيث أظهر اليسوعيّون تحسّسًا متميّزًا لثقافات الشعوب غير الأوروبيّة وللأوضاع الخاصّة بكلّ بيئةٍ وُجدوا فيها.

وعليه كان بوسع أبناء القدّيس إغناطيوس الانصرافُ إلى نشاطاتٍ لا تمتّ إلى الدين بشكلٍ مباشر، كالزراعة والعمارة والميكانيك والتجارة، لتدريب الگواراني وتأمين سبل العيش لجميع سكّان «الحواضر». ونتيجةً لذلك، ومع مرور السنين، أظهرت الخبرات التي اكتسبها مرسَلو البرگواي في سائر الميادين، أنّه لا بدّ لإدارة «الحواضر» أن تختلف، مِن وجوهٍ شتّى، عن الإدارة المعهودة في أديرة اليسوعيّين ومدارسهم. فمنذ رئاسة الأب مَسْتْرِلّي دُوران على إقليم البرگواي (١٦٢٢ - ١٦٢٨)، تبيّن أنّ «الحواضر» لها من التعقيد في نظامها ما يستوجب فصلَها عن رئاسة مدرسة أسونثيون، ومَنْحَ رئيسها صلاحيّاتٍ إداريّة مستقلّة. ومع ازدياد عدد الإرساليّات وأهمّيّتها، واتّساع نطاق عملها في طول البلاد وعرضها، تألّفت لجنةٌ من المرسلين قوامها الآباء أنطُونيو رُويث مُونْتويا وكلُود رْوايِه Claude Royer وميگال دِه أمْبويرُو M. de Ampuero وفرنْثِيسْكُو دِياث تانيُو، وأُنِيط بها تحرير نظامٍ خاصٍّ عُرِض على الرئيس العامّ مُوتْسِيُو ڤِيتِلّسْكِي، فأقرّه سنة ١٦٣٧. ثمّ أُضِيف إليه شيئًا فشيئًا المزيد من البنود، ممّا دفع رئيس الإقليم الأب دُونْڤِيداس Donvidas إلى وضع نظامٍ عامٍّ جديد أقرّه الرئيس العام تِيرْسِيه گونْثالِث سنة ١٦٨٩ وبقي معمولاً به حتّى طُرِد اليسوعيّون من البرگواي.

٢٦٠ فلئن أخذنا بعين الاعتبار ذلك التطوّر، تبيّن لنا شططُ مَن يظنّ أنّ «الحواضر» في البرگواي كانت واقعًا جامدًا لم يتأثّر بعامل الزمن، وكذلك شطط من يتكلّم أو يكتب عن تنظيمها دون رَبطه بتاريخٍ معيّن أو حقبةٍ معيّنة. ولهذا السبب أحببنا أن نصوّر، في الصفحات السابقة، حياة الگواراني ونظام «دولتهم» مستندين بنوعٍ عامّ إلى عصرهم الذهبيّ الممتدّ من منتصف القرن السابع عشر حتّى العقود الأولى من القرن السابع عشر، ومشيرين، كلّما دعت الحاجة - وعلى الرغم ممّا قد يُشتَمّ منه رائحة التكلّف العلميّ -، إلى تواريخ الأحداث والمراسيم والقرارات والرسائل وغيرها من الوثائق.

* * *

٢٦١ أُنشِئت «الحواضر» عمدًا في مناطقَ معزولةٍ، فقامت بعيدةً عن سائر المراكز الهامّة في البرَكواي أو الريو ده لاپلاتا، وساهم في تثبيت تلك العزلة سوءُ حال طُرق المواصلات، وضخامةُ المسافات. لذا، ومع مرور السنين، زادت «الحواضر» من استقلالها الإداريّ والاقتصاديّ، إذ لم يعد بإمكانها حلّ مشاكلها وقضاء حاجاتها اليوميّة بالرجوع الدائم إلى الأب الرئيس الإقليميّ المتمركز في كُوردُبا، أو إلى السلطات المدنيّة الموجودة في أَسُونثيون وبوينس آيرس.

٢٦٢ ومن ناحيةٍ أخرى واجهت «الحواضرُ» خطرَ مجاورة المستعمرات البرتغاليّة لها، وتواترَ غزوات «المَمالوكُس البولسيّين» الطامعين أبدًا في سبي الرقيق والتوسّع بالأراضي البرازيليّة نحو الغرب، فكان ذلك أوّلَ الأسباب لإنشائها قوّةً عسكريّةً من الگواراني لا يُستهان بها. وحَدَتْها ضروراتُ الدفاع عن النفس على تطوير جهازها الحربيّ بصورةٍ لم تعهدها مناطقها مِن ذي قبل، فتمكّنتْ من صدّ هجمات الغزاة وتجريداتهم. وفي الواقع لم تَستتبّ «دولة» اليسوعيّين في البرَكواي ضمن رقعتها الأرضيّة الكاملة النهائيّة إلاّ بعد موقعة الـ «إمبُورُورِه»، ولم يستطع الرهبان أن يوفّروا لها الاستقرار والاستمرار إلاّ بوجود جيشها.

٢) القيود السياسيّة والإداريّة على «الحواضر»

٢٦٣ كانت «الحواضر» منخرطةً في النظام الاستعماريّ الإسبانيّ، وبالتالي تابعةً من الناحيتين السياسيّة والإداريّة لسلطة نائب الملك في البيرو – وهي تمتدّ على سائر أميركا الجنوبيّة – فترتبط إرساليّاتُ نهر البرنا الأعلى بحاكم أسونثيون، وإرساليّاتُ نهر الأوروگواي بحاكم بوينس آيرس.

٢٦٤ ولقد أوحى نظام منطقة «الحواضر» إلى البعض أنّ إرساليّات اليسوعيّين بين الگواراني كانت، بتركيبها وسَير أمورها، دولةً حقيقيّة مستقلّة. وفي القرن الثامن عشر تناولت كتاباتٌ مجهولةُ المؤلّفين هذا الأمر، واختلَقت حولَه الأحداثَ ونسجت القصص ونمّقتها، فقالت إنّه كان ثمّة مملكةٌ أقامها

المرسَلون في البرگواي ، وذَكَرتْ وجود ملكٍ يُدعى نقولا الأوّل وُصِف تارةً بأنّه مرسَلٌ تخلّى عن الكهنوت واقترن بامرأةٍ هنديّة ، وطورًا بأنّه أحد «الكاسيك» الموالين تحميه الرهبانيّة اليسوعيّة وتوجّهه. وهذا النوع من الكتابات يمكن اعتباره وسيلةً للتفكهة ولا يستحقّ أيّ تصديق ، لأنّ هدفه واضح وهو تسويد صفحة المرسَلين وتشويه صورتهم بغيةَ تبرير طلب طردهم من إسبانيا ومستعمراتها ، فضلاً عن أنّ سائر تلك المنشورات تفتقر إلى مصادر ومراجع ملموسةٍ يمكن تحقّقها[٦١].

٢٦٥ وعلى العكس فالتآليف الحديثة في هذا الصدد أرفع مستوًى وأجدر بالثقة. وممّن عالجوا الموضوع أربعةٌ هم : إبرهارد گوتاين وأوتّو كُويلّه Otto Quelle وڤيكتور فرانكِل V. Frankl والقسّ كلوڤيس لوگون C. Lugon ، وقالوا جميعًا بأنّ «الحواضر» كانت «دولةً» حقيقيّةً مستقلّة ، أو أقلّه هيئةً تَنعم بإدارةٍ ذاتيّةٍ بالغةِ الامتيازات ضمن إطار الإمبراطوريّة الإسبانيّة. فگوتاين رأى في نظام «الحواضر» محاولةً لخلق «مدينةٍ للشمس» مستقلّةٍ بالضرورة ، واعتبر أنّ اليسوعيّين لم يُقرّوا بأمانتهم للملك إلاّ بالكلام ، ولم ينشروا الرايات الملكيّة إلاّ في مناسباتٍ معيَّنة محدودة هي الأعياد الدينيّة الكبرى. وقال : الواقع أنّ حاكمًا واحدًا فقط دخل مرّةً واحدةً إلى الإرساليّات ، والمرسَلون كانوا الأسيادَ الفعليّين في «الحواضر». أمّا المؤرِّخ الألمانيّ أوتّو كُويلّه ، فإنّه يتوقّف ، في دراسةٍ له عن الإرساليّات اليسوعيّة والفرنسيسيّة في أميركا الجنوبيّة ، عند نقاطٍ مختلفة من تنظيم «الحواضر» ، ويَخلُص بالنتيجة إلى أنّ «جمهوريّة الگواراني» كانت «مجموعةً متكاملةً حقيقيّةً من البُنيات التي تتّصف بها الدول المستقلّة» ؛ هذا إلى اعترافه بأنّ الحُكم فيها كان موافقًا للقوانين الإسبانيّة. وبالنسبة إلى النقاط التي استَند إليها لإبداء رأيه فهي : ١) العوائقُ التي أقامها اليسوعيّون دُون دخول الموظّفين الإسبانيّين إلى «الحواضر» ؛ ٢) نوعيّةُ الأسلوب الذي اتّبعته السلطات الإسبانيّة في

---

٦١. من المعلوم أنّ عددًا كبيرًا من الكتب المناهضة لليسوعيّين والتي تَستّر مؤلّفوها ، حُرِّرت ، وغالبًا ما طُبعت ، في لشبونة – على الرغم من صدورها بلغاتٍ متعدّدة – وقد نُشرت بإيعازٍ من الوزير پومْبال Pombal عدوّ اليسوعيّين المعروف.

رسائلها إلى رؤساء «الحواضر»، فهي لم تستعمل قطّ عبارة «نأمرُ»، بل «نرجو» أو «نسأل»، كما لو لم يكن لها السلطة لإصدار الأوامر؛ ٣) غياب الجيش الإسبانيّ إبّان عمليّات الدفاع عن البرگواي ضدّ هجمات «البولسيّين»؛ ٤) الخرائط الجغرافيّة الصادرة في القرن الثامن عشر، وهي تشير دومًا إلى حدود «الدولة» اليسوعيّة في حين لا تأتي البتّة على ذكر تُخوم الإرساليّات الأخرى.

٢٦٦ وجاء بعد ذلك العالِمُ فرانْكِل، فتقدّم سنة ١٩٤٨ بأُطروحة طريفةٍ بجديدها، جريئةٍ بتفكيرها. قال بأنّ مفهوم السلطان الشامل، الراسخة جذوره في تقاليد الكتاب المقدَّس والكنيسة الرومانيّة وفكر القدّيس أوغسطينوس (في كتابه «مدينة الله»)، وكذلك في تقليد الإقطاع الجرمانيّ (لا سيّما لدى الإمبراطور أوتُّو الثالث)، كان يَقبل بأنظمةٍ وممالك صغرى تقوم إلى جانب سلطنة الإمبراطور وتخضع لها. وهذا المفهوم كان سائدًا خلال مُلك عاهل إسبانيا كارلوس الخامس سليل أُسرة الهابسبورك، وكان على ما يبدو يتميّز بالمرونة على نحوٍ لا نجده في أيّامنا. فلمّا أعلن كارلوس المذكور، عام ١٥٢٠، أنّ الإمبراطور ليس مَلكًا كسائر الملوك، بل هو ملك الملوك، كان يعني أنّ الإمبراطور يمكنه أن يملك ويحكم فوق الملوك الآخرين. وعليه، وبفضل هذه الروح، تمتّعت «الحواضر»، خلال القرن السابع عشر، باستقلالٍ حقيقيّ ضمن إطار وحدةٍ عليا متمثّلةٍ بإمبراطوريّة آل هابسبورك، على نحو ما هو معروفٌ الآن في نظام «الكُومُونْوِلْث» البريطانيّ. ولمّا انتقل المُلك على إسبانيا، في القرن الثامن عشر، من آل هابسبورك إلى أُسرة «البُورْبُون» Bourbons، جاء هؤلاء بمفهومهم للدولة الوطنيّة الموحَّدة، وقد ورثوه عن تقليدهم الفرنسيّ، فأزِفت معهم ساعةُ زوال «الدولة» اليسوعيّة، وهي، لو بقيت قائمةً، لاعتَبر الملوكُ الجدد مجرَّدَ وجودها جريمةً سياسيّة في حقّ سلطانهم الشامل.

٢٦٧ أمّا الكاهن السويسريّ كلوڤيس لوگون، فهو يؤكّد تأكيدًا جازمًا أنّ «جمهوريّة الگواراني كانت حرّةً إنْ بحكم الشرع أو في الواقع»؛ إلاّ أنّه يناقض نفسه بعض الشيء في إقرارٍ لاحق إذ يقول: «إنّ رَبْطَها ربطًا مباشرًا بالمملكة الإسبانيّة يبدو حمايةً فعّالةً لها (...) خلال فترة تنظيمها».

ومهما يكن من أمر ، لا تخلو تلك الآراء من الثغرات. فبالإضافة إلى ما سبق وأثبتناه مِن بُطلان القول بأنّ اليسوعيّين استلهموا النظريّات الطوباويّة السائدة في القرن السادس عشر حول الشؤون السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، يمكننا أن نسوق اعتبارات أُخرى تناقض تلك الادّعاءات.

* * *

٢٦٨ لم يحرِّم اليسوعيّون دخول «الحواضر» على الحكّام الإسبانيّين وممثّليهم ، أو على السلطات الكنسيّة. إلاّ أنّهم ، على العكس ، قاوموا بشدّةٍ العلاقات مع الأوروبيّين عامّةً ، وملاّكي الأراضي منهم خاصّةً. وثمّة تنبيه في غاية الوضوح وجّهه ثالثُ رئيسٍ إقليميّ على يسوعيّي البرَكواي ، الأب نقولاس مَسْترِلّي دوران ، إلى جميع المرسَلين ، جاء فيه : «على سائر الآباء أن يستقبلوا بالتهذيب واللطف والصداقة الإسبانيّين الذين يرسلهم الحاكم في بعض المهمّات ، بحيث يعودون راضين». وهنالك أيضًا وثائق عديدة مصدرها السلطات الإسبانيّة الحاكمة ، لها علاقةٌ بزياراتٍ قام بها إلى «الحواضر» مسؤولون من البرَكواي أو بوينس آيرس : خَثِنْتو ده لَريث ، حاكم بوينس آيرس ، سنة ١٦٤٨ ؛ خُوان بِلَسْكِث دِه ڤَلْفِرْدِه ، مفتّش المحكمة الملكيّة في تشاركَس ، سنة ١٦٥٧ ؛ خُوان گريگورِيُو بَثان پِدْراثا ، حاكم البرَكواي ، عام ١٧١٥ ، وقد بادر حينذاك إلى إحصاء الهنود لضبط الضريبة المتوجّبة على «الحواضر» ، كما أنّه ثبّت في المناسبة نفسها أحكامًا جزائيّةً أصدرتها سلطات بعض الإرساليّات في حقّ عددٍ من السارقين. وفي دراسةٍ علميّة مستفيضة لأحد اليسوعيّين[٦٢] ذِكرٌ لوثائق أصليةٍ تمتُّ إلى نحو خمس عشرة زيارةً لحكّامٍ أو موظّفين آخرين ، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

٢٦٩ لا شكّ أنّ الاتّصالات المباشرة بين السلطة المدنيّة و «الحواضر» لم تكن متواترة ، إلاّ أنّه لا بدّ من الملاحظة أنّ العلاقات عن طريق المراسلات

---

٦٢. P. Hernandez, s.j., *Organización social de las doctrinas guaranies*, vol. I, pp. 138-139 وممّا يُروى في ذلك الشأن أنّ مطران أسونثيون ، كريستُوبَل ده أرِسْتِي ، قام سنة ١٦٣١ بزيارة خمس «حواضر» لليسوعيّين واثنتين للفرنسيّين ، ومنح إذ ذاك سرَّ التثبيت لعدد كبير من الكواراني : ٧٢٥٩ في «الحواضر» الأولى ، و ٣٥٨٤ في الثانية.

والتقارير كانت قائمةً بشكلٍ عامّ بين أديرة اليسوعيّين في بوينس آيرس وأسونثيون وبين الرئيس الإقليميّ في كُورْدُبا، وأنّ الزيارات إلى منطقة الإرساليّات كانت صعبةً بسبب طول الطريق ووعورته وكثرة الأخطار. وممّن شهد على ذلك، المفتّش خُوان ڤاثْكِث ده أَكوارُو Juan Vasquez de Agüero الذي فوّض إليه الملكُ فيليبّس الخامس زيارة «الحواضر» عام ١٧٤٢، فلم يستطع – أو لم يُرد – الذهابَ إليها لأنّ السفر طويل جدًّا وفي غاية الخطورة. كما أنّه حصل سنة ١٧٥٠ أنْ طلب حاكمُ البرگواي إلى أسقف أسونثيون إرسال عددٍ من الكهنة لخدمة جماعةٍ من الگواراني، فأجابه المطران أنّه ليس هنالك «مِن كهنةٍ مستعدِّين للموت قتلاً على يد المتوحّشين».

٢٧٠ أمّا أسلوب المجاملة المستعمل في رسائل الحكّام الإسبانيّين إلى رؤساء الإرساليّات – وكان العالِمُ كُوبلّه يرى أنّه دليل على استقلال «الحواضر»، فهو أمرٌ طبيعيّ في التعامل مع رجال دِينٍ مسؤولين، ولا يمكن اعتباره برهانًا على استقلال «الدولة» اليسوعيّة. فضلاً عن وجود العديد من المصادر التي تشهد بأنّ «الحواضر» كانت خاضعةً للسلطة الإسبانيّة. فبين عامَي ١٦١٠ و ١٧٦٧ صدر عن حكومة مدريد ما يزيد على ثلاثين مرسومًا أو قرارًا لتنظيم الإدارة في إرساليّات البرگواي، واليسوعيّون من جهتهم رفعوا إلى الملك أو إلى مجلس الشؤون الهنديّة عددًا كبيرًا من التقارير المتعلّقة بإدارة «الحواضر»؛ وكلّ ذلك لا مبرِّر له لو كانت الإرساليّات مستقلّةً حقًّا. وإنّنا لنذكر الآن بعضًا من أوضح هذه الوثائق دلالةً:

٢٧١ تقريرٌ من حاكم البرگواي مانويل فرِياس Manuel Frias، بتاريخ ١٥ آذار ١٦٤٤، يوضح أنّ «الحواضر» اليسوعيّة في المنطقة أُسِّسَت «بإذن الحاكم السابق وموافقته».

تقريرٌ من حاكم بوينس آيرس فرنثِيسْكُو ده ثِسْپدِس، أُرِّخ في ٤ تمّوز ١٦٢٦، يؤكّد به ويثبت أنّه أَوكل منطقة نهر الأوروگواي، باسم ملك إسبانيا، إلى اليسوعيّين لكي «يحضِّروا» فيها الهنود ويَهدوهم إلى المسيحيّة، كما أنّه يعطيهم حرّيّةً كاملة، لا يحدّها حدود، لتأسيس «الحواضر» وتعيين

مسؤولين عليها ممّن يجدون فيهم الجدارة، وممارسةِ السلطة التي يرونها مناسبةً لخدمة المملكة.

وجاء في نصٍّ روى، سنة ١٦٢٧، زيارةً قام بها إلى المسؤولين في بوينس آيرس كبيرُ «الكاسيك» في «حاضرة» كونثپثيون، أنّ الزعيم هٰذا جاهر بأنّ قومه، وإن هم لا يعترفون بغير الآباء اليسوعيّين قضاةً وإداريّين، «فقد أقسموا، بصدقٍ لا تشوبه شائبةٌ، الولاءَ لعاهل إسبانيا والطاعةَ للحاكم».

٢٧٢ وكَتَب حاكم البرگواي خُوان دِياث ده أَنْدِينُو إلى الملك بتاريخ ١٧ تشرين الأوّل ١٦٨٢، قال: «وجدتُ في القرى المذكورة أنّ «الكاسيك» وسواهم من رؤساء الهنود يطيعون على أكمل وجهٍ ويتمّمون بسرعةٍ أوامري، السياسيّة منها والعسكريّة».

بعث حاكم بوينس آيرس أَگوسْتِينَ رُوبْلِيس Agustín Robles برسالةٍ إلى الملك في ٤ تمّوز ١٦٩٨، وقد ضمّنها تقديرَه لِما يتحلّى به الگواراني من روحٍ حربيّة، واصفًا إيّاهم «بالرعايا المخلصين جدًّا للمملكة».

رفع اليسوعيّون في ٢٣ كانون الثاني ١٧٠١ إلى الملك وإلى مجلس الشؤون الهنديّة تقريرًا ذكروا فيه ما قدّمه الگواراني من خدماتٍ إلى المملكة الإسبانيّة «بأمرٍ» من حكّام البرگواي وبوينس آيرس.

في رسالةٍ بَعث بها، يومَ ٢٤ حزيران ١٧٣٣، نائبُ الملك في الپيرو، كاستِلْفُويرته Castelfuerte، إلى رئيس اليسوعيّين في البرگواي، إرّان Herrán، ينبّه النائبُ رئيسَ الرهبان إلى ضرورة تبليغ الأسقف المحلّيّ «ما أعطيك من أوامر».

٢٧٣ كَتَب الرئيس اليسوعيّ نُوسْدُورْفِر Nussdorfer رسالةً إلى حاكم بوينس آيرس، تاريخها ٢٩ آذار ١٧٤٩، بها يطلب «أوامرَ» بالنسبة إلى ما ينبغي القيام به لمواجهة هجوم أوشك أن يشنّه «المالُوكُس».

أعلن الملك فيليپّس الخامس في بيان صدر عنه بتاريخ ٢٨ كانون الأوّل ١٧٤٣: «وجدتُ أنّ خيرَ مَن يَعترف بسلطاني في سائر أنحاء البلاد الهنديّة هم أهل هاتيك القرى».

وسنةَ ١٧٨٥، إبّان فترةٍ ظلّت السلطاتُ الإسبانيّة تسعى خلالها إلى تجميع

الحجج لإدانة اليسوعيّين ورغبتهم في الاستقلال. كتَب حاكم البرگواي، گُونْثالُو ده دُوبْلاس Gonzalo de Doblas، في أحد تقاريره، أنّ اليسوعيّين، لمّا تولّوا إدارة «الحواضر»، كانوا «تابعين» لحكّام بوينس آيرس وأسونثيون.

فجميع هٰذه الشواهد، لا سيّما التي تعود إلى زمنِ تكوين «الدولة» اليسوعيّة، هي ذات أهمّيّة لأنّها تُثبت ارتباط المرسَلين، منذ بدايات نشاطهم، بالنظام الإسبانيّ وسلطاته وقوانينه، علمًا أنّ بعض تلك القوانين كان خاصًّا بالإرساليّات دون سواها.

* * *

٢٧٤ بالنسبة إلى نظريّة فرانْكِل، وهي تقول بأنّ «الحواضر» تمتّعت بالاستقلال ضمن نظام الوحدة الشاملة في الإمبراطوريّة، فثمّة وقائع تضحدها، وفي طليعتها انعدام أيّ حادثٍ يُستشَفُّ منه، في إدارة اليسوعيّين لإرساليّاتهم، أنّ تلك القرى نعمت باستقلاليّة القرار. ولقد تبيّن لنا غيرَ مرّةٍ فيما سبق، أنّ المرسلين، في علاقاتهم بنوّاب الملك والحكّام، لم يتصرّفوا البتّة كَمَن له مطلق السلطان. ويكفي، تثبيتًا لذٰلك، التذكير بالشكوى التي رفعها اليسوعيّون، إلى محكمة نائب الملك، على الأسقف كارْدِنَس[٦٣]. من جهةٍ ثانية، لمّا ورث كارلوس الخامس عرش إسبانيا عن جدّه لأُمّه، فإنّه أراد أن يجاري رعاياه الجدد إلى أقصى الحدود، ولا أساس ثابتًا للقول بأنّه طبّق، في القسم الإسبانيّ من إمبراطوريّته، المفاهيمَ الجرمانيّة للسلطة؛ وتشديدُه في سياسة دعم السلطان الملكيّ، لا سيّما عندما ضرب في ٢٣ نيسان ١٥٢١ الثوّار المولّدين المطالبين بنوعٍ من الاستقلال، لمّا يتنافى ونظريّة فرانكل. كما أنّه لا أساس لِما قيل بأنّ خَلَفَ كارلوس الخامس على عرش إسبانيا، فيليبّس الثاني، راح يفكّر في مملكةٍ تشمل المعمور بسلطانها وتترك مجالاً لممارسة الحكم الذاتيّ محلّيًّا، على الرغم من أنّ سياسة فيليبّس المذكور من حيث

٦٣. أُطلب المقطع رقم ١٢٥ وما يليه.

المستعمرات، كانت تتّصف ببُعد النظر والتسامح مع السكّان الأصليّين.

٢٧٥ وأخيرًا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ أوّل ملكَين على إسبانيا من سلالة البُوربُون، وهما فيليبّس الخامس وفرناندو السادس، لم يكونا بالفعل مناهضَين للمرسلين في البرَكواي؛ لا بل من المعروف أنّ فيليبّس الخامس أصدر سنة ١٧٤٣ «الوثيقة العظمى»، وهي تحتوي على أحكامٍ إيجابيّة جدًّا في شأن «الدولة» اليسوعيّة. ولَئن كان من الثابت أنّ انتقال عرش إسبانيا من أسرة الهابسبُورك إلى أُسرة البُوربُون بدّل مفهوم الدولة وزاد من حصر السلطة في شخص الملك نفسه، لا سيّما في عهد كارلوس الثالث، إلاّ أنّ نشاط هٰذا العاهل، وهو الذي أطاح الرهبانيّة اليسوعيّة وإرساليّاتها في أميركا، قد جرى في إطارٍ تاريخيّ تعدّى حدود البرَكواي وتجلّى في النضال من أجل تحرير الملكيّات المطلَقَةِ السلطان من سيادة البابا، ومعروفٌ تعلُّقُ الرهبانيّة اليسوعيّة بالكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ[٦٤].

* * *

٢٧٦ أمّا من الناحية العسكريّة، فإن استثنينا الحمْلة الضعيفة وغير المجدية التي قادها بِيدْرُو ده لُوكُّو Pedro de Lugo سنةَ ١٦٣٩، يبدو جليًّا أنّ الإسبانيّين لم يهتمّوا كثيرًا بصدّ هجمات البولسيّين على «الحواضر». ولهٰذا الموقف أسباب، بغضّ النظر عن كراهيةِ عامّةِ المولَّدين للگواراني المتحرّرين من «المحصول». فضَمُّ البرَكواي الشرقيّ إلى أراضي المملكة الإسبانيّة تمَّ عن يد المرسلين وحدهم، لا سيّما بعد أن أخفقت الحملة العسكريّة التي جهّزها، في مطلع القرن السابع عشر، القائد الفاشل إرنانْدُو أرياس ده ساآڤِيدْرا Hernando Arias de Saavedra. ومثلُ هٰذا الإخفاق أمام صمود الهنود ومقاومتهم، يعود إلى ضعف الجهاز العسكريّ الإسبانيّ كما بيّنّاه آنفًا.

---

٦٤. كان حُكّام أوروبّا يحذّرون اليسوعيّين لدفاعهم عن سلطة البابا في وجه الكنائس الوطنيّة والملوك، ويخشونهم بسبب نظريّاتهم «الشعبيّة» التي قال بها فرنثيسكو سُوارِث Suarez في القرن السادس عشر وخُوان ماريانا Mariana في القرن السابع عشر. وهي تبرّر قتل الطغاة في حال قهرهم الإرادة الشعبيّة، كما تدعو إلى وضع حدودٍ لسيادة الملوك. وبذٰلك تبشّر بما سوف يعلنه جان جاك رُوسّو من أنّ «العقد الاجتماعيّ» هو مصدر المجتمع.

و «الحواضر» من جهتها كان لها جيشٌ جيّد التنظيم، مجهَّزٌ بالسلاح الناريّ، يتيح لها الدفاع عن نفسها، فضلاً عن دعمِها القوّات الإسبانيّة إذا دعت الحاجة. وعليه فلم يكن الگواراني بحاجةٍ إلى مدافعة الجيوش الإسبانيّة عنهم، بل كان الإسبانيّون يلجأون إلى جنود «الحواضر» للدفاع عن الريو ده لاپلاتا والتخوم الشرقيّة. وإذ نذكّر بما رويناه في هذا الشأن سابقًا، نكتفي، لمزيد من الإثبات، بإيراد شهادتين إضافيّتين، صادرتين عمّن له وظيفةٌ رسميّة في الدولة:

٢٧٧ فگريگوريُو ده إنُوسترُوسا Gregorio de Hinostrosa، حاكم البرگواي، كتب في ٦ أيلول ١٦٤١ إلى رئيس محكمة تشاركَس الملكيّة، يوصيه بإعطاء الگواراني أسلحةً ناريّة لأنهم بحاجة إليها للدفاع عن أنفسهم من هجمات «المالوكُس»، كما أنّهم يحرسون بفضلها الحدود الشرقيّة لإيالته. وأشاد حاكمٌ آخرُ البرگواي، فِلِيبه ده رِيخا كُورْڤالان Felipe de Reja Corvalán، في تقريرٍ بعث به إلى ملك إسبانيا (الأوّل من حزيران ١٦٨٢)، بِدَور «الحواضر» الدفاعيّ، قال: «إنّها تحُول دون انتقال البرتغاليّين إلى البيرو (...)، وتسارع إلى القيام بالأشغال العامّة وسائر المهامّ العسكريّة وفقًا لأوامر الحكّام، كما أُتيحَ لي اختباره طوال السنوات العشر التي كنتُ خلالها حاكم البرگواي، إذ تحقّقتُ مدى احترام سكّانها وإطاعتهم الموظّفين الملكيّين (...)، وإليهم يعود الفضل في انتصارنا الرائع يومَ معركة سان گبْرِيِيلهِ San Gabriele لأنّه تَعذَّرَ علينا آنذاك طردُ البرتغاليّين – لفرط ما أحكموا تحصينهم – لولا مساعدة ثلاثة آلاف هنديٍّ جاؤوا لنصرتنا (...). هذا وإنّ قراهم تنمو يومًا بعد يوم وتزدهر، في حين جميع الإرساليّات في الإيالة وفي كلّ المملكة هي إلى تدنٍّ، كما يعلمه القاصي والداني».

٢٧٨ في هذا الوضع العسكريّ السائد على الحدود بين البرگواي والبرازيل، وإزاء حرب العصابات التي كانت تدور عادةً في غابات تلك النواحي، يبدو غيابُ الجيوش الإسبانيّة طبيعيًّا، ولا ينبغي إذًا أن نعزُوَه إلى عدم اهتمام السلطات أو إلى اعترافٍ صريح باستقلال «دولة» الگواراني.

كذلك، بالنسبة إلى تدوين الخرائط الجغرافيّة لحدود تلك «الدولة»،

يلاحَظ أنّ عددًا من خرائط القرنين السابع عشر والثامن عشر لم يَذكر هٰذه الحدود. إلاّ أنّه، حتّى لو رَسمتْ جميع الخرائط حدودَ «الدولة» اليسوعيّة، فليس في الأمر ما يُثبت استقلال «الحواضر»، لأنّ الخرائط كانت تشير، وما زالت، إلى أهمّ التقسيمات الإداريّة، ومنطقةُ الإرساليّات في البَرَگواي كانت وحدةً إداريّةً تنعم بحكمٍ ذاتيّ معترَفٍ به قانونًا وفعلاً.

٢٧٩ ختامًا نقول: إنّ «الحواضر»، منذ نشأتها وحتّى طرد اليسوعيّين من البلاد، عامَ ١٧٦٨، كانت جزءًا لا يتجزّأ من المملكة الإسبانيّة وراء البحار؛ وقد اتّبعتْ نظامًا إداريًّا مرتبطًا بالتنظيم الإسبانيّ للمستعمرات، وبالتالي نعمت بجملةٍ من الامتيازات منَحَها إيّاها الملوك ونوّابهم والحكّام؛ وأنشأتْ لنفسها مؤسّساتٍ خاصّةً كالمجالس البلديّة Cabildos التي اقتصرت عضويّتها على الهنود، وتنظيمًا اقتصاديًّا مركزيًّا، وجيشًا قويّ الشوكة. ولم يكتفِ اليسوعيّون بتأدية رسالتهم الروحيّة المحض على نحو ما تحدّده قوانينُهم ووصايةُ الملك في المجال الدينيّ، بل قاموا بمهامّ الموظّفين الحكوميّين، يؤمّنون مراقبة جماعات الگواراني ويديرون شؤونهم المدنيّة. ولم تنعم «الحواضر» وحدها بمثل هٰذه الامتيازات، فقد منَحت السلطات الإسبانيّة، في ظروفٍ أُخرى ومناطقَ أُخرى، قسطًا من الإدارة الذاتيّة لجماعاتٍ هنديّةٍ أدّت إلى المملكة خدماتٍ مميّزة. من ذٰلك أنّ بلدة تْلَكْسْكالا Tlaxcala في المكسيك، التي ساعدت إرْنان كُورْتيس Hernán Cortés بشكلٍ فعليّ حاسم في محاربته الأزْتيك، مُنِحتْ الحكمَ الذاتيّ كاملاً، واحتُرِمت أعرافها الإداريّة السابقة، وأُعفي أهلُها من الخدمة الشخصيّة، وكان كبيرُ قضاتها هنديًّا ينتخبه الشعب. ونال مثلَ هٰذه الامتيازات بلدةُ تِنْتْسُنْتْسان Tzintzuntzán عاصمة منطقة مِتْشُواكان Michoacán في المكسيك أيضًا، وكذٰلك هنودُ الپارياس Parias في الڤِنِزويلا، وقد أُعفوا من «المحصول» سنة ١٦٤٣ لمقاومتهم الهولنديّين الذين حاولوا النزول على شواطئهم.

٢٨٠ فوالحالة هٰذه، لم تتميّز «حواضر» الگواراني عن سواها بخروجها عن قاعدة الشرع الإسبانيّ الخاصّ بالمستعمرات، بل باتّساع رقعتها الجغرافيّة، وقيامها بدور «الدولة» الواقية من هجمات البرتغاليّين، وتفويض

تنظيمها إلى رهبانٍ هم اليسوعيّون ، أداروها على نحو ما يسيِّرون شؤون مدرسةٍ ضخمة توزَّعت على ثلاثين جماعة تخضع كلُّها لرئيسٍ واحدٍ مقرُّه في كَنْدِلَريا ، ويخضع هو أيضًا لسلطة رئيس إقليم البَرَكواي المقيم في كُورْدُبا .

٣) ثورة «الكُومُونيرُس» (العامِّيين) في أسونثيون

٢٨١ بعد خمود الاضطرابات التي أثارها كارْدِنَس ، نعمتْ «دولة» اليسوعيّين بمدّة نحو سبعين سنةً من الهدوء ، فازدهرت بأمانٍ وسلام . ولئن حاول المولَّدون ، حينًا بعد حين ، الاستيلاءَ على اليد العاملة الگواراني ، فقد كان اليسوعيّون لهم بالمرصاد إنْ في مدريد أو في البَرَكواي . ممّا قطع دابر كلّ حادثٍ يُذكَر . كما أنّ البرتغاليّين و «المالوكُس» خافوا سطوة الجيش الگواراني فارتدعوا واكتفوا بهجماتٍ محدودةِ الحجم والخطورة .

٢٨٢ ولم تنفجر الأزمة الكامنة بين «الحواضر» والمولّدين في البَرَكواي إلاّ خلال العقد الثالث من القرن الثامن عشر ، ضمن إطارٍ أوسع هو انتفاضة سكّان أسونثيون على السلطة الإسبانيّة . وثورة «گُومُونيرِس مدينة أسونثيون» — على حدّ ما درجتْ تسميتُها فيما بعد — تتزامن مع تمخّضات الحركات الداعية إلى الحكم الذاتيّ والمهيِّئة لاستقلال جنوب أميركا . ومع أنّ الناحية السياسيّة في تلك الاضطرابات لم تَعْنِ «الحواضر» سوى بشكلٍ هامشيّ ، إلاّ أنّ تطوّراتها تسبّبت بنتائج خطيرةٍ في حياة الشعب الگواراني . أمّا تسلسل الأحداث فقد جرى على النحو التالي :

٢٨٣ في الخامس من شباط سنة ١٧١٧ عُيِّن دِييگو ده لُوس رايِس بَلْمَثِيدا Diego de los Reyes Balmaceda حاكمًا وقائدًا عامًّا على البَرَكَواي ، فلم يَنَلْ حظوةً في أعين المولَّدين لأنّه لم يكن من جنوب أميركا أصلاً ، ويمثّل بالتالي في نظرهم البيروقراطيّة الإسبانيّة في أسوإ مظاهرها ، مؤسَّسةً تبالغ في المركزيّة وتحدُّ من تطلّعات المستعمرات إلى الحكم الذاتيّ ؛ وقد حَمل المجتمعُ الاستعماريّ في جنباته طوال قرنين متتاليين بذورَ تلك التطلّعات ، فاستحالت فيما بعد استقلالَ أميركا الجنوبيّة عن إسبانيا . وما كاد رايِس يتسلّم زمام الحكم حتّى دخل في خلافاتٍ مع الوجهاء المحلّيين وقِسمٍ كبير من

السكّان المولّدين ، وراحت المعارضة له تتضخّم. فقرّر توطيد سلطته بسلوك طريق البطش ، وعمد إلى سجن بعض الرؤوس. ثمّ أقدم على بضعة إجراءاتٍ ثار لها ثائر المستعمِرين في البرگواي : منها ، على سبيل المثال لا الحصر ، أنّه بعد حَمْلةٍ تأديبيّة على قبيلة البَياگابِس Payaguaes «المتمرّدة» ، لم يوزّع سجناء تلك «الحرب العادلة» بين المولّدين أصحاب الأراضي ، بل سلّمهم إلى اليسوعيّين في «الحواضر» ليدمجوهم في جماعات الگواراني.

٢٨٤ وفي نهاية عام ١٧٢٠ رَفع بعضُ أهالي أسونثيون شكوى على رابِس لدى محكمة تشاركَس الملكيّة ، فأمرت بإجراء تحقيقٍ وأوفدت إلى أسونثيون القاضي المحقِّق خُوسِيه ده أَنتِكِيرا إنْرِيكِس إي كاسْتْرُو José de Antequera Enriques y Castro ، وهو إلى ذلك يحمل لقب «حامي الهنود». فما إن وصل أَنْتِكِيرا إلى أسونثيون في صيف ١٧٢١ حتّى دفع عَجلةَ التحقيق وفي نيّته إبطالُ الإجراءات غير الشرعيّة التي اتّخذها رابِس ، وإعادةُ الشؤون العامّة إلى سابق نظامها بعد ما لحقها من اضطرابٍ في عهد الحاكم. وبعد تحقيقٍ سريع أقال أنتكيرا رابِس وسَجنه ؛ وأستند إلى تعليماتٍ أعطاه إيّاها نائبُ الملِك في البِيرو ، مُورثِيلْيو Morcillo ، بتاريخ ٢٤ نيسان ١٧٢١ – أي قُبيل تسلُّمِه مهامّه – فتولّى بشكلٍ شرعيّ سلطاتِ الحاكم. واستطاع رابِس في تلكَ الأثناء الهرب إلى بوينس آيرس وبعث من هناك باحتجاجٍ إلى نائب الملك يشكو فيه تعدّي المحقِّق صلاحيّاته. إلاّ أنّ نائب الملك ، وكان إكليريكيًّا ، راح يماطل ، لا سيّما أنّ محكمة تشاركس لم تعارض بشكلٍ سافِر سلوكَ أَنْتِكِيرا ، فظلّت الأوضاع في أسونثيون على حالها وبقي المحقِّق في كرسيّ الحاكم.

٢٨٥ أمّا اليسوعيّون في «الحواضر» ، فبدأوا ينظرون بشيءٍ من الخوف إلى تلك المستجدّات. ذلك بأنّ أَنْتِكِيرا كان يحظى بتأييد المولّدين ، وهم في أغلبيّتهم من «المحصِّلين» ، أي من أعداء «الحواضر» الألِدَّة. كما أنّه كانت للمحقِّق صفةُ «حامي الهنود» ، ممّا يعني أنه يستطيع التدخّل ، بشكلٍ من الأشكال ، في إدارة الإرساليّات ، التابعةِ شرعًا لأسونثيون ، ويمكنه أيضًا ،

بضغطٍ من المولّدين ، إدخال نظام « المحصول » في « حواضر » الگواراني . وفيما كان الرهبان عرضةً للهواجس حيارى ، قَدِم إليهم رايِس زائرًا ، وقد شدَّد مِن عزمِه قرارٌ اتّخذه مُورثِيليو لصالحه فيقضي بالكفّ عن ملاحقته ويستدعي أنتكيرا إلى محكمة لِيما للإدلاء بشهادته الشخصيّة في معضلة البرگواي . وبانتظار حُكمٍ نهائيّ ، قرّر مورثِيليو أيضًا تعيينَ حاكمٍ جديدٍ مؤقّت للبرگواي ، هو الكولونيل بَلْتَسار گَرْثِيا رُوس Baltasar Garcia Ros . إلاّ أنّ رايِس ادّعى أنّه ما زال الحاكم الشرعيّ وراح يطلب مساندة الرهبانيّة اليسوعيّة له ؛ فتدارس المرسَلون الأمر خلال اجتماعٍ « على مستوىً رفيع » عقدوه في كندلريا ، ولم يكن من السهل اتّخاذ قرارٍ واضحٍ ما لم تُعرف النتيجة النهائيّة لاستئناف رايِس لدى محكمة ليما . بَيْد أنّهم قرّروا أخيرًا الاعتراف بسلطة رُوس . وكانوا ، بموقفهم هذا ، إنّما يأخذون بالاعتبار الامتيازات والضمانات التي طالما نعموا بها ، وهُم يرونها الآن عرضةً لمطامع النظام الآخذ بالتمركز في أسونثيون ؛ وباتت الهوّة تتّسع بينهم وبين السكّان المولّدين . ولمّا كانوا على بيّنة من هذه العواقب ، سعوا إلى إعداد الهنود للحرب وجهّزوا قوّةً مسلّحة للدفاع عن حدود « الحواضر » من جهتَي الشمال والغرب .

٢٨٦ في تلك الأثناء انطلق الكولونيل رُوس نحو أسونثيون ليقيم فيها حاكمًا مؤقّتًا . وكانت الأحوال في المدينة بقيتْ حتّى ذلك الحين ضمن حدود الشرعيّة ، وإنْ على شيء من التوتّر ، ولم تُحصَ آنذاك أعمال تمرُّدٍ سافرٍ على نائب الملك . إلاّ أنّ الثورة اندلعت مع محاولة رُوس الاستيلاء على الحُكم ، فرفَض أنتكِيرا والمجلس البلديّ وقسمٌ كبير من السكّان قبولَ الكولونيل في المدينة ؛ ولمّا حاول رُوس الدخول بمواكبة فرقةٍ مسلّحة ، اضطُرَّ إلى الفرار مهزومًا . وإذ أيقن أنه ليس لديه من القوى النظاميّة ما يمكّنه من معاودة الهجوم ، آثر التراجع نحو بوينس آيرس وأمر اليسوعيّين بنشر الگواراني على ضفاف نهر التِبِكُوارِي Tibicuary . وفي المقابل انطلقت من أسونثيون شرذمةٌ مسلّحةٌ وسارت باتّجاه « الحواضر » لعلمها بلجوء رايِس إليها ، وكان المولّدون يرومون القضاء عليه ؛ غير أنّ انتشار الگواراني على ضفاف التبكواري حال دون تقدّم المهاجمين . وبتلك الشرارات أخذ أُوار الحرب يضطرم بين

المولَّدين و « الحواضر » .

٢٨٧ وكان عامُ ١٧٢٣ قد أشرف على الانقضاء . فانبرى أنتكيرا ، وقد تبنّى قضيَّة أهل أسونثيون ، يساند المولَّدين بما كان له من تنشئةٍ حقوقيةٍ وتاريخيّة ، ويؤيّد تحرُّكهم الشعبيّ بفكرٍ سياسيّ . وممّا أعلنه : « الشعوب لا تتنازل قطّ عن سلطانها . وتفويضها الشكليّات والقيام بالوظائف التشريعيَّة (...) لا ينتج عنه البتّة عزوفُها عن القيام بها إذا ما تقاعس الحاكم في تأدية واجباته فأضرَّ عملُه بوصايا العقل المطلَق الأزليّة التي تسمو على جميع القوانين ، وبالتالي تفوق كلّ سلطان » . وإذا بإجراء جديدٍ صارم يتّخذه نائب الملك ، بعد أن تبيّن له أنّ الاضطرابات في البرِكواي باتت تهدِّد النظام الاستعماريّ في جنوب أميركا . فأمر الكولونيل رُوس بالذهاب مرّة أُخرى إلى البرِكواي ، والقضاء على التمّرد ، وتسلُّم زمام الحكم في أسونثيون ؛ وانطلقت القوّاتُ الشرعيّة نحو الشمال في حين تلقّى الگواراني إيعازًا بحمايتها منتشرين على حدود منطقتهم .

٢٨٨ وما إنْ بلغ خبرُ الهجومِ الوشيكِ مدينةَ أسونثيون ، حتّى هاج أهلُها وعجُّوا ، وفي ٧ آب ١٧٢٤ طردوا اليسوعيّين المقيمين بين ظهرانيهم ونهبوا ديرهم ومدرستهم . وخرج مسلَّحوهم لمواجهة رُوس والمحاربين الگواراني ، وكان هؤلاء بإمرة اثنين من الرهبان ، پُوليكرْپُو دُوفُو Polycarpo Dufo وأنْطُونيُو رِيبارَا Ant. Ribera ، فتمكّن المولّدون من مباغتة الهنود وأجهزوا على بضع مئاتٍ منهم وأسروا اليسوعيّين وسائر القوّاد الگواراني . ولعبت خمرةُ النصر في رؤوس سكّان أسونثيون ، فرأوا في متناول أيديهم هدفًا طالما سعوا إليه منذ قرنٍ ونيّف ، ألا وهو تدميرُ نظام « الحواضر » وفرضُ الخدمة الشخصيّة على أبنائها ؛ وفي المقابل استحالت مخاوفُ اليسوعيّين واقعًا ملموسًا . أمّا أنتِكِيرا ، فدبَّت فيه الحماسة ، وانتقل بقوّاته إلى ما وراء التبكواري حتى نهر البِرَنا ، واجتاح « الحواضر » القريبة منه . وكان المستعمرون ، في إثر زحفهم ، يعلنون انتهاءَ النظام اليسوعيّ ، ودمجَ « حواضرهم » في إطار إدارة أسونثيون ، وقيامَ الخدمة الشخصيّة ، في حين راح الگواراني يهربون من « الحواضر » أفواجًا ويلجأون إلى الغابات .

٢٨٩ إلاّ أنّ «الدولة» اليسوعيّة كان لها من المعنويّات والمادّيّات ما لا يُستهان به. وبعد عبور موجة البلبلة الأولى التابعة لهزيمة التبكواري، نظّموا قوّةً جديدةً قوامها ستّة آلافٍ من الگواراني بإمرة رُوس فأوقفت زحف أنتكيرا وشنّت على المولّدين سلسلةً من عمليّات الاستنزاف اضطرّتهم إلى التقهقر بسرعةٍ نحو أسونثيون وإخلاء القرى التي احتلّوها وعاثوا فيها تهديمًا وتخريبًا. غير أنّ روس بالغ في الحذَر، فلم يبادر إلى مهاجمة مدينة أسونثيون، على الرغم من حثّ نائب الملك له، واكتفى بفرض المراقبة على مداخلها ومخارجها.

٢٩٠ ومضت ثلاثة أعوام لم يعكّر صفوَها أيُّ عمليّةٍ عسكريّة، سوى أنّ الحالة لم تكن ولا حربًا ولا سِلمًا. وعُيِّن في تلك الأثناء نائبٌ للملك جديد، يُدعى خُوسِيه أَرْمَنْدَرُو José Armandaru، مَرْكِيز كَسْتِلْفُوِيرْته Castelfuerte، وكان عسكريًّا. فرأى أنّه لا بدّ من جلاء الوضع في أسونثيون بسرعةٍ كلّيّة، وإلاّ استشرى شرُّه وباتَ سابقةً وخيمةَ العواقب على الأقاليم الأخرى. وما كان منه إلاّ أن أمرَ بِشنّ هجومٍ حازمٍ حاسم أَوكلَ قيادتَه إلى حاكم بوينس آيرس، بْرُونُو ده ثَقَالا Bruno de Zavala. فانطلق ثڤالا على رأس جنوده يدير الهجوم بنفسه، ودخل البرگواي، وانهزمت أمامه قوّات المتمرّدين، فاقتحم دون كبير عناءٍ مدينة أسونثيون في نيسان ١٧٢٧. وما لبث أن نصَّب فيها حاكمًا جديدًا، هو مارتين ده بَرُوا Martín de Barúa، دامَ في وظيفته نحو أربع سنوات. وبدا وكأنَّ روح الثورة انطفأت في المدينة، واضطُرَّ أنتكيرا إلى الهرب باتّجاه كُوردُبا مع نفرٍ قليل من أتباعه.

٢٩١ وما إن وصل القائد الفارّ إلى تلك المدينة حتّى أُلقي القبض عليه، فاقتيد إلى لِيما حيث حُوكم، وأُعدِم في ٥ تمّوز ١٧٣١. بيد أنّ عمليّة الإعدام هٰذه كانت غلطةً سياسيّةً فادحة؛ وقد حاول المولّدون في البرگواي، وحتّى في البيرو، الاعتراض عليها، فلم يصِلوا إلى نتيجة. وكانوا يرون في أنتكيرا بطَلَ كلّ استقلالٍ محلّيّ يقارع استبداد السلطة المركزيّة التي آنَ لها أن تزول بعد أن عفا عنها الزمن؛ كما كانوا يرون في الإعدام المذكور عمليّةَ قمعٍ ظالمة، لا طائل تحتها ولا مبرّر ما دامت المياهُ في أسونثيون عادت إلى سابق

مجاريها. ولمّا كانت جُذوةُ الثورة مشتعلةً بعدُ تحت الرماد في قلوب المولَّدين، اندلعت شعلتُها بعنفٍ وثار القوم مرّةً أُخرى يقودهم محامٍ شابٌّ يُدعى فِرْنانْدُو مُومْپوكْس F. Mompox، وهو من أتباع أنتكيرا ورفيقه في الحبس - سوى أنّه استطاع الفرار قبل إصدار الحكم. ولم يتمكّن الحاكم الجديد، إِنْياثِيُو ده سُورُوتِيا I. de Sorotea، الدخول إلى أسونثيون، في حين انتخب الثوّار مُومپوكس حاكمًا عليهم، وجَعلوا من مدينتهم «عاميّةً» - ومن هنا تسميتهم «بالعاميّين» - وحاولوا نشر حركتهم في سائر أنحاء البرِكواي[٦٥].

٢٩٢ وتابعت الانتفاضة مسيرتها فأُزيلت في أسونثيون جميع القوى الشرعيّة، واغتالت الجماهيرُ الغاضبة - يومَ ١٥ أيلول ١٧٣٣ - الحاكمَ الذي عيّنه نائبُ الملك واستبدلته بمجلس قيادةٍ إقليميٍّ منتخَب برئاسة أُنطُونيو رُويث ده أَرِلْيانو A. Ruíz de Arellano (وكان مُومپوكس قد أُسر في تلك الأثناء، أَسَرَتْه القوّات الحكوميّة)، ثم ضَربَ المولَّدون حصارًا على مدينة كُورِّيِنْتِس بعد أن رفضت المشاركة في العصيان. وهاجم «العاميّون» أيضًا أقربَ «الحواضر» إليهم، لكونها حصونَ الشرعيّة وفي الوقت نفسه مصادرَ ممكنةً للمحصول، وعاثوا في ديارها فسادًا وخرابًا، ووزّعوا بين المستعمِرين مَن أَسَروا من سكّانها الهنود.

٢٩٣ إلاّ أنّ خصومهم لم يقفوا مكتوفي الأيدي، فأَعلن الگواراني التعبئة العامّة وأرسلوا إلى الجبهات نحو اثني عشر ألفًا من المسلّحين، أي السواد الأعظم من رجالهم الأصحّاء. وصدّ جيشُ الگواراني هجمات المولَّدين وحالَ دون اقتحامهم غالبيّة القرى، ودامت المناوشات نحو سنتين، من ١٧٣٣ إلى ١٧٣٥. ونَظَّم ثڤالا في تلك الأثناء حملتَه الحاسمة: فاستجلب من بوينس آيرس عددًا جديدًا من القوّات النظاميّة، ودعمها بفصائل من الگواراني، وانتقل بها إلى منطقة التبكواري حيث التحمت، قرب بلدة تَبِپي Tabapi، مع المتمرِّدين، فهزمتهم وتعقّبت فلولهم حتّى ظاهر أسونثيون. واحتلّ ثڤالا عاصمة البرِكواي. وأصدر فيها بعض أحكامٍ بالموت والنفي، وألغى بصورةٍ

٦٥. قال مُومپوكس ما سبق وقاله أنتكيرا: «إنّ «العاميّة» لا تعترف برئيس. فإرادة المَلِك وجميع السلطات المنبثقة عنها (...) خاضعةٌ لها. وسلطة «العاميّة» أوّليّةٌ، دائمة، لا تُنتزع منها».

نهائيّة حقَّ سكّان أسونثيون – الذي طالما أثار الجدل – بانتخاب حاكمٍ لهم في حال شغور المنصب. وبذلك قُضي على ثورة «العاميّين».

٢٩٤ ومن المفيد أن نَسوق هنا توضيحًا وجيزًا: فموقف اليسوعيّين المُوالي للشرعيّة في المستعمرات، قد يبدو رجعيًّا مخالفًا لِمَسار التاريخ، إلاّ أنّه لم يكن هكذا في الواقع، أو أقلّه لم يكن إلاّ على شيءٍ قليل من ذلك. فلا ينبغي أن تخدعنا تسميةُ ثوّار أسونثيون «بالعاميّين»، إذ إنّ انتفاضتهم على السلطة المستعمِرة، وإن كانت عادلةً من الناحية التاريخيّة، إلاّ أنّها حملت في صميمها بذورَ الظلمِ الاجتماعيّ. والمجتمع الذي قام فيه «العاميّون» كان في جوهره مجتمعًا زراعيًّا رأسماليًّا هدفه النموّ على حساب الطبقة العاملة الضعيفة، أي الجماعات الهنديّة. فمن المستحيل إذًا أن يُعْتَبَر حلولُ سلطة المولَّدين، بدلَ سلطة الملك واليسوعيّين، تقدُّمًا على الصعيدين الاجتماعيّ والاقتصاديّ بالنسبة إلى الگواراني؛ بل لو حصل ذلك التبدّل، لجَرَّ معه استعبادَ الهنود استعبادًا تامًّا.

٢٩٥ ومهما يكن من أمر، فقد خرجت «الحواضر» من تلك الحرب الأهليّة مَهيضَةً مُنْهَكَة، إذ مات من أبنائها ما يربو على خمسة آلافٍ بين قتيل في المعارك ومتوفًّى بسبب الأمراض والفاقة الناتجة عن الاضطرابات. أمّا الأضرار الماديّة، فكانت، ولا شكّ، جسيمة. إلاّ أن الرهبان شمّروا عن سواعدهم لإعادة التعمير، يحثّهم تشجيعُ البلاط في مدريد وقد عَرَفَ لهم جميلَ ما صنعوه لِمؤازرة نائب الملك في ليما والحكّام الشرعيّين. والحقّ أنّه كان من الصعب على اليسوعيّين اتّخاذ موقفٍ مغاير، فهُم مرتبطون بالمملكة ارتباطًا وثيقًا لا سيّما بسبب الامتيازات التي خصَّتهم بها على مرّ السنين، ومنها إعفاء الگواراني من السخرة الشخصيّة. كما أنّه كان من شبه المستحيل عليهم، هم الذين أقاموا في «الحواضر» نظامًا أقرب ما يكون إلى النظام الثيوقراطيّ، أن يقبلوا بفكرة سلطان الشعب التي جعلها أَنتكيرا ومُومپوكس منطلَقًا للحكم الذاتيّ الذي نادى به المولَّدون. وقد عبّرت السلطات الإسبانيّة عن ارتياحها لتصرّف اليسوعيّين في البرگواي وأصدر الملك فيليبّس الخامس، في ٢٨ كانون الأوّل ١٧٤٣، ما عُرِف «بالوثيقة العُظمى»، وهي تثبِّت سائر الامتيازات التي

أنعم بها ملوكُ إسبانيا السابقين على الرهبانيّة اليسوعيّة ومَن في عُهْدَتِهم من الگوارانى.

إلاّ أنّ السلام لم يدُم سوى نحو خمس عشرة سنة، إذ تدخّلتْ متطلّباتُ السياسة الأوروبيّة مرّةً أخرى في حياة الجماعات الهنديّة بالپرگواي، وكان لهذا التدخّل نتائجه السلبيّة.

٤) معاهدة مدريد في ١٣ كانون الثاني ١٧٥٠

٢٩٦ إنْ ألقينا نظرةً على خريطة أميركا الجنوبيّة، لاحظنا أنّ «الحواضر» اليسوعيّة كانت تقوم قربَ منطقة الحدود الإسبانيّة البرتغاليّة التي رسمتْها معاهدةُ تُورْدِسِيلْياس Tordesillas سنة ١٤٩٤. وكانت إشارات تلك المعاهدة قابلةً لتآويل مختلفة، ممّا أثار حول تحديد التخوم بين الأراضي الإسبانيّة والبرتغاليّة جدالاتٍ طويلةً دامت سنين تِلوَ السنين دون أن يُبَتّ فيها. والظاهر أن البرتغاليّين، المتمركزين في البرازيل، أبدوا نشاطًا مرموقًا وبادروا إلى التوسّع جهةَ الداخل نحو الگوايْرا، مجهِّزين «التجريدات» ومحتلّين، عامَ ١٦٨٠، قطاعًا من الساحل عند مصبّ الرِيُو ده لاپلاتا حيث شيّدوا قلعة سان سَكْرَمِنْتُو San Sacramento . أمّا الاسبانيّون فقد ركّزوا اهتمامهم على البيرو والپيرو الأعلى والتشيلي، وكانوا في حالة الدفاع. ولئن لم تكن هجماتُ البرازيليّين ذات أهمّيّة سياسيّة أو دبلوماسيّة تُذكر – لأنّها جاءت نتيجةً لمبادراتٍ محلّيّة، فتأسيس مستعمرة سان سَكرمنتو أثار لِتوّه ردّات الفعل على الصعيد الرسميّ: ذلك بأنّه كان عملاً سياسيًّا حقيقيًّا، سَمَح به قرارٌ أصدره يومَ ١٢ تشرين الثاني الوصيُّ على العرش والملك العتيد پيدْرُو الثاني Pedro II، وقام به مانُويل لُوبُو Lobo القائد العام في رِيُو ده جَنِيرُو. وقد هُوجِمت القلعة مرتَّين، هاجمها الاسبانيّون بمساعدة أنصارهم الگوارانى، واحتلّوها سنة ١٦٨٠ وسنة ١٧٠٥، إلاّ أنّهم اعادوها بعد كلا التاريخين: المرّةَ الأولى على إثر احتجاجِ عاهِلِ البرتغال، والمرّة الثانية عملاً بأحد بنود معاهدة أُوتْرِخت Utrecht التي أنهت الحرب بين إسبانيا والبرتغال. وكانت سان سكرمنتو، فضلاً عن تهديدها الدائم لمدينة بوينس آيرس وإقليمها،

تتّخَذ قاعدةً لنشاطٍ تهريبيّ مزدهر ، فتُنقَل منها مُنتَجات البرتغال وحليفتِها التقليديّة إنْكلِترّا نحو المستعمرات الإسبانيّة.

٢٩٧ وفي ١٣ كانون الثاني ١٧٥٠ قرّرت إسبانيا والبرتغال وضعَ حدٍّ للجدل المستمرّ بينهما حول تفسير معاهدة تُورْدِسِيلْياس ، ووقّعتا في مدريد معاهدةً لتحديد تخوم المستعمرات. وممّا جاء في تلك الوثيقة أنّ الخطّ الحدوديّ الممتدّ من الشمال إلى الجنوب بحسب ما نصّته معاهدة ١٤٩٤ ، استُبدِل بخطٍّ جديد يتبع اتّجاه الجبال والأنهر. وتطبيقًا لهٰذا المقياس ، تخلّت إسبانيا للبرتغال عن منطقة البرَكواي الممتدّة شرقَ نهرَي الأوروكواي والإيبِكُوي Ibicuy ونالت منها في المقابل التخلّيَ المرتجى عن مستعمرة سان سكرمنتو. وكانت المنطقة التي حصل عليها البرتغال تشمل قسمًا من «دولة الحواضر» فيه سبع قرى ، وكان على الكواراني في تلك القرى ، بصفتهم من الرعايا الإسبانيّين ، أن يرحلوا إلى الغرب تاركين للبرتغاليّين بيوتهم وأراضيهم. ولحق بالكواراني أضرارٌ جسيمة على الصعيدين المادّيّ والمعنويّ: فإلى جانب «الحواضر» السبع ، وهي سان بُورْخا ، وسان نقولاس ، وسان لويس كُونْزاكا ، وسان مِيكال أَركانْخِل ، وسان لُورِنْثُو ، وسان خُوان باوتِسْتا ، وسان أَنْخِل ، شملت المنطقةُ ، التي تنازل عنها الاسبانيّون ، «المزارعَ» المشتركة التابعة لأربع «حواضر» من المنطقة الغربيّة ، وهي كُونِثِبْثِيُون ، ولاكْرُوث ، وسانْتُو تُومِه ، وسان خَفِير ، وكان الكواراني يحصلون منها على القسم الأكبر ممّا يلبّي حاجاتهم الغذائيّة. وقدّر اليسوعيّون قيمة الممتلكات غير المنقولة التي اضطرَّ الهنود إلى التخلّي عنها بملايين من البِيسُوس ، فقدّمت السلطات الإسبانيّة لكلٍّ من «الحواضر» السبع تعويضًا مقطوعًا بقيمة أربعةَ آلاف بِيسوس (أي ما مجموعُهُ ثمانيةٌ وعشرون ألف بِيسُوس) وأعفت جميع سكّانها من دفع الضرائب لمدّة عشر سنوات. وحاولت الرهبانيّة اليسوعيّة ، تدعمها السلطات الكنسيّة والمدنيّة في البيرو ، التدخُّلَ لدى ملك إسبانيًا منبِّهةً إلى الأخطار التي ستهدِّد المستعمراتِ الأميركيّة من الناحية الإستراتيجيّة بعد تطبيق المعاهدة ، فلم تُفلح مساعيها ، واضطُرّت إلى الرضوخ لمصلحة الدولة العُليا.

٢٩٨ وكان اليسوعيّون في تلك الفترة يمرّون بصعوباتٍ وأخطار.

فالفكر المستنير العقلانيّ راح يشقّ طريقه سريعًا في أوروبّا لدى ذوي السلطان وفي الدوائر الحكوميّة والأوساط الثقافيّة، وازداد الملوك يومًا بعد يومٍ غيرةً على استقلالهم عن تدخّلات البابا، وراحوا يشدّدون الرقابة على الرهبانيّة اليسوعيّة المعروفِ عنها أنّها، في أساس دعوتها، أداةٌ طيّعة بين يدي الحبر الأعظم وبه تأتمر مباشرةً، فبات من الخطر عليها، في تلك الأحوال، أن ترتكب أيَّ هفوةٍ مهما صغرتْ.

٢٩٩ وعليه عزم الرئيسُ العامّ الأب إنْياتْسِيُو ڤِسْكُونْتِي Ignazio Visconti على أن يقطع دابرَ كلّ تعطيلٍ لمعاهدة مدريد، وأرسلَ في ٢١ كانون الثاني ١٧٥١ تعليماتٍ مشدَّدةً إلى رئيسَي إقليمَي البرگواي والپيرو، وإلى رئيس «الحواضر» مَتِياس ده شْتْرُوبِل Matías de Strobel، قال: «أطلب من حضرتكم (...) أن تَفرضوا باسمي (...) وبقوّة الطاعة المقدّسة، وتحت طائلة الخطيئة المميتة، ما يلي: لا يمانعْ أحدٌ من الرهبان، ولا يقاومْ بشكلٍ من الأشكال، مباشرةً أو غيرَ مباشِرة، تسليمَ القرى السبع المذكورة مع أراضيها (...) إلى مملكة البرتغال. وإنّي آمرُ (...) جميع اليسوعيّين العاملين في القرى المذكورة، وأوصيهم فردًا فردًا بأن يضغطوا على الهنود ويسألوهم تسليم قراهم إلى السلطات البرتغاليّة دون مقاومةٍ ولا معارضةٍ ولا أعذار، بحسب ما يطلبه جلالةُ الملِك الكاثوليكيّ». وإضافةً إلى ذلك، ورغبةً من الرئيس العامّ في التثبُّت مِن أنّ أوامره سوف تُنفَّذ، أرسَل إلى البرگواي مفوَّضًا يسوعيًّا مزوَّدًا بأوسع الصلاحيّات لتنفيذ الجلاء وتسليم «الحواضر» إلى البرتغاليّين. وكان المفوّض لُو پِه لُوِيس أَلْتامِيرانُو Lope Luis Altamirano، فانطلق من إسبانيا بمعيّة مفوّض الملك، المسؤول عن تنفيذ المعاهدة، واسمه كَسْبار ده مُنِيڤِه، Gaspar de Munive مَركيز ڤَلْدِلِيرِيُوس Valdelirios، ووافى الاثنان مدينةَ بوينس آيرس يوم ٢٠ كانون الثاني ١٧٥٢. وختامًا، ولمزيدٍ من الضمان، عيَّن اليسوعيّون في البرگواي رئيسًا إقليميًّا جديدًا أَتَوا به من الپيرو، معتبرين أنّ عنصرًا من خارج «دولة» الگواراني سوف يكون أقلّ انحيازًا على الصعيد العاطفيّ للقيام بالواجب الصعب المفروض عليه.

٣٠٠ وانقضى سنتان على توقيع المعاهدة ولم يسجِّل تنفيذُها كبيرَ تقدُّم ، لأنَّ اللجنة المختلطة التي تولَّت رسم الحدود الجديدة تأخَّرت عن مباشرة العمل. وراحت الحكومة البرتغاليّة تتَّهم نظيرتَها الإسبانيّة باللجوء إلى التحفّظات الذهنيّة والمراوغة ، كما وجَّه الإسبانيّون الاتّهامات نفسها إلى البرتغاليّين.وفي غضون سنة ١٧٥٢ ، قام الگواراني بزرع حقولهم ، ثقةً منهم بأنّه يُتاح لهم البقاء حتّى الحصاد ، لِما للغلال المنتظَرة من أهميّةٍ بالنسبة إليهم ، إذ لم يكن بدٌّ منها لتأمين معيشتهم خلال فترة انتقالهم إلى ديارهم الجديدة. ونجح اليسوعيّون في إقناع جماعات الگواراني بالرحيل نحو الغرب ، أو أقلّه نجحوا في المحافظة على الهدوء في «الحواضر» على الرغم من أنّ الهنود بدأوا يظهرون علامات الاضطراب ؛ وانطلق بعض المرسَلين ، مع نفرٍ من الگواراني ، باتّجاه الغرب لاستكشاف الأماكن الصالحة «للحواضر» الجديدة.

٣٠١ ولم يمضِ طويلُ وقتٍ على قيام الگواراني ببذْر زَرْعِهم ، حتّى أَعلم المفوَّض البرتغاليّ المسؤولُ عن تنفيذ المعاهدة نظيرَه الإسبانيّ ڤَلْدِلِيرِيُوس بأنّه لم يعد مستعدًّا للسماح بالمزيد من المماطلة في شأن رسم الحدود وإخلاء القرى. فلم يبقَ لڤلدليريوس من مفرّ ، لا سيّما أنّ تعليمات مدريد فرضت عليه تنفيذ المعاهدة في أسرع ما يمكن ، لخوف إسبانيا من أن يعود البرتغال إلى الحرب تؤازره إنكلترّا التي كانت تتَّجه بأنظارها ورغباتها إلى منطقة الريو ده لاپلاتا. وعليه اختصر ڤلدليريوس الوقت الذي سَبَقَ ومَنَحه الهنودَ للقيام بهجرتهم ، ممّا كان يعني في الواقع تلفَ المزروعات وتعرُّضَ الگواراني للمجاعة. فقبلت ثلاثُ «حواضر» الانتقالَ دون أيّة مقاومة ، وهي سان لُورِنْثُو ، وسان لويس گُونْزاگا وسان بُورْخا ؛ بيد أنّ أربعًا أُخرى تمرَّدت على السلطات الإسبانيّة والرهبان اليسوعيّين معًا ، وهي : سان نِقُولاس ، وسان خُوان باوتِسْتا ، وسان أَنْخِل ، وسان مِيگال.

٣٠٢ خلال شهرَي شباط وآذار ١٧٥٣ تمكّن هنود «حاضرة» سان ميگال ، بقيادة «الفارس» خُوسِيه تِيارَيُو Tiarayú – الملقَّب بـ «سِيپِيه» Sepé ، مِن إحباط مساعي اللجنة المكلَّفة برسم الحدود الجديدة ، فحاصروها في محلّة سانْتا تاكلا Santa Tecla ، وبعد عددٍ من العمليّات

الحربيّة، أجبروها على الانسحاب. أمّا المرسلون، فقد سَجن الگواراني بعضهم، واضطُرَّ بعضُهم الآخر إلى الهرب من «الحواضر»، في حين بقي آخَرون منهم بين الهنود، متضامنين معهم نفسيًّا وإنْ بقوا على الحياد شكليًّا. وفي تلك الأثناء جاء المفوَّض اليسوعيّ ألْتاميرانُو إلى ياپيُو وجَعل فيها مقرّه، إلاّ أنّه ما لبث أن يئس من الأوضاع وخانته أعصابه فابتعد عن منطقة «الحواضر» ونزل في سانتا فِيه. ومن هناك وجَّه إلى المرسَلين في القرى قواعدَ للتصرّف لا تخلو من الاضطراب والتناقض: فقد أوعز بتسريع ذهاب الگواراني، في حين سمح لرهبانه بالبقاء في «الحواضر» المتمرّدة، أقلّه حتّى إشعارٍ آخر. وقد أضحت هٰذه القواعد فيما بعد مصدرًا للجدل مع السلطات الإسبانيّة وحتّى بين اليسوعيّين أنفسهم، إذ كانت على نحوٍ من عدم الوضوح ترك المجال مفتوحًا أمام مختلف التفسيرات للروح التي رُسِمَت فيها وللمواقف التي كان على المرسَلين اتّخاذُها.

٣٠٣ عند هٰذا الحدّ، قرّر قْلدِلِيريُوس ونظيره البرتغاليّ أنْدرادِه Andrade كسرَ مقاومة «الحواضر» الأربع المتمرِّدة، باللجوء إلى قوّة السلاح. أمّا الرهبان فظلّوا يبحثون، دون جدوى، عن تسوية؛ وكرَّر ألتاميرانو ورئيس إقليم البرگواي، الأب برّيدا Barreda، ضغوطهم على المرسَلين في «الحواضر»، ليُقنعوا الگواراني بالرضوخ فيتحاشَوا حربًا دمويّة لا يُرجى لهم منها أيّ خير. إلاّ أنّ قلدليريوس شرع يتّهم اليسوعيّين بالتمرّد على الملك وبالتواطؤ مع الگواراني. وفي أيّار ١٧٥٤ جهّز الإسبانيّون حملةً ضمّت ألفَين من الجنود بقيادة حاكم بوينس آيرس خوسيه ده أنْدُونابِگي Andonaegui واتّجهوا نحو «الحواضر» المتمرّدة. ولمّا أفضت القوّة هٰذه إلى ياپيو، جابهها سكّان تلك «الحاضرة»، وقد تضامنوا مع القرى الأربع على الرغم من عدم التزامهم المباشر بالتمرّد. فلم يحصل ثمّة قتال، بيد أنّ الگواراني لم يسمحوا للإسبانيّين بمتابعة سيرهم وأجبروهم على الإقفال راجعين إلى بوينس آيرس. وانطلق أنْدرادِه هو أيضًا باتّجاه «الحواضر»، لكنّ الگواراني أوقفوه عند نهر يأكُوي Yacuí فاضطُرّ إلى عقد هدنةٍ معهم وعاد أدراجه إلى البرازيل. وفي الأشهر التالية ظلّت المناوشات قائمةً بين رجال

الخطوط الأماميّة الإسبانيّة والبرتغاليّة من جهةٍ، وجيش الگواراني من جهةٍ أخرى، دون أن تتبدّل الحال. ثمَّ جاء فصل الأمطار وتوقّفت العمليّات العسكريّة الواسعةُ النطاق حتّى خريف سنة ١٧٥٥. عند ذاك تحرَّك أَنْدونايگي وأَنْدرادِه مرَّة أُخرى باتّجاه «الحواضر» على رأس قوّةٍ مشتركة تناهز الثلاثة آلاف رَجل؛ فأنشأ الگواراني «مجلسًا حربيًّا» وسلّموا القيادة العامّة إلى سيپيه الذي شنَّ على المهاجمين حرب عصاباتٍ مركَّزةٍ أبلى فيها الهنود بلاءً حسنًا في باديء الأمر. إلاَّ أنّه كان من سوء طالعه أنّه سقط في القتال يومَ السابع من شباط عام ١٧٥٦، ولمّا لم يكن لِسيپيه من معاونٍ ينوب عنه، بقي الگواراني بدون رأسٍ يوجّه وينسّق. فاستفاد الإسبانيّون والبرتغاليّون من تلك الأوضاع، وفي العاشر من شباط باغتوا مركز قيادة الگواراني، وكان حصنًا صغيرًا من الخشب يقوم على تلّةِ كآيبَتيه Caaybaté قربَ نهر بَكَكايْگُواثُو Bacacayguazú وقد جُهِّزَ بثمانية مدافعَ صغيرةٍ وبعض البنادق والأسلحة التقليديّة. وما إنْ صبَّ الإسبانيّون نيران مدفعيّتهم على الهنود حتّى تضعضع دفاعُهم، ولمّا تحرَّك المشاةُ لم يجابَهوا بمقاومةٍ تُذكَر، فمُني الگواراني، في ما يقارب الساعة الواحدة، بِشَرِّ هزيمة، إذ قُتِل منهم ألفٌ وثلثمائةٍ وأحدَ عشر محاربًا، وأُسرَ مائةٌ واثنان وخمسون، كما غنم المهاجمون سائر الأسلحة الناريّة وستّة أعلامٍ ولم يُقتَل منهم إلاّ أربعةٌ ويُجرح إلاّ ثلاثون.

٣٠٤ واستجلب الإسبانيّون والبرتغاليّون مزيدًا من الامدادات فسيطروا على فلول المقاومة، وفي ١٨ أيّار تقبَّل أندونايگي، في «حاضرة» سان ميگال التي أودى الدمار بمعظمها، استسلام المتمرِّدين ومنحهم العفوَ الملكيّ: ولم يَدِن حاكمُ بوينس آيرس في قرارة نفسه ما قام به الگواراني دفاعًا عن ديارهم ورُوي عنه أنّه، بعد فاجعة كآيبتيه، لم يتمالك من ذرف الدموع. وكانت آخر «الحواضر» المستسلمة قرية سان لورنثو، بعد أن التحقت بالمتمرّدين في الآونة الأخيرة؛ وقد احتلّها العقيد الإسبانيّ ڤِيانا Viana في ٢٥ أيّار.

٣٠٥ وفي شهر كانون الأوّل من سنة ١٧٥٦ كان نَقلُ القسم الأعظم من سكّان «الحواضر» السبع قد تمَّ أو كاد. إلاّ أنّ الضريبة التي دفعتْها تلك القرى كانت جدَّ باهظة: فبالإضافة إلى الخسائر الماديّة، قد فقدت

« الحواضر » ما لا يقلّ عن نصف سكّانها بعد أن قُتل بعضهم ، وفرَّ عددٌ كبير منهم إلى الغابات ، أو اتّحدوا بقبائلَ هنديّةٍ لم تستسلم وحتّى بقبائل معاديةٍ لهم من أمثال التشاروّاس . ولم ينتقل إلى غرب نهر الأوروكواي سوى خمسين بالمائة من العائلات .

٣٠٦ وسرعان ما أجرى أندونايكي ، بإيعازٍ من ڤلدليريوس ، تحقيقًا لتحديد ما قد يكون لليسوعيّين من مسؤوليّةٍ في ثورة الكواراني . فقد ارتأى المفوّض الإسبانيّ أنّه من عجيب الأمور أن يستطيع أناسٌ « متوحّشون » المقاومةَ على هٰذا النحو ، دون توجيهِ اليسوعيّين . كما أنّه وَجد ، في إثباته ضُلوع المرسَلين في الحرب ، ما يَسُرُّ إلى حدٍّ بعيد حكّامَ مدريد ولشبونة الناقمين على اليسوعيّين . إلاّ أنّه لم يصل إلى نتائج جازمةٍ على الرغم من الوثائق التي عثر عليها في القرى بعد دخول الجند إليها ، وعلى الرغم من الشهادات التي جمعها بين الهنود ، وقد شوّه معانيها المترجمون . ومع ذٰلك فقد استند ڤلدليريوس إلى إشاراتٍ وشهاداتٍ ووثائقَ يَغلبُ الظنُّ أنّها مزوَّرة ، ليطلب نفيَ أحد عشر مرسلاً أشار المفوَّض الملكيّ إلى إمكانيّة ضلوعهم في المقاومة[٦٦] .

٦٦. كانت مساهمة اليسوعيّين في « حرب » الكواراني موضوعَ جدلٍ حامي الوطيس بين كثيرٍ من المؤلّفين ، لا سيّما أنّها خلقت إشكالات ضميريّة لبعض الأفراد في الرهبانيّة فوجدوا أنفسهم على خلافٍ مع أوامر مسؤوليهم . وممّا لا شكّ فيه أنّ توجيهات الرؤساء لم تُشِر البتّة إلى تشجيع الكواراني على المقاومة الفعّالة : فمصالح الرهبانيّة في أوروبّا كانت بالغة الأهمّيّة ، وأوامر الرئيس العامّ ڤِسْكُونتِي جازمةً ، وسلوك مبعوثه ألتاميرانو واضحًا كلّ الوضوح . لذا اقتصر الجدال على دور المرسلين أنفسهم في البرّكواي . فالبعض قال بأنّ اليسوعيّين ساهموا بشكلٍ إيجابيّ في المقاومة ، لا بل كانوا قادتَها الفعليّين . وارتأى بعض مَن حذا حذوَهم أنّ « الآباء كانوا يظنّون أنّ الهنود ، بالدفاع عن أنفسهم ، ومقاومتهم بكلّ قواهم ، إنّما يؤدّون للملك خدمةً جلّى إلى أن يصلهم العون المناسب من أوروبّا » . وعلى نقيض هٰذا الرأي ، قال آخرون بأنّ انهزام الكواراني في كايبتيه خير دليل على عدم مساندة اليسوعيّين لهم . لا سيّما أنّ الرهبان كانوا يودّون الرضوخ لأوامر ملك إسبانيا لئلاّ يتعرضوا لتدابيره الانتقاميّة . والتدقيق العلميّ الرصين في الوثائق التاريخيّة يدفع بنا إلى الاستنتاج أنّ المرسلين في البرّكواي ، وإن شاركوا الكواراني مشاعرهم ومعاناتهم وتفهّموا قدسيّة نضالهم ، لم يساهموا بشكلٍ فعّال في الدفاع المسلّح عن « الحواضر » الشرقيّة السبع . ذٰلك بأنّهم كانوا ملزَمين بنذر الطاعة لرئيسهم العامّ وموفَده ألتاميرانو . بيد أنّه لا شكّ أيضًا في أنّ اليسوعيّين قاموا بكلّ ما في وسعهم لإرجاء تطبيق المعاهدة ، سواءٌ بالطرق الدبلوماسيّة أو المداخلات في أوروبّا وعلى الصعيد المحلّيّ .

٣٠٧ وفي ٤ تشرين الثاني ١٧٥٦ وصل إلى بوينس آيرس الحاكم الإسبانيّ الجديد، القائد الأعلى بيدْرو ده ثِباليُوس كُورتيس إي كَلْدِرُون Pedro de Ceballos Cortés y Calderón ، فأمر بإعادة التحقيق عن اليسوعيّين لمزيد من الاستعلام وتوضيح الأمور. وبانتظار النتائج، واستنادًا إلى تقريرٍ لمطران أسونثيون مانوِيل أنطونيو دِه لا تُورّه Manuel Antonio de la Torre به يعارِض إبعاد اليسوعيّين عن «الحواضر»، قرَّر الحاكم الامتناع عن نفي المرسَلين الأحد عشر المشتبَه بهم، وذلك على الرغم من ڤلدليريوس الذي كان جلُّ همِّه أن يلصق بالرهبانيّة اليسوعيّة مسؤوليّة كلّ ما جرى. وقد جاءت نتائج التحقيق الثاني لصالح اليسوعيّين فاستُبعِدَت مسؤوليّتهم المباشرة في الحرب.

٥) كارلوس الثالث وزوال «دولة» الگواراني

٣٠٨ في ١٠ آب ١٧٥٩ توفِّيَ الملك فرناندو السادس وخلفه على عرش إسبانيا كارلُوس الثالث، ملكُ الصقلّيّتين، فتسلَّم زِمام الأمور بدخوله مدريد في ٩ كانون الأوّل من السنة عينها. وكان قد أعلمه الوزيرُ تَنُوتْشي Tanucci مساوئَ معاهدة مدريد بالنسبة إلى إسبانيا، كما أنّه رأى أنّ البرتغاليّين، رغمَ ما أظهرته إسبانيا من حُسن نوايا إذ حاربت الگواراني وأجْلت سكّان «الحواضر» الشرقيّة، قد أحجموا عن تسليم الإسبانيّين مستعمرةَ سان سكرمنتو، لا بل راحوا يزيدون تحصينها. لذا لا عجب أن يكون أحدَ أوائل أعماله في السياسة الدوليّة رفْضُه معاهدة سنة ١٧٥٠[٦٧]. وتلقّى ثِباليُوس وڤلدِليريُوس الأمرَ بأن يعيدوا إلى الگواراني الأراضي التي طُردوا منها منذ أربعة أعوام. وحصلت في المنطقة مناوشات بين الإسبانيّين والبرتغاليّين استرجع ثيباليوس في إثرها مستعمرة سان سكرمنتو، وكان في عِداد عسكره ألف

٦٧. أُبلِغَت الحكومةُ البرتغاليّة ذلك في ١٦ أيلول ١٧٦٠، ووُقِّع اتّفاق الإلغاء في ١٢ شباط ١٧٦١.

وثمانمائة من الأنصار الگواراني برفقة الأب خُوسِيه كَرْدِييل المعروف بما كتبه عن تاريخ «الحواضر»[٦٨].

٣٠٩ وممّا لا شكّ فيه أنّ عواقبَ عشرِ سنواتٍ صعبة من الفوضى لم تكن لِتُمْحى بشحطة قلم. فقد راح جيشان متحاربان، بل ثلاثةٌ إنْ حسبنا أيضًا جيش الگواراني، يجوبون المنطقة طولاً وعرضًا، وذاق الأهلون الأمرَّين من جرّاء المعارك، والأمراضِ التي أصابتهم خلال الجلاء، والقلّةِ والحرمان. ولقد تدنّى مستوى الانضباط الذي طالما اتّصفت به جماعات الگواراني وذلك بسبب المحن التي عاناها الهنود في إثر تطبيق معاهدة مدريد، وبسبب الاتّصالات الطويلة بينهم وبين الجيوش المحتلّة والقبائل غير المستسلِمة التي لجأ إليها الگواراني خلال الحرب. واليسوعيّون الذين كتبوا في أمر تلك السنوات متّفقون على أنّ سائر المصائب التي ألمّت «بالحواضر» – بما فيه النضالُ الطويل في وجه «المالوكُس»، ومحاربةُ «العاميّين» – لم تكن لتقارَن بالحرب الأخيرة، حرب الگواراني، إذا ما نُظِر إلى عواقبها الوخيمة.

٣١٠ ومهما يكن من أمر، فقد انطلق العمل لإعادة التعمير بحماسةٍ بالغة. وسرعان ما رجع الگواراني إلى القرى المهجورة، حتّى إنّه لم ينقضِ حَوْلٌ واحد حتّى عاد ما يربو على ثلاثة آلاف عائلة، أي نحو أربعة عشر ألف هنديّ. ولم يستغرق التعمير المادّيّ طويلَ وقت، وانتعش الاقتصاد بعد زمنٍ قصير، لا سيّما أنّ المراعي لم تُصَب بكبير أذًى إبّان الحرب والاحتلال العسكريّ. وازداد عدد السكّان بحيث بات من الضروريّ المباشرةُ بتشييد ثلاث «حواضر» جديدة. ونتيجةً لذلك ارتأى اليسوعيّون أن يعزّزوا مراكزهم في البرگواي، فأرسلوا من إسبانيا، سنة ١٧٦٠، ثمانيةً وستّين من رهبانهم، وفي سنة ١٧٦٦ ثمانين آخرين. ولئن سَمحتِ الحكومةُ الإسبانيّة بذهاب هذه الأعداد المرتفعة من المرسلين، في حين كانت تُخامِرها فكرةُ طَرْد الرهبانيّة

٦٨. استسلمت مستعمرة سان سكرمنتو في ٣٠ تشرين الثاني ١٧٦٢، إلاّ أنّ معاهدة الصلح المعقودة في باريس بتاريخ ١٠ شباط ١٧٦٣ حتّمت على إسبانيا إعادتها إلى البرتغاليّين. ثمّ احتلّ ثباليوس المستعمرةَ ثانيةً سنة ١٧٧٧ بعد أن صار نائبًا للملك في بوينس آيرس. فأقرّت معاهدة سان إلْدِفُونْسُو، الموقّعة سنة ١٧٧٨، بقاء المستعمرة في يد الإسبان بشكلٍ نهائيّ.

اليسوعيّة منَ إسبانيا ، فلأنّ ثباليوس وڤلدليريوس بعثا بتقارير تفيد أنّ المستعمرين البرتغاليّين توافدوا بصورةٍ مكثّفةٍ إلى منطقة القرى الگواراني السبع ، ممّا يستدعي الإسراعٍ في تدعيم الوجود الإسبانيّ في الناحية المذكورة عن طريق بعث الحياة ثانيةً في «الحواضر»[٦٩].

٣١١ وإذا بنهاية «دولة» اليسوعيّين في البرگواي تنقضّ كالصاعقة. ففي ٢ نيسان ١٧٦٧ وقّع كارلوس الثالث قرار طرد الرهبانيّة اليسوعيّة من إسبانيا ، وراح تطبيق هٰذا الأمر يأخذ مجراه في المستعمرات وراء البحار خلال الأشهر التالية. أمّا في «الحواضر» القائمة في إيالة بوينس آيرس وفي البرگواي ، فلم يطبَّق قرارُ الطرد إلاَّ خلال السنة المقبلة ، لأنّ السلطات خشيت ردَّة فعل القوى المسلَّحة في «الدولة» اليسوعيّة. ذٰلك بأنّه قامت في المكسيك ، سنةَ ١٧٦٧ ، انتفاضةٌ شعبيّة على هٰذا الإجراء ، ممّا تسبَّب بوقوع نحو تسعين ضحيّة. وعليه آثر المسؤولون الإسبان انتظار وصول إمداداتٍ عسكريّة ضخمة قبل مباشرة العمل في «الحواضر». وفي آب ١٧٦٨ قام حاكم بوينس آيرس ، فرنثِيسْكُو ده پاولابُوكارِلّي إي أُورْسُوا ، على رأس جيشٍ عرمرم ، بتطبيق أمر الطرد. أمّا اليسوعيّون – وكانوا نحو أربعمائة في إقليم البرگواي ، منهم ما يقارب المائة فقط في «الحواضر» – فلم يُبدوا أيَّ مقاومة ، واستسلموا في أماكن نشاطهم ، فاقتيدوا بحراسةٍ مشدَّدة إلى بوينس آيرس ومن ثمَّ إلى أوروبّا.

ومضى نحو نصف قرنٍ قبل أن تُعاد الرهبانيّة اليسوعيّة إلى إسبانيا ، وقد تمَّ لها ذٰلك بكلّ مظاهر التجلّة في ٢٩ أيّار سنة ١٨١٥ على إثر قرارٍ أصدره الملك فرناندو السابع. إلاّ أنّه ، في تلك الأثناء ، حصلت عدّة حركاتٍ وثورات دَفعت أميركا الجنوبيّة إلى الاستقلال عن إسبانيا ، فلم تعُدْ أقدام اليسوعيّين لِتطأ «الحواضر» أو ما صَمَد منها على الخراب.

٦٩. ولا بدّ هنا من التذكير برأي البرتغاليّين في أهميَّة المنطقة من الناحية الإستراتيجيَّة. فقد كتب أحد المؤرّخين البرازيليّين ، ج. كُوْرتساو ـ ما تعريبه: «إن كانت مستعمرة سان سكرمنتو» بالنسبة إلى الإسبانيّين ، شوكةً في حلق الريو ده لابلاتا ، فإنّ «حواضر» التابعة ، بإدارة اليسوعيّين ، كانت بالنسبة إلى البرتغاليّين أشبه بخنجرٍ طُعِن به خصرُ منطقة الرِيُو دِلْ سُول.

٣١٢ لم يتمَّ انحطاط نظام «الحواضر» بشكلٍ مفاجئ، بل بالتدرّج، وغالبًا ما تُشير أصابع الاتّهام في هذا الأمر إلى جشع الموظّفين المدنيّين الذين حلّوا محلّ اليسوعيّين ومعاونيهم الهنود. من ذلك ما رواه أحد المسافرين في أوائل القرن التاسع عشر، فِليكْس ده أثارا، حيث قال: «خرج اليسوعيّون من «المستعمرات» سنة ١٧٦٨ وحلّ مكانهم، في كلٍّ منها، راهبان مسؤولان عن الأمور الروحيّة، وإداريٌّ للشؤون الزمنيّة. من الناحية المبدئية لم يطرأ على تلك «المستعمرات» من تغييرٍ سوى أنّها انتقلت من يدٍ إلى يدٍ أُخرى. إلاّ أنّ هنالك فرقًا بين الإدارة السابقة والإدارة اللاحقة: فاليسوعيّون نظروا إلى «الحواضر» على أنّها مِلكهم، فأحبّوها ولم يسعوا قطّ إلى تخريبها، بل اجتهدوا دومًا في تحسينها؛ أمّا الرؤساء والإداريّون الذين خلَفوا هؤلاء الرهبان، فلم يروا في تلك المؤسّسات سوى ممتلكاتٍ مؤقّتة، فكان جلُّ همّهم اغتنام الفرصة. لذا ساءت حالة الهنود اليومَ، بالنسبة إلى الغذاء واللباس، عمّا كانت عليه في الماضي، وازدادت في المقابل أشغالُهم وأتعابهم». ولئن جاء هذا الحُكم موافقًا لِما صدر من أحكام في عدّة وثائق هي أبعد مِن أن تؤيِّد الرهبانيّة اليسوعيّة وأعمالها، فهو مع ذلك منحازٌ دون شكّ.

٣١٣ أمّا الأسباب الحقيقيّة لذلك الانحطاط، فهي، في الطليعة، التبديل السريع الذي أجراه الحاكم بوكارِلّي، فورَ طرد اليسوعيّين، في نظام الإدارة. فممّا لا ريب فيه أنّ بوكارلّي كان منفتحًا، يحبّ التقدّم، مقتنعًا من صحّة النظريّات «المستنيرة»، يبتغي تحرير الگواراني من حماية المرسَلين «الجائرة». إلاّ أنّ ما استحدثه لم يأخذ بعين الاعتبار نقطةً هامّة، وهي أنّ الگواراني، خلالَ وجود اليسوعيّين معهم، أي طوال ما يزيد على قرنٍ ونصف القرن، أضحوا أصحابَ حسٍّ اجتماعيٍّ متطوّر مرتبط بإطارٍ ثيوقراطيّ من الناحية السياسيّة، وجماعيٍّ اشتراكيّ من الناحية الاقتصاديّة. وعليه تفكّكت الروابط الوثيقة التي كانت تشدّ «الحواضرَ» بعضها إلى بعض، وأُدخِل الفصلُ التامّ بين الإدارة المدنيّة ورعاية النفوس، كما سُمِح للمستعمِرين الأوروبيّين بالإقامة إلى جانب جماعات الگواراني، وأُهمِل شيئًا فشيئًا نظامُ العمل المشترك الذي فُطر عليه الهنود.

٣١٤ ولمّا آلت الأمور إلى تلك الحال، صار أهل «الحواضر» في حيرةٍ وارتباك، متردّدين بين محاولةِ الحصول على بقاء اليسوعيّين أو رجوعهم، وقبولِ مبادئ بوكارلّي التي كانت في الواقع تُدغدغ مشاعرهم. إلاّ أنّهم رفضوا الموظّفين الإسبانيّين وشرعوا في المقاومة السلبيّة. ذلك بأنّ الهنود أطاعوا المرسَلين حتّى في الشؤون الإداريّة والاقتصاديّة، لأنّهم وجدوا فيهم مرشِدين نيّرين عادلين، وكائناتٍ سامية تكاد أن تكون فوق الطبيعة[٧٠]؛ في حين اعتبروا أنّ الإداريّين المدنيّين العلمانيّين الذين حلّوا محلّ الرهبان، ما هم إلاّ أناسٌ غرباء وسلطةٌ قاهرة. من جهةٍ ثانية، لقد أدّى التفكّكُ التدريجيّ لنظام الاقتصاد المشترك الآمن، إلى تقلّص روح التضامن الجماعيّ، وولادةِ غريزة الدفاع عن المصالح الخاصّة الفرديّة والآنيّة في كلّ عائلةٍ من عائلات الگواراني. ولم يكن في «الحواضر» قادةٌ محليّون مؤهّلون لإدارة «الدولة» على أساسٍ وحدويّ؛ والأمر، على كلّ حال، ممّا لا يرضاه المستعمر الإسبانيّ، كما يشهد على ذلك ما حصل سنة ١٧٨٠ في البيرو، حيث التقاليد الوطنية راسخةٌ عريقة بخلاف ما هو بين الگواراني: فقد حاول «المقدَّم» خُوسيه گَبْريال تُوپاك أمارُو J.G. Tupac Amaru الدفاع عن حقوق الجماعة الهنديّة، وباءت محاولته بالإخفاق لِما لقيه من مقاومة الإدارة الإسبانيّة له.

٣١٥ أمّا الرهبان الذين خلفوا اليسوعيّين، فكانوا ينتمون إلى عدّة جمعيّاتٍ رهبانيّة، وغالبًا ما كانوا غيرَ مهيَّئين لرسالتهم، لا بل لم يندر أن كانوا يَجهلون اللغة المحلّيّة كلَّ الجَهل؛ فلم يكن لهم عامّةً أيّ نفوذٍ على الهنود. والذين نجحوا من هذا القبيل، تبنّاهم الگواراني واتّخذوهم مستشارين لهم حتّى في الشؤون الإداريّة والمدنيّة، فما لبثوا أن دخلوا في مشاحناتٍ مع الموظّفين الحكوميّين على نحو ما حصل في أيّام وجود اليسوعيّين. ونشبت، إلى

---

٧٠. ذكرنا غيرَ مرّةٍ أنّ المرسلين قَبِلوا من الناحيتين المبدئيّة والعمليّة أنْ يعتبرهم الگواراني خلفاء، إلى حدٍّ ما، لسَحَرَتهم الأقدمين. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ دور السحرة في المجتمعات البدائيّة لم يقتصر على المظاهر الغريبة اللافتة للأنظار كالرقص أو التعاويذ، بل تعدّاها إلى ممارسة الطبّ، وقد دلّت آخرُ الدراسات على أنّ الكثير من الأدوية التي لجأ إليها السَحَرة والمرسَلون بعد التجربة والخبرة، تتلاقى وما توصّلت إليه أرقى المختبرات الحديثة.

ذلك، خلافاتٌ بين طبقة الشرفاء - الكاسيك - وَرَثة تقاليد الگواراني المبنيّة على نظام العشائر، وطبقةِ الموظَّفين غير النبلاء الذين عملوا في إدارة «الحواضر» وترقّوا في معارجها بتشجيع من اليسوعيّين. فتلك الخلافات ساهمت في تفتيت مجتمع «الحواضر» من الداخل.

٣١٦ وواكب الانحطاطَ الإداريَّ والاجتماعيَّ تقهقُرٌ في الاقتصاد، إذ زال ما حقَّقه اليسوعيّون من مركزيَّةِ التجارة والتنسيقِ بين الزراعة والصناعة. ولم تجنِ الخزينةُ الملكيّة أيَّ ربحٍ من استبدال اليسوعيّين بالموظَّفين الجدد، لا بل تكبَّدت الخسائر. وسرعان ما انخفض عدد سكّان «الحواضر» إذ اندمج الگواراني النشيطون في المجتمع الاستعماريّ بالپرگواي والريو ده لاپلاتا، في حين بقي بعضهم على هامش ذلك المجتمع فازدادوا فقرًا حتّى الدرك الأسفل، وآثر البعضُ الآخرُ العودةَ إلى الغابات وحياة البداوة.

٣١٧ زالت «دولة» الگواراني اليسوعيّة كوحدةٍ إداريّة، ولكنّ سكّانها لم يزولوا. فإنّ حمايةَ اليسوعيّين الحازمةَ لهم حفظتهم كجماعةٍ عرقيّة، فصمدوا على الرغم من مصاعب ومخاطر اللقاء مع هجرة الأوروبيّين. وفي السنوات التي تلت طرد الرهبانيّة اليسوعيّة من «الحواضر»، هاجر العديد من الهنود إلى المدن، مِن مِثل بوينس آيرس ومُونْتِيفِيدِيو وأسونثيون وسانتا فيه، حيث استُقبِلوا بالتقدير، حتّى بين المولَّدين، لِما تمتّعوا به من مهارةٍ في الصنائع. وفي تلك الأثناء راح المولَّدون أنفسهم يتطوَّرون، وزال «المحصول» عمليًّا بحيث وَجَدَ الهنودُ، في لقائهم مع مجتمع المستعمِرين، ظروفًا معيشيّةً مقبولة. وفي عام ١٨٠٢ رُسِم أوّلُ كاهنٍ گواراني، فرنْثيسْكو خَفِير تُوپِيتشَپُوتا Tupichapota.

٣١٨ ولمّا أعلنت الأرجنتين استقلالها سنة ١٨١٠، قدَّم الگواراني عونًا ملحوظًا لقوّات الجنرال بِلْگرانُو Belgrano في حملة البرگواي، مشتركين أيضًا في معركة پَرَگُوارِي Paraguarí ضدَّ الإسبانيّين، بحيث قدَّمت ياپيُو أربعَ كتائبَ بقيادة وجهاء من أبنائها. وساهم الگواراني على التوالي في حملتين أُخريين جهَّزهما الجنرال المذكور عامَي ١٨١٢ و ١٨١٣، ثمَّ انخرط متطوِّعون من ياپيُو وكُونْثِپْثيُون وكَنْدِلَرِيا في لواء الخيّالة وفي لواء المشاة

المعروف بلواء «أميركا». وفي ١٣ تشرين الثاني ١٨١٣ قرّرت «الجمعيّة العموميّة الأرجنتينيّة» أن تَقبل في عدادها نائبًا يمثّل قرى الگواراني التابعة لمنطقة «ميسيُونس» Misiones.

٣١٩ وفي شهر أيّار ١٨١١ أعلن البرگواي أيضًا استقلاله عن إسبانيا والأرجنتين على حدٍّ سواء، واحتلَّ منطقة «حواضر» البَرَنا. ولمّا كان البرتغاليّون قد أعادوا احتلال منطقة «الحواضر» السبع شرقَ نهر الأُوروگواي في سنتَي ١٨٠١ و ١٨٠٢، فقد أضحت رقعةُ «الدولة» اليسوعيّة السابقة مقسَّمةً بصورةٍ نهائيّة بين الأرجنتين والبرگواي والبرازيل. وإلى ذلك يجدر التذكير بأنّ الجنرال خُوسيه خِرْڤاسيُو أَرتيگاس José Gervasio Artigas، محرِّر «القطاع الشرقيّ» (أي الأوروگواي الحاليّ)، استعان في سائر حملاته بين ١٨١١ و١٨١٣ بجنودٍ من الگواراني. وقد عيَّن أحدَ هؤلاء، أَنْدرِيس گُواراكاڤِي Andrés Guaracaví، المعروف بأَنْدرِثِيتو Andrecito، قائدًا عامًّا لمقاطعة ميسيُونس، فحاول الاثنان استعادة القرى السبع التي احتلّها البرتغاليّون شرقَ الأوروگواي، وحقّق أندرثيتو في البداية بعض الانتصارات، إلاّ أنّه كُسِرَ في النهاية سنة ١٨١٧ وتبدَّد شمل جيشه؛ وجرَّت تلك الحملاتُ ويلاتها على عدّة «حواضر» في الأراضي الأرجنتينيّة، مثل كَنْدِلَرِيا وسانتا آنا ولورِيتُو وسان إنْياثِيو مِنِي وكُورْپُوس، حيث دُمِّرت تدميرًا كاملاً وتشتَّت سكّانُها. وقد استطاع بعض الگواراني، ممَّن نجح في التكيّف مع مجتمع الجمهوريّات الجديدة، الوصولَ إلى مناصبَ هامّةٍ في الإدارة والحكومة، منهم، في الأرجنتين، پابْلُو أرِگواتِي Pablo Areguati الذي تخرّج من جامعتَي بوينس آيرس وكُوردُبا، ثمّ تدرَّج في المراتب العسكريّة، إلى أن عُيِّن سنة ١٨٢٣ حاكم جُزُر مَلْڤِيناس (الملْوِين).

٣٢٠ في سنة ١٨٣٨ لُوحِظ في جمهوريّة البرگواي بقاءُ ثمانٍ من «الحواضر» اليسوعيّة السابقة، هي: سان إنياثيو گواثو، سانتا مارِيا دِه فِيه، سانتا رُوسا، سانتِياگُو، سان كُوسْمِه، إيتاپُوا، ترِينِيداد، وخسوس. وقد استمرَّت فيها نواةٌ من النظام الاشتراكيّ القديم ونظامِ حماية الگواراني. إلاّ أنّ رئيس الجمهوريّة، كارْلُوس أَنْطُونيُو لُوپيث C.A. Lopez ألغى سنة ١٨٤٨

جميع الأنظمة الخاصّة في تلك القُرى واعترف للگواراني بكامل حقوقهم المدنيّة.

وهكذا، في العقود الأُولى المضطربة من القرن التاسع عشر، هُجِرت أكثريّة «الحواضر» هجرًا تامًّا ما لبث أن عقبه الاضمحلال السريع. وراحت الغاباتُ الاستوائيّة، بعد أن كَبَحَ اليسوعيّون والگواراني جماحَها، تستعيد الغلبة على ما صنعَتْه يدُ البشر، فأنشبت جذورَها في جدران الكنائس، والأبنية العامّة، والمنازل، ولَوَت ما استقام منها، وصدَّعت وهَدَمتْ.

واليومَ أصبحت آثارُ «الحواضر» في البرَكواي معالمَ لدارسي العادِيّات، وشهادةً بليغةً لتاريخٍ فريدٍ من نوعه، تاريخِ «دولة» اليسوعيِّين بين الگواراني.

* * *

الخاتمة

«المحاولة المقدّسة»

٣٢١ لقد اجتهدنا في هٰذا المصنَّف أن نرسم ، بموضوعيّة وتجرُّد ، صورة «دولة» الگواراني ضمن إطارها التاريخيّ والسياسيّ والاجتماعيّ والعِرقيّ والاقتصاديّ في مستعمرات أميركا الجنوبيّة. ويصعب علينا في النهاية العزوفُ عن إبداء رأينا الخاصّ في موضوعٍ مثير كهٰذا.

الحُكْم على تلك «المحاولة المقدّسة» بقسطاس النقد الرصين، بَعْدَ أكثر من مائتي سنةٍ على انتهائها ، أمرٌ عسيرٌ لثلاثة اعتبارات. أوّلاً ، لأنّها تضمَّنتْ عناصرَ في غاية الاختلاف بعضها عن بعض : سياسيّة ، ودينيّة ، واجتماعيّة ، وثقافيّة ، وحتّى فولكلوريّة ؛ فمن أيّ منظارٍ نشْرع في التقويم؟ من جهةٍ ثانية ، لم يكن سببَ نهايتها السريعة مساوئُ ظاهرةٌ أو عناصرُ داخليّة تعود إلى نظامها ، بل حدَثٌ خارجيّ. وأخيرًا ، من الصعب جدًّا أن ننظر اليوم إلى الأمور ونحكم فيها من الزاوية التي نَظر وحَكم منها أبناء ذٰلك العصر.

٣٢٢ وعليه نبدأ فنقول إنّه يمكننا ، في حكمنا ، أن نضرب صفحًا عن الناحية السياسيّة إذ إنّ «دولة» الگواراني لم تكن بالفعل دولةً حقيقيّة ، وقد تصرَّفت الرهبانيّة اليسوعيّة في إطار الفتح الإسبانيّ لجنوب أميركا ، فتمّمت باجتهادٍ كلّيّ ما أُلقي عليها من واجبٍ لمّا طُلب إلى مُرسَليها في البرگواي أن يُخضِعوا للملك إسبانيا ، بِطُرُقٍ سلميّةٍ ، هنودَ تلك البلاد ، وأن يدافعوا في الوقت نفسه عن الحدود فيوقفوا تقدُّم البرتغاليّين نحو الغرب ، وأن يَقبلوا في

النهاية بالانسحاب ، بشكلٍ لائق ، لمّا فَرضتْ عليهم ذٰلك متطلّباتُ السياسة العليا .

٣٢٣ بيد أنّه لا بدّ للتحليل النقديّ من التركيز على الإنجازات الاجتماعيّة والثقافيّة في «حواضر» البرگواي . فماذا كانت الرهبانيّة اليسوعيّة تبغي لمّا قبلت الالتزام بالبرگواي ؟ كان هدفها الأوّل «مجد الله الأعظم» ، ومن ثمَّ هدي الگواراني إلى الكاثوليكيّة في حقبة من التاريخ راحت الكنيسةُ خلالها تسعى إلى التعويض عمّا خسرتْه من جرّاء الإصلاح البروتستانتيّ ، باكتساب مؤمنين جدد . وكان هدفها الآخَر ترقية الگواراني في معارج الإنسانيّة ؛ إلاّ أنّ تحويل الهنود على الصعيد الثقافيّ – بالمعنى الأوروبّيّ المسيحيّ – لم يتمّ إلاّ بصورةٍ جزئيّة في المائةِ والخمسين سنةً التي أُجريت «المحاولة» خلالها . وفي المقابل ، وخلافًا لرأي الذين يعتقدون بأنّ تنصير الگواراني لم يكن إلاّ عملاً سطحيًا لمراعاة المظاهر ، فإنّ الديانة المسيحيّة قُبلت وتأصّلت بين الهنود لأنّها سَدَّت ما وَجدوا أنفسَهم فيه من حالة فراغٍ بالنسبة إلى القيم والمعتقدات والتقاليد التي ورثوها ، وذٰلك نتيجةَ اضمحلالها مع مجيء الأوروبّيّين والانتقال السريع القسريّ من حياة البداوة الحرّة والعصور الحجريّة إلى نظام تحضُّرٍ متنوّع الأساليب ، ممّا خلق لدى الگواراني ردّة فعلٍ دفاعيّةً طويلة المدى حَدتهم على الخضوع للنظام الجديد دون أن يتبنّوه بشكلٍ كامل . وكان «تحضيرهم» في إطار سياسة الاستعمار الإسبانيّة ، غلطةً تاريخيّة وثقافيّة نتج عنها ، في البرگواي وسواه من الأقطار ، عواقبُ سلبيَّةٌ على الصعد كافّة . ويكفي ، لتبيان ذٰلك ، الاستشهادُ باثنين من العلماء الأميركيّين . قال أوّلهما : «إنّ السياسة التي انتهجها الإسبانيّون إذ حاولوا ربط الهنود بركْب التمدّن عن طريق «تحضيرهم» ، أدّت إلى تجاربَ واختباراتٍ لم تخلُ من الغرابة ، وقضت في النهاية على أهل تلك البلاد» . وقال الثاني : «إدخالُ الهنود في نظام التمدّن الأوروبّي أدخل إليهم الاضطراب وزعزعَ معالم ثقافتهم الأصليّة وأتى عليها . وهٰذا الاستئصال الثقافيّ أدّى بدوره إلى انحطاط الأجناس الهنديّة» .

٣٢٤ وعلى كلِّ حال ، فإنّ مشكلة دمج البدو في المجتمعات التي تفوق مجتمعهم تنظيمًا وتقدّمًا ، لم تجد لها حلاً شافيًا حتّى اليوم ، وما زال يعاني منها

الكثير من البلدان الآسيويّة والإفريقيّة. ففي الاتّحاد السوفياتيّ، وفي منغوليا على وجه التحديد، حاولوا، في الثلاثينات من هذا القرن، فرض عيشة الحَضَر على جماعاتٍ بدويّة من أصلٍ تركيّ مغوليّ، فباءت جميعها بالإخفاق الذريع؛ ولم يصلوا إلى نتائجَ مُرضيةٍ إلاّ بعد أن اتّخذوا إجراءاتٍ تمكّن هؤلاء القوم من الانخراط في إطارٍ اقتصاديّ مجدَّد، ثابتٍ ومنتج، يَحترم إلى ذلك بعضَ القيَم التقليديّة كالروابط القبليّة، ويحفظ عددًا من النشاطات الاقتصاديّة التي ليست وقفًا على أهل الحضَر.

٣٢٥ من جهةٍ ثانية، كان التقدّم المادّيّ في «دولة» اليسوعيّين أمرًا لافتًا للنظر، ولا شكّ أنّ جماعات الگواراني نعمت بمستوى معيشةٍ لم يصل إليه الهنود الآخرون بعد قدوم الأوروبّيّين، ولن نجازف إنْ قلنا بأنّ درجة الرفاهيّة التي بلغوها لم يحظَ بها العديد من سكّان أوروبّا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. فزراعةُ عشبة الماتِه على نطاقٍ واسع، وتربيةُ المواشي، ومعاملُ النسيج، وسائرُ المصانع، وشبكةُ المواصلات النهريّة والبرّيّة التي ربطت «الحواضر» بعضها ببعض وجميعها بمراكز البيرو الأعلى والپرگواي الغربيّ والريو ده لاپلاتا، وأخيرًا نظامُ التضامن الاجتماعيّ الراهن، كانت منجَزاتٍ متطوِّرةً جدًّا في ذلك الزمان وفي تلك المناطق. بيد أنّ الحضارة المادّيّة في «الحواضر» كانت حضارة «ترديدٍ» لنماذجَ مستورَدة، لا حضارة «إبداعٍ» قام فيها الهنود بدورٍ فعّال؛ وهذا ما يفسّر تقدّمهم البطيء وغيرَ المتناسب مع الجهود المبذولة والوقت الممتدّ بين بدء «المحاولة» ونهايتها. وإنّ الرؤيا الخُلُقيّة الصوفيّة التي قادت خُطى المرسلين في بنائهم نظام الجماعات الگواراني وإدارته، جعلت الهنود يعتبرون أنفسَهم مسيَّرين بالشريعة الإلهيّة دون سواها، تلك الشريعة التي فسَّرها لهم وعلَّمهم إيّاها رُعاتهم ومدبّروهم، والتي لم يكن لهم في وضعها أيّ مساهمة. وفي الوقت نفسه، وجد المرسَلون أنفسهم ملزمين بالقضاء على المنافسة والعداوات القائمة بين الفئات المتعايشة في سائر «الحواضر»، وبضرورة التخطيط للنشاطات الاقتصاديّة، ممّا دَفَعهم إلى أن يتبنّوا نظامًا ضَيِّقَ، إلى حدٍّ معيَّن، على الحرّيّات الشخصيّة، وأعاق التقدّم الفرديّ، لِصالح ازدهار الجماعة.

٣٢٦ وهٰكذا عاش الگواراني في حالة «طفولةٍ» تعدَّت المألوف، ممّا حالَ عندهم دون قيام «رؤوسٍ مفكِّرة» تلتزم عاجلاً أو آجلاً مواقفَ نقديّةً بالنسبة إلى الإيمان الجديد الداخل على يد اليسوعيّين، أو تغذّي طموحاتٍ سياسيّة وتطلّعاتٍ نحو مزيد من الحكم الذاتيّ؛ كما حالَ أيضًا، بما لا يَدَع مجالاً للشكّ، دون بلوغ الجماهير رشدها المدنيّ. ولقد أفاض النقّاد الليبراليّون خلال القرن التاسع عشر في التركيز على هٰذه الناحية، معتبرين أنّه كان بمقدور الگواراني استيعابُ الثقافة الأوروبيّة، وأنّ اليسوعيّين أخطأوا بفرض نظامٍ «أبويّ» لم يسمح بتقدّم الأفراد. وعلى نقيض ذٰلك ذهب النقّاد المسيحيّون الاجتماعيّون، من أمثال لُوگُون، إلى القول بأنّ إدخال اليسوعيّين نظامَ الجماعيَّة في «الحواضر» كان له الفضل في ما طرأ على الگواراني مِن تبديل عوائدهم تبديلاً جذريًّا، ومن إدراكٍ لهويَّتهم المدنيّة والاجتماعيّة. ولولا الاعتداء العسكريّ الذي تبع «معاهدة الحدود» سنة ١٧٥٠، ولولا طرد اليسوعيّين من البرگواي، لما توقّف التقدّم هناك. ويمكن الافتراض بما يشبه التأكيد أنّه لو لم يحصل الطرد عام ١٧٦٨، وعلمًا أنّ نظام «المحصول» أُلغي في أواخر القرن الثامن عشر، وأنّ النضال من أجل استقلال أميركا الجنوبيّة اندلعت شرارته بعد سنواتٍ قليلة، لعَرفَ المرسَلون في أيِّ وقتٍ يُدخِلون رعاياهم بشكلٍ هادئٍ سليم إلى العالم السياسيّ والاجتماعيّ الجديد القائم في أميركا اللاتينيّة. إلاّ أنّه من دواعي الأسف أنّ التاريخ لا يُبنى على كلمة «لو» وفرضيّاتها. ومهما يكن فيبدو أنّ اليسوعيّين بالغوا في الاتّكال على قواهم وحدَها، أو أنّهم، بكلّ بساطة، خسروا سباقهم مع الزمن.

٣٢٧ وثمَّة سببٌ آخر، ولعلّه الأهمّ، لتأخُّر جماعات الگواراني في بلوغ رشدهم، وهو نظام الانعزال عن الخارج: فقد خشي اليسوعيّون أن تنتقل عدوى المستعمرين الإسبانيّين إلى قطيعهم الصغير، وطبّقوا قوانين العزل بشدّةٍ وصرامة، ولعلّهم بالغوا في الأمر. ومع ذٰلك، وُجد بين أعضاء الرهبانيّة اليسوعيّة في القرن الثامن عشر مَن واجه المشكلة وطرح على نفسه التساؤلات، كمثل الأب بِرْنَرْدُو رِثْيُو Bernardo Recio الذي قال في معرض كلامٍ له على إقليم كِيتُو: «لئن كان من الخير للهنود أن يظلّوا منعزلين للحفاظ على

براءتهم وصدقهم . فلا بدّ من الإقرار بأنّ الاتّصال بالاسبانيّين والمولّدين وحتّى الزنوج يؤدّي من جهته إلى نتائج إيجابيّة » . وقبْلَ ذلك الوقت بكثير ، ارتأى لاس كاسس نفسه أنّه ، مع الأخذ بضرورة اعتماد سياسة الفطنة والحذر ، فالعلاقات بين الهنود و « بعض العمّال الصالحين والاسبانيّين الطيّبين » لممّا يأتي بثمارٍ جيّدة .

٣٢٨ من ناحيةٍ أُخرى ، إنّ الخيار الوحيد الذي كان من الممكن أن يأتي بديلاً لنظام « الحواضر » الانعزاليّ هو ، بلا شكّ ، وبعد مرور بضع عشرة سنة ، القضاء المادّيّ ، أو أقلّه الثقافيّ ، على العنصر الگواراني ، كما حصل لجماعاتٍ هنديّة أُخرى في المنطقة . وعليه لا بدّ من تقدير عمل اليسوعيّين ، لا سيّما أنّهم حاولوا القيام بخير ما استطاعوا وفي ظروفٍ سيّرتْها الضرورات ؛ ويشاطرنا الرأيَ دْجُون كُولِّير John Collier ، مفوّض الولايات المتّحدة للشؤون الهنديّة بين ١٩٣٣ و ١٩٤٥ ، وهو حجّةٌ في موضوع ثقافة الهنود ولا يتردّد في توجيه الانتقادات إلى النُظم التي تبنّتها إسبانيا في مستعمراتها الأميركيّة[٧١] .

٣٢٩ وأخيرًا ، وخلافًا لِما حصل في أماكنَ أُخرى وفي ظروفٍ مغايرة ، لم يرتكب المرسَلون في « حواضر » البرگواي خطأً قلّما تحاشاه سواهم : فلم ينظروا إلى التراث الثقافيّ المحلّيّ نظرةً سلبيّة ، وفي حين كانوا ينشرون بين الگواراني ديانتَهم المسيحيّة ، لم يحاولوا أن يفرضوا عليهم الثقافة الإسبانيّة وهي ثمرةُ تطوّرٍ حصل في بيئةٍ وظروفٍ تختلف كلّ الاختلاف عن بيئةِ أميركا الجنوبيّة وظروفها . وبذلك حقّق اليسوعيّون ، نحوَ قرنين قبلَ سواهم ، المبدأَ المعلنَ حديثًا والقائل بأنّ نشر بشارة الإنجيل – وعلى صعيدٍ آخر ، نقلَ الخبرات والتقدّم التكنولوجيّ – لا ينبغي أن يرتبط بفرض أيّة ثقافةٍ وطنيّة على حساب ثقافةٍ أُخرى . ولمّا كان اليسوعيّون قد احترموا إلى حدٍّ بعيد ثقافة الگواراني وراعَوا لغتهم وشجّعوا استعمالها ، فإنّ الگواراني نجحوا في مواكبة ركب التقدّم ، خلافًا لسواهم من الأهلين الأصليّين الذين ظلّوا على هامش المسيرة . وحيث كان من نصيب سكّان البرگواي الصمودُ في وجه الإبادة الجسديّة والثقافيّة التي

٧١. وممّا أكّده أنّ اليسوعيّين كانوا رؤوسًا مستنيرةً ، وحقّقوا مشاريعهم في مَواطن الاستعمار بروحٍ خلاّقة وحسٍّ عمليّ كبير .

استهدفتْهم وجيرانهم في القرن السابع عشر والنصف الأوّل من القرن الثامن عشر، فإنّهم استطاعوا، بعد رحيل اليسوعيّين سنة ١٧٦٨، وعلى الرغم من الصعوبات الكثيرة والتقلّبات، الاندماج في عالم أميركا الجنوبيّة الجديد وتثبيت ذواتهم حتّى على الصعيد الثقافيّ. وعليه فمن الواضح أنّ اليسوعيّين قاموا، على مرّ السنين، بدورٍ حاسم لإنقاذ لغة الگواراني وثقافتهم، فضلاً عن هويّتهم. ولقد تمكّن أحد أشهر الاختصاصيّين في شؤون اللغة بأميركا الجنوبيّة وعضو المجمع اللغويّ في پاناما، ب. إيساثا كَلْدِرُون I. Calderon، مِن أنْ يقول: «يتعايش في البرگواي، على مستوًى من الأهمّيّة واحد، اللسانان الگواراني والاسبانيّ، سوى أنّ المواطن في البرگواي يشعر بالاعتزاز لانتمائه الهنديّ المتمثّل باللسان الگواراني، وهو يتكلّمه بِكِبْرٍ واعتزاز».

فهرس «الحواضر» *

* الأرقام تشير إلى المقاطع

فهرس الأعلام*

* الأرقام تشير إلى المقاطع

مصادر البحث

A) Lo « Stato » dei Guaranì

1. In epoca coloniale:

Anonimo, *Descrizione geografica, politica, istorica del Regno del Paraguay formatosi dai Padri Gesuiti*, Venezia, 1767.

Anonimo, *Relazione breve della repubblica, che i religiosi gesuiti delle provincie di Portogallo, e di Spagna hanno stabilito ne' domini oltramarini delle due monarchie, e della guerra che in esse hanno mossa, e sostenuta contro gli eserciti spagnoli e portoghesi. Cavata da' registri delle Segreterie e dei due rispettivi Principali Commissari e Plenipotenziari, e da altri documenti autentici, e fedelmente tradotta dall'Idioma Portoghese, in Italiano*, Lisbona, 1757.

Anonimo, *Storia di Niccolò Rubiuni detto Niccolò Primo, Re del Paraguay ed Imperatore dé Mammalucchi, tradotta dal francese*, edizione seconda, Lugano, 1756.

Cardiel José, S. J., *Costumbres de los Guaranís* (scritto dopo l'espulsione della Compagnia di Gesù dal Paraguay e pubblicato a cura di P. Hernández, S. J., in appendice a *Historia del Paraguay desde 1747 hasta 1767* di D. Muriel, S. J., Madrid, 1919).

Id., *Declaración de la verdad* (1758), pubblicato a cura di P. Hernández, S. J., Buenos Aires, 1900.

Cartas anuas de la provinca del Paraguay, Chile y Tucuman de la Compañia de Jesus, pubblicate a cura di C. Leonhardt, S. J., in « Documentos para la Historia Argentina », voll. XIX e XX, Buenos Aires, 1927-29.

Charlevoix Pierre, S. J., *Histoire du Paraguay*, 6 voll., Paris, 1757.

Del Techo Nicolás, S. J., *Historia Provinciae Paraguariae*, Leodii, 1673.

Doblas Gonzalo de, *Memoria histórica, geográfica, política y económica sobre la provincia de Misiones de indios guaranís* (1785), pubblicata in « Colección de Obras y Documentos relativos a la Historia Antigua y Moderna de las Provincias del Rio de la Plata, Notas y Disertaciones por Pedro de Angelis », vol. III, Buenos Aires (Imprenta del Estado), 1836.

Flores Manuel Antonio de, *Lettera al Commissario regio Valdelirios sulle condizioni del Paraguay, 14 agosto 1756*, pubblicata in « Colección ... De Angelis », vol. IV, Buenos Aires, 1836.

Henis Tadeo Xavier, S. J., *Diario histórico de la Rebelión y guerra de los pueblos guaranís situados en la costa oriental del rio Uruguay del año 1754*, pubblicato in « Colección ... De Angelis », vol. V, Buenos Aires, 1836.

Lozano Pedro, S. J., *Historia de la Compañia de Jesús en la Provincia del Paraguay*, 2 voll., Madrid, 1754-55.

Id., *Historia de las Revolucciones de la Provincia del Paraguay 1721-1735* (scritta nel 1750), Buenos Aires, 1905.

Montoya Antonio Ruíz de, S. J., *Conquista espiritual hecha por los religiosos de la Compañia de Jesús en las provincias del Paraguay, Paraná, Uruguay y Tape*, Madrid, 1639 (edizione Bilbao, 1892).

Muratori Ludovico Antonio, *Il cristianesimo felice nelle missioni de' padri della*

Compagnia di Gesù nel Paraguay, Venezia, edizione 1752.
MURIEL Domingo, S. J., *Historia del Paraguay desde 1747 hasta 1767* (originale latino edito in spagnolo a cura di P. Hernández, S. J., Madrid, 1919).
PERAMÁS José Manuel, S. J., *De Administratione guaranitica comparate ad Rempublicam Platonis commentarius* (ex *De Vita et Moribus XIII virorum Paraguaycorum*), ediz. spagnola a cura di J. Cortés del Pino con il titolo *La República de Platón y los Guaranies*, Buenos Aires, 1946.
ID., *De Vita et Moribus Sex Sacerdotum Paraguaycorum*, Faenza, 1791.
ID., *De Vita et Moribus XIII Virorum Paraguaycorum*, Faenza, 1793.
SANCHEZ LABRADOR José, S. J., *El Paraguay Católico* (scritto nel 1770), 3 voll., Buenos Aires, 1910-1917.
SEPP Anton, S. J., *Reisebeschreibung*, Nuerenberg/Brixen, 1696.
ID., *Fortsetzung der Beschreibung*, Ingolstatt, 1710.
XARQUE Francisco, *Vida del V. P. Antonio Ruíz de Montoya*, Zaragoza, 1662.

2. In epoca moderna:

ARMANI Alberto, *Sull'origine e sviluppo dell'ordine politico e sociale nelle riduzioni del Paraguay*, in «Archivum Historicum Societatis Jesu», 1955 (XXIV), pp. 379-401.
ID., *Les institutions politiques et sociales dans les Réductions du Paraguay, Presentation et commentaire de Robert Lacombe*, in « Sciences Ecclésiastiques », Montréal, 1961 (XII), n. 3, pp. 391-419.
ASTRAIN Antonio, S. J., *Historia de la Compañía de Jesús en la Asistencia de España*, voll. IV, V, VI, Madrid, 1913-1916-1920.
BAUDIN Louis, *Une théocratie socialiste. L'Etat jésuite du Paraguay*, Paris, (M. Th. Génin), 1962.
BLANCO José Maria, S. J., *Historia documentada de los Mártires del Caró*, Buenos Aires, 1929.
BUSANICHE Hernán, *La arquitectura en las misiones jesuíticas guaranies*, Santa Fé (El Litoral), 1955.
BUSCHIAZZO Mario, *La arquitectura en madera de las misiones del Paraguay*, in « Studies in Western Art, Act of the 20th International Congress of the History of Art », Vol. III: « Latin American Art », Princeton University Press, pp. 173-190.
CHARLES Pierre, S. J., *Les réductions du Paraguay*, Louvain, 1926.
DELATTRE Pierre, S. J., e LAMALLE Edmond, S. J., *Jésuites Wallons, Flamands, Français missionnaires au Paraguay*, in « Archivum Historicum Societatis Jesu », 1947 (XVI), pp. 98-176.
DEMERSAY Alfred, *Histoire physique, économique du Paraguay et des établissements des Jésuites*, Paris, 1860.
DONY Paul, *Espléndido anacronismo. La vita en las misiones jesuíticas del Paraguay*, in « Américas », Washington D. C., 1961 (XIII), n. 4, pp. 16-21.
ID., *L'architecte de São Miguel das Missões (Jean-Baptiste Primoli, S. J.)*, in « Actas do III colóquio internacional de estudios luso-brasileiros », Lisboa, 1960.
EGUÍA RUÍZ Constancio, S. J., *El espiritu militar de los jesuitas en el Paraguay*, in « Revista de Indias », Madrid, 1944, pp. 267-319.
FASSBINDER Maria, *Der « Jesuitenstaat » in Paraguay*, Halle, 1926.
FRANKL Victor, *Idea del Imperio Español y el problema jurídico-lógico de los estados-misiones en el Paraguay*, in « Estudios de Historia de América », México, 1948, pp. 31-70.
FRIAS Lesmes, *Las misiones españolas de la América Meridional ¿eran estados independientes?*, in « Razón y Fé », vol. 117, Burgos, 1939, pp. 165-175.
FURLONG Guillermo, S. J., *Cartografía gesuítica del Rio de la Plata*, Buenos Aires, 1936.
ID., *La arquitectura en las misiones guaraníticas*, in « Estudios », Revista de la Academia Literaria del Plata, tomo LVII, Buenos Aires, 1937, pp. 81-100.
ID., *Antonio Sepp, S. J., y su « Gobierno Temporal » (1732)*, Buenos Aires, Colección Escritores coloniales Rioplatenses, 1962.
ID., *Tomás Fields, S. J., y su Carta al Préposito General (1601)*, Buenos Aires, Colección Escritores coloniales Rioplatenses, 1971.

ID., *Misiones y sus pueblos de guaraníes*, Buenos Aires (Impr. Balmes), 1962.

GOTHEIN Eberhard, *Lo Stato cristiano-sociale dei Gesuiti nel Paraguay*, Lipsia, 1883 (trad. it. di G. Sanna, Venezia, 1928).

HAUBERT Maxime, *La vie quotidienne au Paraguay sous les Jésuites*, Paris (Hachette), 1967.

ID., *L'oeuvre missionnaire des Jésuites au Paraguay - 1585-1768*, Université de Paris, 1966.

HERNÁNDEZ Pablo, S. J., *El extrañamiento de los Jesuitas del Rio de la Plata*, Madrid, 1908.

ID., *Organización social de las doctrinas guaraníes de la Compañíes de Jesús*, 2 voll., Barcelona, 1913.

JAEGER Luis Gonzaga, S. J., *La Compañía de Jesús en el antiguo Guayrá (1581-1631). Localisación de sus trece reducciones*, in « Pesquisas - Anuario do Istituto Anchietano de Pesquisas », vol. I, Pôrto Alegre, pp. 93-121.

ID., *A fámilia Guaraní Cristianizada*, in « Anaes do II Congresso de História e Geografia Sul-Riograndense», Pôrto Alegre, 1937.

ID., *As primitivas Reduções Jesuíticas do Rio Grande do Sul (1626-1636)*, in « Terra Farroupilha », Pôrto Alegre, 1936.

KRATZ Wilhelm, S. J., *Das Experiment von Paraguay*, in « Schweizer Rundschau » fasc. 2, 1948-1949, pp. 101-107.

ID., *El tratado Hispano-Portugués de Límites de 1750 y sus consecuencias (versión directa del alemán por Diego Bermúdez Camacho)*, Roma, 1954.

LACOMBE Robert, Table Ronde sur les Incas du Pérou et les Réductions du Paraguay, Paris, 10 mars 1964, pubbl. in « Sciences Ecclésiastiques », Montréal, 1964 (XVI), n. 3, pp. 513-516.

ID., *Sur la Terre Comme au Ciel. L'Expérience économique des jésuites au Paraguay*, in « Sciences Ecclésiastiques », Montréal, 1955, pp. 293-318.

ID., *Trois documents français du début du XVIIIe siècle sur les jésuites du Paraguay*, in «Revue d'histoire économique et sociale », Paris, 1964, (vol. 42), pp. 27-73.

LUGON Clovis, *La république communiste-chrétienne des guaranis - 1610-1768*, Paris (Les édit. ouvrières), 1949.

MATEOS Francisco, S. J., *La anulación del Tratado de Limites con Portugal de 1750 y las Misiones del Paraguay*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1954 (XI), n. 31, pp. 523-564.

ID., *Nuevos incidentes en las Misiones del Paraguay hasta el final de la demarcacion de los limites 1757-1760*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1954 (XI), n. 31, pp. 135-192.

ID., *Pedro de Ceballos, Gobernador de Buenos Aires, y los misioneros del Paraguay*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1953 (X), n. 28, pp. 313-375.

MELÍA Bartomeu, S. J., *La création d'un langage chrétien dans les réductions des Guaranis au Paraguay*, 2 voll., Université de Louvain, 1969.

MIRANDA Francisco Xavier, S. J., *Vida del venerable sacerdote Don Domingo Muriel*, Córdoba, 1916.

MOERNER Magnus, *Os jesuitas espanhóis as suas missões Guaraní e a rivalidade Luso-Espanhola pela Banda Oriental 1715-1737*, in « Revista Portuguesa de História », Coimbra, 1960 (vol. 9), pp. 141-175.

ID., *The Guarani missions and the Segregation policy of the Spanish Crown*, in « Archivum Historicum Societatis Jesu », 1961 (XXX), pp. 367-386.

ID., *The political and economic activities of the Jesuits in the la Plata Region. The Habsburg Era*, Stockholm, 1953.

MOUSSY Martin DE, *Mémoire historique sur la décadence et la ruine des missions des Jésuites dans le bassin de la Plata*, Paris, 1865.

NADAL MORA Vicente, *Monumentos Históricos de Misiones: San Ignacio Miní* (con nota storica di G. Furlong, S. J.), Buenos Aires, 1955.

O' NEILL George, *Golden Years of the Paraguay*, London, 1934.

PASTELLS *Pablo*, S. J., *Historia de la Compañía de Jesus en la Provincia del Paraguay según los documentos originales del Archivo General de Indias*, 8 voll., Sevilla, 1912-1952.

POPESCU Oreste, *El sistema económico en las misiones jesuíticas*, Bahia Blanca, 1952.

ID., *Sistema económico en las misiones jesuíticas. Un vasto experimento de desarrollo indoamericano*, Barcelona (Ariel), 1967.

QUELLE Otto, *Das Problem des Jesuitenstaates Paraguay*, in « Ibero-Amerikanische Archiv», 1934, pp. 260-282.

RASTOUL Armand, *Les jésuites du Paraguay*, Paris, 1907.

ROSA Enrico, S. J., *I beati Rocco González de Santa Cruz, Alfonso Rodriguez, Giovanni del Castillo della Compagnia di Gesù*, Roma, 1934.

RUFFO Rufo, *Le Riduzioni del Paraguay*, Roma, 1934.

TACCHI-VENTURI Pietro, S J., *Corrispondenza inedita di Lodovico Antonio Muratori con i padri Contucci, Lagomarsini e Orosz della Compagnia di Gesù*, Roma, 1910.

WEISS Ignazio, *Le antiche missioni guaranitiche della Compagnia di Gesù*, in « Le Vie del Mondo », Milano, 1950, pp. 697-710.

ZUBILLAGA Félix, S. J., *Muratori storico delle missioni americane della Compagnia di Gesù. Il Cristianesimo felice*, in « Rivista di Storia della Chiesa in Italia », 1950 (IV), pp. 71 ss.

B) LA REGIONE DEL RIO DE LA PLATA, PARAGUAY, CHILE, TUCUMÁN E BRASILE

1. In epoca coloniale:

ALVEAR Diego de, *Relación geográfica e histórica de la Provincia de Misiones* (1795), pubblicata in « Colección ... De Angelis », vol. IV, Buenos Aires, 1836.

AZARA Félix de, *Relazione sui confini orientali del Paraguay*, pubblicata in « Colección ... De Angelis », vol. IV, Buenos Aires, 1836.

ID., *Viaggi nell'America Meridionale (1781-1801)*, trad. it., 2 tomi, Milano, 1817.

COLECCIÓN DE OBRAS Y DOCUMENTOS RELATIVOS A LA HISTORIA ANTIGUA Y MODERNA DE LAS PROVINCIAS DEL RIO DE LA PLATA, *Notas y Disertaciones por Pedro de Angelis*, 6 voll., Buenos Aires, 1835-1837.

DOBRIZHOFFER Martin, S. J., *Historia de Abiponibus equestri bellicosaque Paraquaria Natione*, Wien, 1784.

DOCUMENTOS RELATIVOS A LA EJECUCION DEL TRATADO DE LIMITES DE 1750, a cura dell'Istituto Militare Uruguayano, Montevideo, 1938.

GARAY Juan de, *Fundación de la Ciudad de Buenos Aires, con otros documentos de aquella época*, pubblicata in « Colección ... De Angelis », vol. III, Buenos Aires, 1836.

GUEVARA José, S. J., *Historia del Paraguay, Rio de la Plata y Tucumán* (scritta all'epoca della espulsione della Compagnia di Gesù), pubblicata in « Colección ... De Angelis », vol. II, Buenos Aires, 1836.

GUZMAN Rui Díaz de, *Del descubrimiento, población y conquista de las provincias del Rio de la Plata, 1612*, pubblicato in « Colección ... De Angelis », vol. I, Buenos Aires, 1835.

LOZANO Pedro, S. J., *Descripción Chorográfica de las dilatadisimas provincias del Gran Chaco*, Córdoba, 1733.

MANUSCRITOS DA COLEÇÃO DE ANGELIS *(introdução, notas, sumario por Jaime Cortesão)*:

vol. I, *Jesuitas e bandeirantes no Guayrá, (1594-1640)*, Rio de Janeiro, 1951.

vol. II, *Jesuitas e bandeirantes no Itatín* (1596-1760), Rio de Janeiro, 1952.

vol. III, *Jesuitas e bandeirantes no Tape (1615-1641)*, Rio de Janeiro, 1969.

vol. IV, *Jesuitas e bandeirantes no Uruguay (1611-1758)*, a cura di Helio Viana, Rio de Janeiro, 1970.

vol. V, *Tratado de Madrí. Antecedentes. Colonia do Sacramento (1669-1749)*, Rio de Janeiro, 1954.

vol. VI, *Tratado de Madrí. Antecedentes Jesuitas e bandeirantes no Paraguay (1703-1751)*, Rio de Janeiro, 1955.

vol. VII, *Do tratado de Madrí à conquista dos sete Povos (1750-1802)*, Rio de Janeiro, 1969.

MORA Bartolomé de, *La guerra de Chiriguanos de 1729* (scritta all'epoca dei fatti e pubblicata a cura di M. Ponsnansky, con nota introduttiva di A. Métraux, in « Revista del Instituto de Etnologia », tomo II, Asunción, 1931, pp. 101-132.

Prefeitura do Municipio de São Paulo - Documentos ineditos: bandeirantes no Paraguay. Seculo XVII, São Paulo, 1949.

Tamajuncosa Antonio, O.F.M., *Descripción de las misiones de Nuestra Señora de los Angeles de la Villa de Tarija (1800)*, pubblicata in « Colección ... De Angelis », vol. V, Buenos Aires, 1836.

Thevet André, *Cosmographie Universelle*, vol. II, *Le Brésil et les Brésiliens*, Paris, 1575, (ed. 1953).

Id., *Les singularitez de la France Anctartique*, Paris, 1558 (trad. it. di G. Horologgi, Venezia, 1584).

2. In epoca moderna:

Bazin Germain, *L'architecture religieuse baroque au Brésil*, Museu de Arte São Paulo/Paris (Plon), 1958.

Id., *Plans d'établissements jésuites du XVIe siècle à Goa et au Brésil*, « Actas, III Cóloquio Internacional de Estudios Luso-Brasileiros », Lisboa, 1957.

Boettner Juan Max, *Música y Músicos del Paraguay*, Asunción, 1957.

Bruno Cayetano, *Historia de la Iglesia en la Argentina*, voll. I e II, Buenos Aires (Ed. Don Bosco), 1967.

Buschiazzo Mario, *Argentina, Monumentos Históricos Arquelógicos*, México, 1959.

Cardozo Efraim, *El Paraguay Colonial, Las raices de la nacionalidad*, Buenos Aires/Asunción, 1959.

Id., *Historiografía Paraguaya*, México, 1959.

Centurión Carlos R., *Historia de la Cultura Paraguaya*, 2 voll., Asunción, 1961.

Cignoli Francisco, *Médicos y boticarios misioneros*, in « Anales de la Real Academia de Farmacia », Madrid, 1953.

Cortesão Jaime, *A fundação de São Paulo, capital geográfica do Brasil*, Rio de Janeiro, 1955.

Id., *Alexandro de Gusmão e o tratado de Madrí*, Rio de Janeiro, 1952.

Id., *Raposo Tavares e a formação territorial do Brasil*, Rio de Janeiro, 1958.

Da Costa Rego Monteiro Jonathas, *A colonia do Sacramento 1680-1777*, 2 voll., Pôrto Alegre, 1937.

Dreidemie Oscar J., S. J., *Los orígenes del teatro en las regiones del Rio de la Plata*, in « Estudios », Buenos Aires, 1937 (LVII), pp. 61-80, particolarmente pp. 70-73.

Estrada José Manuel, *Ensayo histórico sobre la revolucción de los Comuneros del Paraguay*, Buenos Aires, 1865.

Id., *Lecciones de Historia de la República Argentina*, Buenos Aires, 1865.

Echanove Alfonso, S. J., *Origen y evolución de la idea jesuítica de « Reducciones » en las misiones del Virreynato del Perù*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1955 (XII), n. 35, pp. 95-144. La seconda parte dello studio, intitolata *La Residencia de Juli, patrón y esquema de Reducciones*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1956 (XIII), n. 37, pp. 497-540.

Funes Gregorio, *Ensayo de la Historia civil del Paraguay, Buenos Aires y Tucumán*, 3 voll., Buenos Aires, 1816-1817.

Furlong Guillermo, S. J., *Domenico Zipoli, músico eximio en Europa y América* (1688-1726), in «Archivum Historicum Societatis Jesu », 1955 (XXIV), pp. 418-428.

Id., *Historia y Bibliografía de las primeras imprentas rioplatenses (1700-1850)*, 3 voll., Buenos Aires, 1953-59.

Id., *Historia social y cultural del Rio de la Plata (1536-1810). El transplante social. El transplante cultural: ciencia, arte*, 3 voll., Buenos Aires, 1969.

Id., *Los jesuitas y la cultura rioplatense*, Montevideo, 1933.

González J. Natalicio, *Proceso y formación de la cultura paraguaya* (2ª ed.), Asunción, 1948.

Korth Eugene, S. J., *Spanish policy in Colonial Chile*, Stanford Cal., 1968.

Leite Serafim, S. J., *Historia da Companhia de Jesus no Brasil*, 10 voll., Lisboa/Rio de Janeiro, 1938-1950.

Maeder Ernesto J. A., *Nómina de gobernantes civiles y eclesiásticos de la Argen-*

tina durante la época española (1500-1810), Instituto de Historia, Facultad de Humanidades, Universidad Nacional del Nordeste, Resistencia (Chaco).
MÉTRAUX Alfred, *Jésuites et indiens en Amérique du Sud*, in « La Revue de Paris », juin 1952, pp. 102-113.
ID., *La civilisation matérielle des tribus Tupi-Guarani*, Paris, 1928.
ID., *La Réligion des Tupanamba et ses rapports avec celle des autres tribus Tupi-Guarani*, Paris, 1928.
MILLÉ Andrés, *Crónica de la Orden franciscana en la conquista del Perú, Paraguay y del Tucumán*, Buenos Aires, 1961.
ID., *Derrotero de la Compañía de Jesús en la conquista del Perú, Tucumán y Paraguay y sus iglesias del antiguo Buenos Aires 1567-1768*, Buenos Aires, 1968.
MOLAS Antonio, *Descripción Histórica de la Antigua Provincia del Paraguay* (scritta nel periodo 1836-1839), Buenos Aires, 1868.
MOLINA Raúl A., *La obra franciscana en el Paraguay y Rio de la Plata*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1954 (XI), n. 31, pp. 329-400 e 485-522.
ID., *Fray Martín Ignacio de Loyola*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1953 (X), n. 28, pp. 21-71.
MONZON Antonio, *Los Guaraníes y la enseñanza superior en el periodo hispánico*, in « Estudios », Revista de la Academia Literaria del Plata, tomo LXXX, Buenos Aires, ag-dic. 1948, pp. 350-359.
MORA MERIDA José Luís, *Historia social del Paraguay 1600-1650*, Sevilla, 1973.
ORBIGNY Alcide d', *Fragments d'un voyage au centre de l'Amérique Méridionale*, Paris, 1845.
PARISH Woodbine, *Buenos Aires y las Provincias de la Plata*, trad. spagnola, Buenos Aires, 1852.
SUSNIK Branislava, *El indio colonial del Paraguay*, 3 voll., Asunción, 1965-1966.
TAUNAY Affonso D'Escragnolle, *História das bandeiras paulistas*, 2 voll., São Paulo, 1951.
ID., *História geral das bandeiras paulistas, escripta à vista de avultada documentação inédita dos archivos brasileiros, espanholes e portugueses*, 11 voll., São Paulo, 1924-1950.
TESCHAUER Carlos, S. J., *História do Rio Grande do Sul dos dous primeiros séculos*, 3 voll., Pôrto Alegre, 1918-1922.
VARGAS UGARTE Ruben, S. J., *Historia de la Compañía de Jesús en el Perù*, Burgos, 1963.
WEISS Ignazio, *Gauchos, Gesuiti, Genovesi. Storie del Rio de la Plata*, Roma, 1955.

C) AMERICA MERIDIONALE: STORIA POLITICA, ECONOMICA, SOCIALE

1. In epoca coloniale:

ACOSTA José, S. J., *Historia natural y moral de las Indias*, Sevilla, 1590 (ediz. Madrid, 1894).
COLECCION DE DOCUMENTOS INEDITOS RELATIVOS AL DESCUBRIMIENTO, CONQUISTA, Y COLONIZACION DE LAS POSESIONES ESPAÑOLAS EN AMERICA Y OCEANIA (DOCUMENTOS INEDITOS DE AMERICA), 42 voll., Madrid, 1864-1884.
COLECCION DE DOCUMENTOS PARA LA HISTORIA DE LA FORMACION SOCIAL DE HISPANO-AMERICA *(1493-1810)*, a cura di Richard KONETZKE, 3 tomi, Madrid, 1953-1958.
DIAZ DEL CASTILLO Bernal, *Verdadera Historia de los Sucesos de la Conquista de Nueva España* (circa 1552), Madrid, 1632.
DOCUMENTOS PARA LA HISTORIA DE LA SUBLEVACION DE JOSE GABRIEL TUPAC-AMARU CACIQUE DE LA PROVINCIA DE TINTA EN EL PERU EN EL AÑO 1780, pubblicati in « Colección ... De Angelis », cit., vol. V, Buenos Aires, 1836.
GOMARA Francisco Lopez de, *Historia general de las Indias*, Zaragoza, 1552.
MONUMENTA PERUANA (Raccolta della corrispondenza della provincia peruviana della Compagnia di Gesù 1565-1599), a cura di A. Egaña, S. J., 6 voll., Roma, 1954-1974.
RACCOLTA DI CARTE E DOCUMENTI ESPOSTI ALLA MOSTRA TENUTA IN PALAZZO VECCHIO NEL V CENTENARIO DELLA NASCITA DI AMERIGO VESPUCCI, Firenze, 1955.

Solórzano Pereira Juan, *Política indiana*, Madrid, 1647.

2. In epoca moderna:

Alcazar Molina Cayetano, *Los Virreynatos en el Siglo XVIII*, Barcelona/Buenos Aires (Salvat ed.), 1945.
Barnadas Josep M., *Charcas, Orígenes históricos de una sociedad colonial*, La Paz, 1973.
Bataillón Marcel, *Erasmo y España*, México (2a ed.), 1966.
Id., *Etudes sur Bartolomé de Las Casas (réunies avec la collaboration de Raymond Marcus)*, Paris, 1966.
Batllori Miguel, S. J., *The papal division of the World and its consequences*, International Conference on « First Images of America: the impact of the New World on the Old », Center for Medieval and Renaissance Studies of the University of California, Los Angeles, 6-9 febbraio 1975.
Bayle Constantino, *Cabildos de Indios en la América Española*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1951 (VIII), pp. 5-35.
Borges Analola, *El Tratado de Tordesillas y la conquista del Rio de la Plata*, in Atti del « Primer Coloquio Luso-Español de Historia de Ultramar, El Tratado de Tordesillas y su proyección », Valladolid, 1973, tomo I, pp. 345-356.
Borges Pedro, O.F.M., *El sentido trascendente del descubrimiento y conversión de Indios*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1956 (XIII), n. 37, pp. 141-177.
Cantú Francesca, *Evoluzione e significato della dottrina della restituzione in Bartolomé de las Casas*, in « Critica Storica », Roma, dicembre 1975 (XII), pp. 231-319.
Capitan Louis e Lorin Henri, *Le travail en Amérique avant et après Colomb*, Paris, 1930.
Castelnau Francis de, *Expédition dans les parties centrales de l'Amérique du Sud en 1842 á 1847*, Paris, 1850.
Castelo Branco Fernando, *O Tratado de Tordesilhas e o Brasil*, in «El Tratado de Tordesillas y su proyección », cit., tomo II, pp. 93-101.
Collier John, *Indians of the Americas*, New York, 1951.
Collier Richard, *Il fiume dimenticato da Dio - Oro e morte nell'Amazzonia* (trad. it. Club degli Editori), Milano, 1975.
Cortesão Jaime, *O Tratado de Tordesilhas e a descoberta de América*, in « Atti del XXI Congresso internazionale di Americanisti », Roma, 1926.
De Witte Charles Martial, *Les bulles pontificales et l'expansion portugaise au XVe siècle*, extrait de la « Revue d'Histoire Ecclésiastique », Louvain, 1958.
Egaña Antonio, S. J., *El regio patronato hispano-indiano. Su funcionamiento en el siglo XVI*, in « Estudios de Deusto », vol. 6, Bilbao, 1958, pp 149-204.
Id., *La función misionera del poder civil según Juan Solórzano Pereira (1575-1655)*, in « Studia Missionalia », Roma, 1951 (VI), pp. 63-113.
Id., *La teoria del Regio Vicariato Español en Indias*, in « Analecta Gregoriana », Roma, 1958.
García Gallo Alfonso, *Las bulas de Alejandro VI y el Ordenamiento jurídico de la expansión portuguesa y castellana en Africa e Indias*, in « Anuario de Historia del Derecho Español », tomo XXVII-XXVIII, Madrid, 1957-1958, pp. 461-829.
Giménez Fernández Manuel, *Las doctrinas populistas en la independencia de Hispano-América*, in « Anuario de Estudios Americanos », tomo III, Sevilla, 1946, pp. 517-665.
Id., *Bartolomé de Las Casas*, voll. I e II, Sevilla, 1953-1960.
Id., *Breve biografia de Fray Bartolomé de Las Casas*, Sevilla, 1966.
Handbook of American Indians (Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology), Washington D. C., 1910, voll. I e II.
Handbook of South American Indians (Smithsonian Institution, Bureau of American Ethnology), Washington D. C., 1946-1949, voll. I e V.
Hanke Lewis, *All Mankind is one. A study of the Disputation between Bartolomé de Las Casas and Juan Ginés de Sepúlveda in 1550 on the Intellectual and Religious capacity of the American Indians*, Northern Illinois University Press, DeKalb, Ill., 1974.

ID., *Aristote and the American Indians*, London, 1959, ed in ed. spagnola: *El perjuicio racial en el Nuevo Mundo. Aristóteles y los indios de Hispanoamérica*, Santiago de Chile (edit. Universitaria), 1958.
ID., *Colonisation et conscience chrétienne au XVIe siècle*, Paris (Plon), 1957.
ID., *El despertar de la conciencia en América: experimentos y experiencias españolas con los indios del Nuevo Mundo*, in « Cuadernos Americanos », México, lug.-ago. 1963.
ID., *Estudios sobre Fray Bartolomé de Las Casas y sobre la lucha por la Justicia en la conquista española de América*, Caracas, 1968.
ID., *La lucha por la justicia en la conquista de América*, Buenos Aires, 1949.
ID., *Las Casas pensador político, historiador, antropólogo*, La Habana, 1949.
ID., *Pope Paul III and the American Indians*, in « Harward Theological Review », aprile 1937 (XXX), n. 2.
HERNÁNDEZ SÁNCHEZ BARRA Mario, *La última expansión española en América*, Madrid (Inst. de Estudios políticos), 1957.
LIPSCHUTZ Alejandro, *El problema racial en la conquista de América*, México (3a ed.), 1975.
MADARIAGA Salvador de, *The rise of the Spanish American Empire*, London, 1947.
MOERNER Magnus, *El Mestizaje en la Historia de Ibero-América* (storiografia), Estocolmo (Instituto de Estudios Ibero-Americanos) 1960.
ID., *La corona española y los foraneos en los pueblos de indios de América*, Estocolmo, 1970.
ID., *Spanish Migration to the New World prior to 1810.* A state of research report prepared for the International Conference on « First Images of America: the impact of the New World on the Old », Center for Medieval and Renaissance Studies of the University of California, Los Angeles, 6-9 febbraio 1975.
MORALES PADRON Francisco, *Historia general de América*, Madrid, 1962.
OTS CAPDEQUI José M., *El régimen de la tierra en la América Española durante el periodo colonial*, Ciudad Trujillo, 1949.
ID., *Manual de Historia del Derecho Español en las Indias*, Buenos Aires, 1945.
PAULINO CASTAÑEDA F., *El tratado de Alcáçobas y su interpretación hasta la negociación del tratado de Tordesillas*, in « El Tratado de Tordesillas y su proyección », cit., tomo I, pp. 103-115.
PROSPERI Adriano, *America e Apocalisse - Note sulla « Conquista Spirituale » del Nuovo Mondo*, in « Critica Storica », Roma, marzo 1976 (XIII), pp. 1-61.
RAMOS PEREZ Demetrio, *Historia de la colonización española en América*, Madrid, 1947.
SOLANO Francisco de, *Contactos Hispano-Portugueses en América e lo largo de la frontera (1500-1800)*, in « El Tratado de Tordesillas y su proyección », cit., tomo II, pp. 113-141.
TORMO SANZ Leandro, *Las diferencias misionales a uno y otro lado de la linea*, in « El Tratado de Tordesillas y su proyección », cit., tomo II, pp. 81-92.
URDAÑOZ Teófilo, O. P., *Las Casas y Francisco de Vitoria*, in « Revista de Estudios Políticos », Madrid, (nov.-dic. 1974) pp. 115-191; (genn.-febb. 1975) pp. 199-224.
VAN PAUW Cornelius, *Recherches philosophiques sur les Américains*, Londres, 1770.
ZAVALA Silvio, *Aspectos económicos y sociales de la colonización en América*, México, 1955.
ID., *De encomiendas y propiedad territorial en algunas regiones de la América Española*, México, 1940.
ID., *El Mundo Americano en la Epoca Colonial*, 2 voll., México, 1967.
ID., *Estudios Indianos*, México, 1948.
ID., *Hispanoamérica Septentrional y Media. Periodo Colonial*, México, 1953.
ID., *La encomienda indiana*, Madrid, 1935.
ID., *La Filosofía política en la conquista de América*, México, 1947.
ID., *Las Doctrinas de Palacios Rubios y Matías de Paz* (Memoria de El Colegio Nacional), tomo VI, n. 6, México, 1951, pp. 67-159.
ID., *Los títulos de posesión a las Indias Occidentales*, México, 1970.
ID., *Las Instituciones jurídicas da la conquista de América*, Madrid, 1935.
ID., *Servidumbre natural y libertad cristiana según los tratadistas españoles de*

los siglos XVI y XVII, Buenos Aires, 1944.
ID., *La defensa de los derechos del hombre en América Latina (siglos XVI-XVIII)*, Paris (Unesco), 1963.

D) VARIE

ALEGRE Francisco Javier, S. J., *Historia de la Provincia de la Compañía de Jesús de Nueva España* (scritta al tempo dell'espulsione della Compagnia dalle colonie spagnole), 4 voll., a cura di E. Burrus, S. J., e F. Zubillaga, S. J., Roma, 1956-1960.
BATAILLÓN Marcel, *La Vera Paz, roman et histoire*, in « Bulletin Hispanique », Burdeos, 1951 (LIII), pp. 235-300.
CECCHERELLI Claudio, O.F.M., *El Bautismo y los Franciscanos en México (1524-1539)*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1955 (XII), n. 35, pp. 209-289.
DOCUMENTA INDICA (Raccolta della corrispondenza della provincia indiana della Compagnia di Gesù, 1540-1583), a cura di J. Wicki, S. J., Roma, 1948-1972.
KRATZ Wilhelm, S. J., *Gesuiti italiani nelle missioni spagnole al tempo dell'espulsione* (*1767-1768*), in « Archivum Historicum Societatis Jesu », 1942 (XI), pp. 29-68.
LETTRES EDIFIANTES ET CURIEUSES (Corrispondenze dalle missioni), voll. VIII, IX, Paris, 1791.
LOPETEGUI León, S. J., *San Francisco de Borja y el plan misional de San Pío V*, in « Archivum Historicum Societatis Jesu », 1942 (XI), pp. 11-26.
MADUREIRA J. M. de, S. J., *A libertade dos Indios. A Companhia de Jesus. Sua pedagogia e seus resultados*, Rio de Janeiro, 1927.
MATEOS Francisco, S. J., *Antecedentes de la entrada de los jesuitas españoles en las misiones de América* (*1538-1565*), in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1944 (I), n. 1 e 2, pp. 109-166.
ID., *El primer concilio del Rio de la Plata en Asunción (1603)*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1969 (XXVI), n. 76, pp. 257-359.
ID., *Misioneros jesuítas en el Perú durante el siglo XVI*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1944 (I), n. 1 e 2, pp. 559-571.
ID., *Primera expedición de misioneros jesuítas al Perú (1565-1568)*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1945 (II), n. 4, pp. 41-108.
MOERNER Magnus, Introduzione a *Thc expulsion of the Jesuits from Latin America* (AA. VV.), New York (Alfred A. Knopf), 1965.
MONTALBAN Francisco Xavier, S. J., *Manual de Historia de las Misiones*, Bilbao, 1952.
OLAECHEA Juan B., *Participación de los Indios en la taréa evangélica*, in « Missionalia Hispánica », Madrid, 1969 (XXVI), n. 76, pp. 241-256.
SOUZA Francisco de, S. J., *Oriente Conquistado a Jesus Cristo pelos Padres da Companhia de Jesus da Provincia de Goa*, Bombay, 1881.
VALIGNANO Alessandro, S. J., *Historia del principio y progreso de la Compañía de Jesús en las Indias Orientales*, a cura di J. Wicki, S. J., Città di Castello, 1944.
ZUBILLAGA Félix, S. J., *El procurador de la Compañía de Jesús en la Corte de España*, in « Archivum Historicum Societatis Jesu », 1947 (XVI), pp. 1-55.
ID., *Métodos misionales de la primera instrucción de San Francisco de Borja para la América Española*, in « Archivum Historicum Societatis Jesu », 1943 (XII), pp. 58-88.

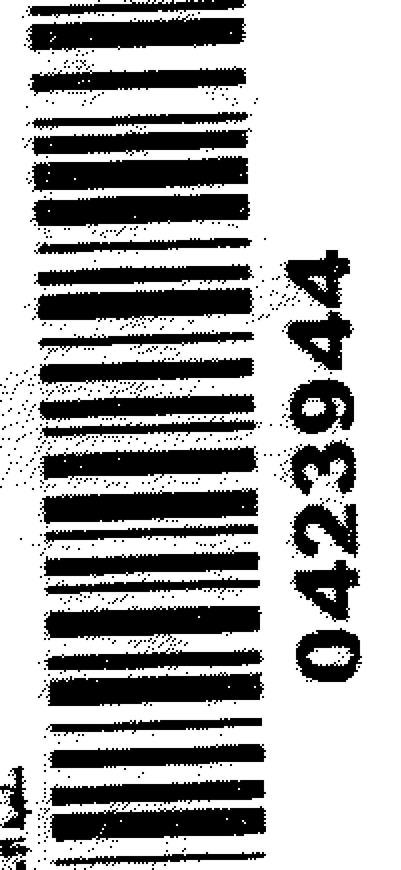
محتويات الكتاب

انجزت المطبعة الكاثوليكية ش م ل
عاريا — لبنان
طباعة هذا الكتاب في الخامس والعشرين
من شهر آب ١٩٩٠

٩٠/٨/٢٥-١,٥-٠١٧٠٠٢

في مطلع القرن السابع عشر، قامت، على رقعة واسعة من وسط أميركا الجنوبيّة، محاولةٌ فريدة من نوعها في التاريخ. فإنّ الحكومة الإسبانيّة، مستعمِرةَ تلك البلاد، سمحت للرهبانيّة اليسوعيّة الفتيَّة بإنشاء ما يشبه «دولة»، قوامها سلسلةٌ من القرى النموذجيّة، أو «الحواضر»، حيث جُمع الهنود الگوارانى ليُنقلوا، إنْ هُم أرادوا، من حال البداوة إلى حياة الحَضَر، بعيدًا عن استغلال المستعمِرين، ناعمين بالحماية والأمان والاحترام، عائشين ضمن نظام جماعيّ اشتراكيّ حرّ يستند إلى تعاليم الإنجيل وحقوق الإنسان. وازدهرت تلك القرى على مختلف المستويات: الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، فضلاً عن الدينيّة وحتّى العسكريّة — للدفاع عن النفس؛ وبقيت تؤدّي رسالتها حتّى سنة ١٧٦٨ حيث أُجبرَ اليسوعيّون على مغادرة المنطقة بأمرٍ مِن البابا بعد أن ضَغطت عليه الحكومات الأوروبيّة المناهضة للدين عامّةً والرهبانيّة اليسوعيّة خاصّة. إنّ في تلك المحاولة الفذّة عبرةً لكلّ من يَنشد ترقّي الشعوب وبناء مجتمعٍ إنسانيّ أفضل. ولقد رواها كتاب ألبرتو أرماني بدقّةٍ علميّة بالغة ونزاهةٍ في معالجة المعطيات نادرة.

رُسم الغلاف بريشة الراهب الألماني فلوريان باوكِه. أحد الذين عاصروا تجربة «الحواضر». تبرز الكنيسة. وإلى جانبها الدير والمباني الرسميّة. ثمّ مساكن الهنود تحيط بالساحة العامّة حيث احتشد الخيّالة في مناسبة أحد الأعياد. حول القرية تمتدّ البساتين والمراعي وملاعب الرياضة (لا أعلى اليسار).



منشورات:
دار المشرق ش م م
ص.ب: ٩٤٦ - بيروت، لبنان

التوزيع:
المكتبة الشرقية - ساحة النجمة
ص.ب: ١٩٨٦ - بيروت. لبنان